

بسم الله الرحمن الرحيم
المصنف: أفراد عائلة
أهل الاجبة وعائلة
الشيخ عبد الرحمن
حفظ الله

ولد في
عقد
سنة

١٩٥٠/١٠/١٨

عبد

نهر جاسم

رواية

قصي الشيخ عسكر

منشورات اتحاد الكتاب المغتربين

في الدول الاسكندنافية

دار الاضواء

بيروت - لبنان

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

1425 هـ - 2004 م



دار الأضواء
للطباعة والنشر والتوزيع
ت. ٢٧٨٧٣ - ٢٧٧٨٨ - ف. ٢٧١٣٥
م. ٢٥/٤٠٢ - بيروت، لبنان
e-mail: adwaabooks@hotmail.com

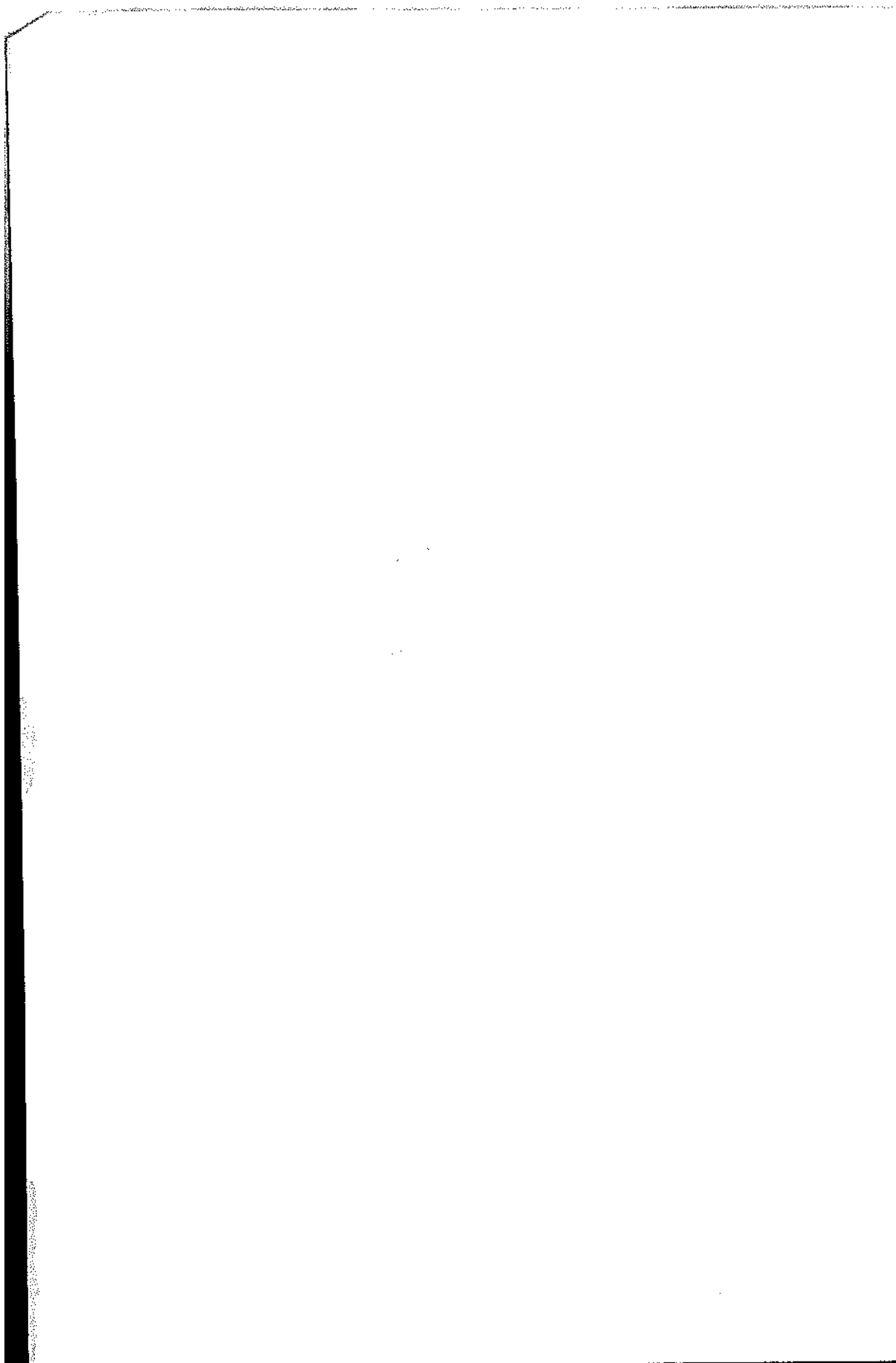
جميع حقوق النشر والتأليف محفوظة ومسجلة للناشر. ولا يحق لأي شخص أو مؤسسة أو جهة إعادة طبع أو ترجمة أو نسخ الكتاب أو أي جزء منه إلا بترخيص خطي من الناشر والمؤلف تحت مظلة الشرع والقانون.

بإهداء

إلى قريتي التي..

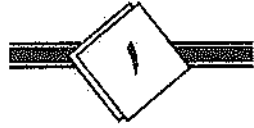
زالت من الوجود..

وبقيت عالقة في الضمير...



سفر الأول

الداهية



قالت راوية نهر جاسم:

أم عبد بنت الشيخ الولي صاحب القبر المعروف تلك هي كنيتهما وهو اسمها الذي عرفت به منذ الطفولة وبه ناداها أبوها، كان عمر الطفلة وفق التخمينات ثلاث سنوات حين قدم الثلاثة إلى قرية (بيت جوك)، أمّا لقب الداهية فقد أطلقه عليها ذات يوم مستر (دوسن) باني القرية ومهندس بساينها وأنهارها. والحق أن الأيام أثبتت صحة ما ذهب إليه الوصف، فالعالم كله من دون مبالغة بنصف عقل واستأثرت وحدها (أم عبد) بالنصف الآخر، ولو قدر لها أن تدخل مدرسة وتتعلم لأصبحت وزيرة أو على أقل تقدير موظفة كبيرة، لكن القدر جاء بها إلى هذه القرية ليرسم خطواتها إلى حيث لا تدري الراوية عنها فيما بعد أيّ خبر من الأخبار.

مهما يكن من أمر، فالداهية بنت نهر جاسم تفخر بها قرينتها ولا بأس أن تنسب إليها عن حسن نية أخبار غير عادية تخرج بعض الأحيان عن نطاق الممكن المعقول. فهي القادرة على إيجاد أي حل لأية ورطة، وهي الواثقة من نفسها والتمكنة من دفع أية حجة. لسانها بالحق يقطع الحديد. لم تعش في المدينة لكنها تعرف حيل أهلها ودجل دجاليتها، وتحذر من يذهب من الفلاحين إلى العشار والبصرة لبيع محصوله هناك، كأنها تعيش في كل مكان وتفهم الناس عن قرب وبعد، ولولا انتسابها إلى الشيخ الجليل والشجرة العلوية الطاهرة لقبل عنها أفعى، وفرعون، وثعلب، غير أنها أفعى لا تلدغ، وفرعون متواضع مؤمن، وثعلب لا يسرق. فكل ما يقال عنها صحيح حتى الاستعمار نفسه اعترف لها بالتفوق وسماها الداهية.

نعم، الداهية التي أخفت كل شيء وأظهرت كل شيء بالوقت نفسه، لم تززعها العواصف ولا النكبات، ولم تحن قامتها الأحداث خاصة بعد اغتيال أخيها ووفاة والدها فتذرت نفسها لخدمة الضريح ولبست السواد وأعرضت عن الزواج، لذلك كان للخبر الجديد وقع المفاجأة. أمر لا يصدقه العقل حقاً، فمن الغرابة والعجب العجيب أن توافق الداهية على العرض خلال بضعة أيام وهي التي أعرضت عن الزواج بالمرّة وانصرفت إلى خدمة الضريح. لقد تقدم إليها الكثيرون... وقبل كل واحد من خاطبيها أن تزف إليه بالسواد، لكي لا تحنث

بيمينها ما دامت أقسمت أن ترتدي الملابس السوداء طول حياتها، أما الباشا فما كان له أن يفكر بالزواج، والحاج عباس على قيد الحياة، لا خوفاً أو تملقاً، وللآخرين أن يفسروا عمله كيف شاءوا. المهم أنه اقتنع تماماً أن اقترانه بالداهية سيحقق له أملين: الذرية التي تحمل اسمه، والزخم الكثير من الأصوات التي تضاف إلى رصيده حين يعلن في نهاية عقد الخمسينيات عن ترشيحه لأي منصب كبير في بغداد.

ذلك اليوم استقبل الباشا الداهية باهتمام وترحاب مسرفين، فتوجست شيئاً ما، بيد أنه دخل في الموضوع مباشرة. قال لها: يا بنت سيدنا الشيخ، تعرفيني متزوجاً من أعوام طوال. لم أحن الحاجة رقية، ولم أسئ إليها. لست أعوج أو شارب خمر والحمد لله. المشكلة الحقيقية تكمن في الولد، من حقي أن أكون أباً لولد يرثني، وأنت ذكية، قرشية أصيلة، فما رأيك لو وافقت، لعل الله يرزقني ببركتك ولداً، يحمل اسمي ويرث ذكاءك. كانت تنصت إليه وعيناها تتقبان الأرض. إنها تدرك جيداً لم اختارها من دون النساء. تعرفه دقيقاً في كل خطوة يخطوها، منذ خطوته الأولى عند الأجمة، واللقاء وصوت الطلقة لو كشف النقاب عن وجهه لعرفته، المشية ذاتها، والهيئة نفسها، هناك تلمح شيئاً ما، تأنيب الضمير والطموح والرغبة في إحياء الذكر.

كان طموح نهر جاسم القرية المسماة بأسم أبيها يتجسد في الباشا..
يا للقري والمدن الأخرى في البصرة من حصة بغداد. العشار.
أبو الخصيب.. الزبير.. حتى قرية مهيجران المنسية قدمت عضواً لبغداد
ترجع في عرش البرلمان وشط العرب تلك الناحية الطويلة العريضة ما
زالت نائمة إلى أن أيقظها ابن النمر قبل أن تخلع اسمها القديم وتلبس
الثاني، فاهربي أيتها الصبية اهربي وأنت تشاهدين (عبد) يتلوّى
إطلاقة وسكون يتهشم، شاب ينتظر حبيبته. يفرّ حمام بين السعفات،
ويفز حجل حائر. العاشق يضع يده على قلبه يتهاوى ويسقط. سنوات
أغلبها مرّ مرارة العلقم، وكلها انتظار. يكاد الأمل يكون محالاً وإن
تجسّد بأشكال شتى... باشا يحلم ببغداد، امرأة تراقب نذراً، قرية
طويلة عريضة تضع أملها في الضريح، ويبدو أن طلب الباشا قرّب
الداهية من هدفها، وحرك (نهر جاسم) من رتابتها. سنوات طويلة،
وهي تفكر كيف تحقق أملاً أقرب إلى المحال. لا يهتمها الناس، وكل
العرف الشائع، يمكن أن تقول إنها استخارت الولي الشيخ، وهي
بالتأكيد سوف تستخيره. فقط رقية وحدها تقف حجر عثرة. كانت
قرية منها وبعيدة عنها في الوقت نفسه. في أكثر من مكان وساعة غابت
عنها وحضرت معها، ومن حسن الحظ أن رقية ارتقت معها وقت
الفيضان إلى الجبل. كان الباشا في بغداد، فضاقت الوقت بالحاج عباس
وابنته ولا مكان يحمي من الماء، فهبوا إلى الجبل. خطت الداهية فوق

العقارب ، والصخر ، وانتشلتها من الوحدة والحزن :

أترغبين أن أبعث إليك إحدى الوصيفات لتبيتَ عندك؟

وقتها لم تطلق الدأهية لعواطفها العنان ، وتقترب أكثر من رقية ،
فالأخيرة تجهل جهلاً تاماً معرفة الصبية أم عبد ، بالعلاقة. أتى لها أن
تعرف. النخيل والشجر ، والقصب والبردي. الماء ، وزرقة السماء. كل
ما في الكون يشهد الحب الطاهر ويروي عنه ما عدا البشر. الفتاة الجميلة
البيضاء ، ذات العيون العسلية ، والقامة المديدة والشعر الحريري ، أحبت
فارساً حطّ من كوكب آخر ، كوكب أحمر اللون ، انتشرت عليه الجثث
وخيم فوقه الرماد ، تلك الحوزية تجهل أن شقيقة (حبيب القلب) تدبّ
خلسةً خلف أخيها بعد أن عرفت تغييره المفاجئ ، وتختبئ على بُعد
خطوات ، فتسمع خفقات القلبين :

- عبد أنا لك..

- وأنا لك..

- لا يمكن أن أكون لغيرك..

- ماذا لو أجبروك؟

- قلبي لك سوف أعيش بجسدي مع غيرك. المستقبل بقرات عجاف

يلتهمن الأخضر واليابس. أشبه بالجمر. الملكة رقية تبسم. وتضحك

تفرح لحظتها. تمر السنين غضة نضرة لا تعطي ثمراً ليكون كل شيء

غامضاً وواضحاً، خصياً وعقيماً، وهي وحدها تدرك عقمها وتعيش كل يوم مع عشقتها وحبها الذي أطل فجأة من عالم ضبابي بعيد، ربما هو أقرب إليها من المحال:

- هل من أمل؟ أين هو الأمل، ورقية والقريبة والناس يعرفونك قادماً إلى هنا من مكان ما.

- من أنت؟

- أنا نفسي لا أعرف إلا أنني ابن الشيخ الذي جاء بي إلى هنا.

- ومن هو أبوك الشيخ؟

كان عبد خلال اللقاءات القصيرة يقصّ لرقية عن ماضيه. كلما حكى لها طالته بالمزيد. الملكة عالية، أنت أحلى من الملكات وأنا لأعرف عن نفسي. هناك الأشجار والمياه والسماء تسمعني وبعض ما جهلته الصبية سمعته من عبد يرويه لحبيبة القلب على عمالة: كان يقول لي: اضرب.. اضرب يا عبد.. اضرب، فأطيعه وأضرب، أقتل، ثم فجأة... انقلبت الأمور صرخ في وجهي اردد سلاحك فقد رددت سلاحني، احمل أختك واتبعني.

- هل عرفت منه سرّ التغيير المفاجئ؟

- كلا فليس هناك من أمر يثير غيظه مثل هذا السؤال.

- ألا تعود إلى السؤال مرة أخرى؟
- لا بدّ من ذلك بل أصبر عليه قليلاً إن شاء الله.
- عبد...

مثل غفوة بعيدة تفرز الملكة مذعورة. الوقت. الأهل. الأب. لن أبقى
أكثر، وفي تلك الجلسة تسمع الداهية رقية أكثر من الباشا. عيناها تنقبان
الأرض تبحثان عنها كأنها بين الأموات وهي لما تنزل حية:
- ماذا قلت يا ابنة الشيخ الولي؟

فرفعت نحوه رأسها ونظرت إليه بعينين ثاقبتين تكادان تخلوان من
حياء مألوف عند الفتيات، وقالت بابتسامة عريضة:
- هناك الشيخ لا بدّ من أن أستشيريه.

- الشيخ ذهب إلى جوار ربه ولخير له أن يرى حفيداً له من صلبه.
- والحاجة رقية أيضاً؟

- إضممني أنت الشيخ الولي ولك عليّ أن أضمن الحاجة وخير البرّ
عاجله.

- بقي شرط آخر.

- كلّ شيء أوله نور وآخره نور، وأنا تعودت أن أذهب أنّى رغبت

وحدي لا من يسأل ولا من يشك. العرض مصون والحمد لله...

فقاطعها لينفي أيّ سوء ظن :

ومن تظنيته يفكر أن يحجر عليك؟

كان عليها أن تمرّ بالحاجة رقية لتعدها بلقاء ثم تختلي بأبيها الشيخ. اليوم فقط جاءت إلى نهر جاسم، فكل حياتها انتظار، وترقب. ما أثقل الوقت يمرّ وليس معها إلا شمعة وبخور. كان الشيخ قبل لحظات يحملها على كتفيه ويحث ابنه على الهرب. اردد سلاحك فقد رددت سلاحي. اتبعني. الأرض تطوى وتطوى، تتلوّى وتتغير. سهول، جبال، زمال، كما لو أنّها لا تريد أن تنتهي من صورها. الليل يطول، فلاقرار، والنهار يطلع، فلا راحة حتى تطالع الطفلة أرض جديدة غريبة السماء والماء والتراب، وعلى شفيتها سؤال ساذج وعميق، بدا في هذا اليوم الذي وصلت فيه أكبر من عمرها:

.. أين نحن يا أبي؟

فيحكي لها أدق التفاصيل عن يومه الذي هو فيه.

كأنه لا ينسى أيّ شيء. ولا يفوته عن اللحظة خبر ما. هنا سوف

نعيش.

وإذ سئل الأب الشيخ عن الأرض التي وقفت فوقها قدماه قيل له

(بيت جوك) .. هي عروس الإنكليز ومشتى المستردوسن، ومطمح البرّ

إلى عبادان، فابتسم وعقب:

ربما يبدلها الله خيراً من اسمها هذا.

ثم التفت إلى ولده وابتته الطفلة التي جلست عند قبره اليوم،
وعقب بصوته الرزين:

هي أرض الأمان، هنا نعيش على ترابها كالحمامة الأليفة. من
خيراتها نأكل، ومن مائها نشرب، مع الناس نكون ولسنا منهم، وقال
الحاج عباس والدرقية للثلاثة اللاجئيين:

أهلاً ومرحباً بكم... الإنكليز يا أولاد الحلال بدءوا يستثمرون
الأرض، والعمل متوفر سواء عندي في الأرض أو مع الإنكليز. إن
دمكم وعرضكم ومالكم حرام علينا ما دمتم في حدودنا بين النهرين
المالح والأعمى.

وقتها حزن الأب وفرح. قيل هي صدمة الفرح. هكذا فهمه من
حضر، وربما عنى أمراً آخر، الثلاثة بالوقت نفسه أصبحوا تحت وصاية
الحاج عباس، إلى أن ظهرت معجزة الولي في وقت متأخر. وهكذا هي
المعجزات، يأتي أغلبها متأخراً. لو انقلب الزمن مرة واحدة، لو تقدم
أو تأخر، إنها قدرة الله التي جردتك وأنت حي في بلدك لتمنحك القوة
إياها وأنت ميت، فهل جاء كل شيء متأخراً مثلما حدث الأمر ذات
يوم ووصل الدم إلى كعبك أما عينك فكانتا تشعان حمرة كخنجر
بعد أن قتلت يا أبي عدداً وجدته كثيراً هربت. الغالب يهرب. الفارس
الذي يتحدث الآخرون عن بطولاته ينسحب فجأة ويترك مكان الثأر

يكرهه أهله وأعداؤه فيصبح مهدور الدم من الطرفين وليس من رقيق معه في رحلته الطويلة المتشعبة سوى ولده وصيِّة صغيرة. كان بإمكانه أن يقتل آخرين وآخرين لكنه أعرض عنهم إذ توسّم فيهم الخير، فأصلا بهم . وفق ما ارتأى . ستلد أناساً صالحين ، وكأنّ الذين قتلهم لا رجاء فيهم. بذور شريفة بعيدة كل البعد عن قطاف الخير. لتكن مظلوماً لا ظالماً ، أما الطفلة الصغيرة فلا شك أنها مرّت بأقصى سنتين في حياتها. عامان لو وقع أيّ منهما على جبل لتداعى . في الأولى قتل عبد غدرًا ، ثم غادرتنا ورحلت إلى قبرك الأول يوم دفنت على ضفاف نهر جاسم ، وما كنت تظن أنك ستدفن قرب النهر المالح أو ربما علمت ما سوف يكون ، فأخفيت الأمر عنا.

كلام أبيها : نحن مع الناس ولسنا منهم غير أن عبد نسي التحذير ، وسار خلف قلبه. ظن أننا أصبحنا من الناس. من أهل بيت جوك ، ففي السنة الأولى لمجيئهم تفاعل الحاج عباس. هذه السنة بنى رصيفاً يمتد إلى ضفة الشط الصغير وأصبح رأس النهر المالح عبر الطرف البعيد يضحج بالحركة. الأرض المربعة سويت باتجاه الجانب الشرقي حيث أقيم المكبس. وغدا المكان يعجّ بعشرات العمال. كأنه يوم المحشر. إذ في موسم نضج البلح لم تعد بيت جوك قرية ، وأنت يا عبد تقرأ وتكتب فلم لا تكون كاتب الحاج وذراعه اليمين ، وعهد الله بينك وبينه في حفظ المال والعرض ، ولحسن الحظ كما تبديه ظواهر الأشياء أن

الدّاهية أشارت إليه أن يجمع بعض ما يقبضه من أجر شهري، فيشتري قطعة أرض. تحدثت معه وهي ما تزال صبية في الثانية عشرة من عمرها، وكان هو في العشرين بالوقت نفسه، كانت الريح تهب عاصفة هوجاء تقتلع الشجر الوادع المليء بالحياة من جذوره. كانت قطرة الدم تتبع الثلاثة كسيل يهوي من جبل عال، كصلّ يقتضي الرائحة خلسة من دون أن يشعر به المغدور. مع أي شيء كان يأتي.. بالريح بالخنجر.. بالماء.. النار.. إطلاقاً.. أي شيء. حيث دفنت الصبية رأسها كالمصعوقة في صدر أبيها، وهي تصرخ وتنتف شعرها، وتقسم الراوية أن الشيخ الجليل ما سقطت له دمعة، بل كاد يغلب دموعه حتى وهو بين يدي ربّه ولم تسمع الدّاهية منه سوى عبارة واحدة أعادها وقت الحادث: قلت كونوا مع الناس وليس منهم.

وإذ عاهدت نفسها أن تظل تلبس السواد طول حياتها احتج أبوها قائلاً: إن كانت تعرف أن ذلك يخالف سنّة الحياة، فردّت عليه: ماذا كان لو لم تغمد خنجرك. أجابها: أعوذ بالله، ربّما مات عبد هناك ظالماً لا مظلوماً.

الحق كانت نهر جاسم تستعدّ لاستقبال أول حادثة قتل من حيث لا تدري. قبل بضعة أشهر أعلن الإنكليز عن نيتهم بيع بساتين بيت جوك التي اختطوها، ولعلّ الأهالي فاتهم أن يعرفوا سبب رحيلهم فاختلقوا عذراً مقبولاً: إن أرض البصرة مالحة لا يرجى منها خير

سوى التمر وسوف يرحل الإنكليز نحو الشمال ، هو حيث الخصب
والمطر ، ومع رحيلهم بدأت القرية بالانحسار:
المقهى أغلق.

الديكاكين ما عدا واحداً شخص كجذع نخلة هرم وسط أزقة القرية
بين البيوت.

المسيح أهمل وسكنته بمرور الأيام السلاحف والضفادع.

عمال كثيرون غادروا إلى ضفة العشار باحثين عن أعمال هناك.

قيل هي بومة نعبت ففرقت الشمل ، أو هو حسد حاسد والعين
مذكورة في كتاب الله. رأيتك يا بيت جوك ما عادت ترفل بالفرح فلا بد
من أن تنكمشي مهما طال الزمن... الأتراك. العشائر. الفرس. النور.
اليهود... كما تمتص الإسفنجة الماء تمتصين أنت القوم لكنك تغيين فيهم
ومن شرب من مائك لا بد أنه عائد إليك ، هكذا يقال ، فذات يوم
سمعت الصبية عاملة سوداء تغني في أثناء مرور المستردوسن بالطريق
المحاذي للنهر إلى المسيح :

وادعتها والدمع من عيني يسيل كالت الله ويساك يا نعم الخليل

أذكر الماضي ولا تنسه عهدنا

ومع الرحيل رأى أهل بيت جوك الدمعة تسيح كالعذراء الخفيرة
من عين المستردوسن هذا الرجل الذي ساح في كثير من بلدان الشرق

وغزا مع الإنكليز مدناً وقرى وصحارى بعيدة الأغوار عميقة المنافذ لم تسقط له قطرة على أي بلد يفارقه كما يروى إلا على بيت جوك ، وقد وقف لحظات وأصغى للصوت الشجي على الرغم من أنه لا يتحدث العربية بالتمام... وعندما أصبح البيع حقيقة وضع عبد في حسباه أن يستشير الحاج عباس ، لا لأن المال ينقصه بل لعله أراد أن يتقرب من الحاج الذي قال له : إنك تستطيع أن تشتري أية أرض . فقط لا تفكر ببستان كندا لا لكون البستان أكبر من قدراتك فيمكنك أن تستلف مني إذا ما احتجت بل لأن الباشا يرغب في شرائه لموقع البستان من منزله إذ من المعروف عنه أنه لا يهتم بجيازة الأراضي قدر اهتمامه باستثمار أمواله في المشاريع التجارية.

عندئذ كانت بيت جوك تتمزق قطعة قطعة... وشظاياها تتناثر حولها ، كما لو أنها بركان يتمزق.

بيت دوسن ذهبت إلى الحاج عباس .

كندا إلى الباشا .

البستان الصغير أسفل النهر إلى عبد .

و... و... و...

بهذه الصورة انضوت بيت جوك ضمن أحداث جسام تأرجحت

بين الباشوات والبرلمان والإنكليز ، وأول حادثة قتل وقعت فيها

وغطاها الزمن لسنوات ، إلا عن عيني تلك الصبية الحسناء...

المهم لم يعد الثلاثة النازحون بلا مأوى أو يعملون على أرض غرباء عنها. أصبح لهم وطن. قطعة أرض رأوا فيها العالم كله. بيت يسع الدنيا جميعها. الماضي تلاشى. نسوه مع الأرض الجديدة. الحياة. الوطن. السعادة: بيت. نخل. عصافير. فراش. وطيور. نقيق ضفادع. نوح حمامة بين سعفات النخيل. ومع الأرض والفرح كبر الأمل في صدر عبد. لقد أصبح مالكا ولم يكن ليعرف أن الأهالي على الرغم من حبهم له وثقتهم به مازالوا يجهلون أصله ونسبه وحسبه. الآن ينسبون العائلة للنبي سيد الكائنات بعد أن رأوا بأعينهم معجزات ولي غريب حال الفيضان الكبير دون نقل جثمانه إلى النجف. الأرض ضنت به كأنه ملحها. يقال إنه توفي كمداً على ابنه المغدور. كانت الناس تهرب هائجة. قطع نعاج تشرد من ذئب ، فاضطر المتطوعون لأن يقبروه على عجالة في باحة مرتفعة جنب النهر الأوسط الذي حمل اسمه فيما بعد في حين فر الجميع ، والماء يطغى من خلفهم إلى (تلّ عريزة) القريب حيث يدفنون عند سفحه موتاهم الصغار. كان الماء يجرف كل شيء أمامه : السباع الضباع. الغنم. الصخور. الأشجار. يدخل الجحور. الثقوب. فتخرج الأفاعي والعقارب من مكانها. وسط ذلك الغضب العاتي ، والهابط فجأة من مكان ما ، فر المدعورون إلى عريزة.

تقول الراوية : كان من البريأتي ، ومن البحر. طوفان نوح أم تراه

أعظم ، والذين شاهدوه ومنهم الذاهية رأوه يلتف على بيت جوك كوحش في لهفة إلى الدم والعظام واللحم. لا يقنع بالقليل حتى هتف بعض الفارين من خوفهم: هلك والله العباد، وللقرية حكاياتها وأحلامها. عندما يحدث زلزال في بلدٍ ما يوعز السبب إلى الفساد، وقد سألت الذاهية أباهما خلال إحدى النكبات البعيدة: هل ينجوا يا أبي بيت مؤمن في حارة ملعونة كتب عليها العذاب؟ فأجاب الشيخ: لا، اللهم إلا إذا حدثت معجزة. وأهلها يفكرون أي ذنب اقترفوه. أي ذنب عظيم هذا الذي حلّ معه الخراب والدمار؟ ليس هناك من مراب أو قاتل. استعرضوا يا عباد الله أعمالكم. ولتقرأ نهر جاسم بيوتها. فهل يستدعي حادث سرقة غضب البحر؟ وفي كل بقاع الدنيا سرقات ورشاوى وزنا بالسرّ والعلانية؟ من يدري...

بيت جوك ليست كلها شطّ العرب التي صارت بقدرة قادر تسبح على بحر قلق، وفي العيون كوايس ترتجف. أمس في قرية مهيجران الخاوية شاهد الفارون عربيداً يشق الماء، ومن رآه من بعد وصفه بدقة: ذو شعر كالحرير ورأس لا هو بالمدور ولا هو بالمثلث. كالأفعى طويل كأنه التنين في الضخامة، يرفع رأسه من الماء ليخطف بلمح البصر إنساناً أو بقرة ويغظ به، وها نحن محاصرون على التلة قد تركنا كثيراً من أغنامنا وطيورنا تواجه وحدها الماء، ولم نجلب إلا ما خفّ حملة،

أما الدّاهية فضايق بها الوقت عن حمل أيّ شيء وهي من يحاصر الموت قبل الماء أباهما. جبل عريزه الذي دفنا فيه موتانا يقف عند طرفيه حارسان قد يدهمنا العرييد ليلاً، والحمد لله على أن خلقه لا يعدو بل يدب كالنملة ومن يشعر به ويبتعد عنه يفوز بالنجاة، وإلا لأهلك لو كان يُرع أماً شتى قبل الموعد المحتوم لها. كانت القرية مشغولة بالماء المحمّل بالعراييد، القادم إليها من جميع الجهات، والدّاهية لا يؤويها إلا الصمت.

هكذا مات أبوها وسط حدث عارم قرأته على الوجوه وفي العيون الطوفان. الماء. في عينيها الطوفان والحديث الجديد مثلما دخل الشيخ القرية غربياً رحل فيها غربياً، وحين ينحسر الطوفان المجنون وتهبط من التلة تواجه الوحدة من جديد. ستقلقها أخف حركة ويرعبها مواء قط وعواء ذئب من بعيد، وإلا فأين تذهب؟ ثم أين ترجع؟ وهنا الأرض والذكريات والثأر. بستان عبد. الغرفة التي ضمتهم هم الثلاثة. باحة البيت. الملكة. هو القدر الذي جاء بالفيضان، شاء لعله ما أن يفر الأهالي إلى التلة فيلغى مجلس الفاتحة على روح الشيخ الغريب. الحاج عباس أبو رقية وعد أن يقام مجلس مهيب للراحل حالما تنتهي الشدة. مع ساعات الفيضان مع النساء لم تكتنفها الوحدة، كم فكرت أن تعود من حيث أتت وصدق أبوها حين قال عن عبد ذات يوم: إنه لا يعرف طريق العودة.

كانت طفلة، وهي اليوم في ريعان الشباب لها من المفاتن ما ليس
لفتيات القرية ممن هنّ في سنّها، هناك زمن طويل يتناثر على عقد كامل
يفصلها عن مسقط رأسها إن كان ما بقي من أهلها ظلّوا في المكان
ذاته، وقد امتدّ عذاب عاد وئمود ثماني ليالٍ، وطوفان نوح كم طال،
ولما يزل أهل بيت جوك على التلة بنعاجهم وكلابهم يسرحون فوق
الموتى الصغار يتحدثون عن العرييد ويذكرون الشيخ الراحل. الحاج
عباس أكد أن الحالة إذا طالت فلا بدّ من ركوب الزوارق والفرار إلى
العشار:

- ظهور العرييد دلالة على نهاية العالم.

- لا تجتمع الماء والنار حيث لا يطفئ النار الماء إلا لطامة كبرى.

- يقال سينتشر الماء ومعه الوحش فيغطي البصرة بعد شط العرب
ويصعد شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً.

- بالماء تحلّ نهاية العالم كما بدأت به.

- أقول: مادام الوحش العرييد بطيئاً فلم لا يذهب أحدنا ليتربّص

به؟

فيرد صوت ساخراً من صاحب الاقتراح:

- ومن يمنعك إذا ذهبت؟

ويتمتم الحاج عباس مع نفسه:

- شرّ البلية ما يضحك.

وبقدرة قادر حلّت المعجزة. البركة. الطوفان وصل إلى القبر.. فجأة
حام الماء على نفسه، وسكن. الوحش المرعب لم يجرؤ أن يرتفع إلى
حدّ القبر. المعجزة سكنت قلوب الناس. بهرت عيونهم. وربطت
القلوب إلى معناها اللذيذ. منذ ذلك اليوم أصبح الشيخ علامتها. بيت
جوك القرية الوحيدة التي تضم رفات ولي طاهر من سلالة الرسول
هاجر إليها بعد أن خير بين أن يذبح من أعدائه المئات بل الآلاف فكسر
سيفه حيث توسّم الخير في ذرية من نوى أن يقتلهم وهم ما زالوا نطفاً
في الأصلاب. ليس هناك من قبر ولي في أية من القرى المجاورة.
مهيجران. الدعيجي. كوت سوادي. كوت الجوع. أرض مبروكة هي
بيت جوك. القدر بعث صاحب القبر إلى هذه القرية لينقذها. كأنّ كسرة
من طوفان نوح سقطت عليها، وإلا فما معنى أن يسعى رجل مع فتاه
وظفلته عبر مزارع وبساتين وصحار وقفار ليستقرّ في بيت جوك ويصبح
واحداً منا حيث مات هنا وسبق بموته الطوفان المرعب. قالت المعجزة
والطوفان: هذه أرض مبروكة بفضل قبر العبد الصالح، فلتكن مشيئة
الله ولتحمل الأرض اسمه كانت قبل عصر الطوفان (بيت جوك)
فلتكن نهر جاسم، نعم نهر جاسم، وخلال أسبوع من مغادرة التلة
انتصبت أعلام خضراء فوق القبر وتناثرت نقود حمراء وبيضاء. لم تعد
الداهية تشعر بالوحدة. أصبحت القرية كلها تأتي إليها وتجتمع النسوة

عندها، والقبر الرابض كالأجمة الصغيرة في المثلث الذي لم يشتره أحد بعد أضفى على القرية بعض النشوة والفرح. الحق أن نهر جاسم بقي من حيويتها نامة أشبه بالنفس المقطوع، فبعد أن صفتى الإنكليز أعمالهم فيها وجب على تلك القرية قبل أن تغير اسمها، أن تدفن شبابها وبهجتها وأيامها الحلوة إلى الأبد. أضحت كجثة هادئة يكشف سكونها الضحى ويودعها المساء الثقيل، ربما تجد حيويتها في موسم التمر، حيث يكثر العمال في مكبس الحاج عباس، أما قبر الشيخ الجديد فقد لم القرية، ومدّ بركاته إلى قرى أخرى، زاره أهلها، وقدموا له نذورهم. آه أيها الرب الرحيم. في لحظة ما يفقد المكروب عقله ويعترض على حكمك، وفي لحظة شيطانية سألت الداهية نفسها.. لو مات أبي قبل أخي عبد لنسبنا العالم منذ البداية إلى شجرة الرسول لكنها إرادة الله ولا رادّ لأمرٍ كان قضاءه. لا بد أن يقع المحذور ليمرّ اليوم الكالح. الليل والنهار تساويا في الصمت والقسوة. اتّحدا إلى نهاية أشبه بسراب لا تستطيع تفسيره. شعرت أن جبلاً من الهم يحثم على صدرها. كادت حواسها تنصت إلى حزن أخيها عبد. كان يعود من المكبس إلى البيت ظهراً. يتغدى مع الأب ويسترخي إلى العصر ثم يخرج إلى المكبس. استفزها تغيره. كأنه متعجل. بغير ما حاجة إلى القيلولة. شيء ما وأي أمر يشغله ويحير فكره. بادئ ذي بدء ألفت بشوكها على الماضي. لعلّ عبد حنّ إلى القتل والقتال، أو اشتاق إلى مسقط رأسه.

هناك يشده شيء ما عشق مثلاً ومع انفجار الخلاف نسي قلبه وما كان لا يستطيع أن يعصي أمراً للأب الشيخ، وهو يطلب منه أن يتوقف عن القتل منتصف الزوبعة، ثم راوده الحنين فجأة إلى قلبه الذي تركه هناك. أمر تستبعده ولا تستبعده الداهية، لجأت إلى أبيها حيث الأمان فوجدته قريباً منها وبعيداً عنها، شأنها كلما سألته عن الحرب والماضي والدم:

- أتظن أن عبد يتركنا ويرجع؟

- أين؟

- يعود إلى النار.

- مشكلتك يا ابنتي أنك صغيرة السن وعقلك أكبر منك بسنوات.

وربت على كتفها وأعاد السؤال:

- آية نار تقصدين فالنار في كل مكان؟

- مكاننا الأول.

كأنه يجهل ويعرف:

- وهل يعرف عبد الطريق؟

وبعد لحظة صمت:

- نحن مثل آدم حين طرده الله من الجنة لم يستطع العودة إليها وهو

حي. عندئذٍ اطمأنت قليلاً. قلبت فكرها بوجوه مختلفة وحملته على

أحوال متباينة حتى دفعتها ظنونها إلى مراقبته من دون أن يشعر، فتبعته
خلسةً في أحد الأيام... كان على قلبه يمشي. عيناه مفعمتان بالحذر.
لفتاته. سكناته. حذره. هناك عند القصب الكثيف راح ينتظر. لا عين
رأت ولا أذن سمعت. إلى أن جاءت أخيراً. حضرت ملكة القلب. تلك
اللحظات حبست الداهية أنفاسها وهي ترى رقية تخاطر بنفسها لتلقيه.
تحدثا عن الحب طويلاً. الحب والشوق. لحظات قصيرة سافرا خلالها
بعيداً... كانا حائرين. يغمرهما فرح وتعاسة. هاجس آخر يضاف إلى
هواجس الصبية، وهم آخر يجثم مع هم سابق على صدرها، لكن
المصائب على ما يبدو أنست الداهية وألفتها مثلما تروض الساحرة نمراً
متوحشاً. عبد لا يخون الزاد والملح. الغدر ليس من طبعه. أصيل كما
هي الداهية أخته والحاج عباس يثق بالضيوف ويحترم العائلة القادمة من
مكانٍ ما. قرية مجهولة وبلاد الله واسعة، إذن كيف يصبح عبد زوجاً
لرقية، والرصاص والدم قطعاً الطريق على العاشق لأن الحلم وقع قبل
أوانه بسنوات؟! وكان الأشجان التي دهمت الصبية اليافعة اقتحمت
على عبد صمته وحيرته فكانت عيناه تشكوان للأب لوعة الأسي. ليس
أكثر من ذلك، فلعله يلقي عنده جلاً لداء الحب:

- رقية بأي شيء أراك تفكرين؟

- لا أدري يا عبد. أتدري كم أعاني حتى أخرج إلى الأجمة!

- الصبر.

ثم يهز رأسه ليغلب الصمت المفاجئ :

- نعم ليس لي إلا أن ألوذ بالصبر.

- هل أكون كحمدة!

فقال وفي عينيه لغة غريبة حتى كادتَا تلتهمان شفيتها والعالم كله :

ومن هي حمدة؟

فخاطبته بصوت خافت كما لو أنها تبوح للمرة الأولى بسر خفي :

- سمعت بقصتها من جدتي التي سمعتها عن أمها...

والتفتت إليه لتسأله مندهشة ألم يحك لك القصة أحد؟

فظل ساكناً ينتظر قدره، ولما تأخر جوابه واصلت :

- هنا قبل أن يأتي الإنكليز بمئات السنين عاشت الأميرة حمدة بنت

الشيخ. ست الحسن والجمال. وكانت تحب حمد وفي يوم من الأيام جاء

شحاذ غريب إلى المكان يطرق الأبواب يستعطي حتى وصل إلى بيت

حمدة وعندما فتحت الباب اختطفها ذلك النسر...

ما أجمل كلام الملكة، لكن عبد انتفض محتجاً إذ لم يكن بوسعه

أن يرفع صوته خشية من أن يفضح مخابهما، فهمس بغضب مكتوم :

- لن يقدر أحد أن يأخذك مني!

يغادر الأجمة، وهو يحلم. في البيت تقرأ الصبية في عينيه اليأس.
غضباً مكتوماً. كان النسر غريباً والحبيب العاشق قريباً. وعبد هو
الغريب الحبيب! الأمر مقلوب. أما الأب فيروح في تأمل عميق كمن
يدخل في عالم عرفاني مترامي الأطراف. هو معهم وليس كذلك،
يطرق قليلاً فيكسر فضول الاثنين إلى الرغبة في السماع:

- كل شيء يتغير أنا نفسي تغيرت ولعل الإنسان لا يدرك مبتغاه في

الحياة الدنيا فلنحمد الله على النجاة!

أشبه بالحيران الولهان المتعب يسأل الأب:

- هل انقطعنا بالمرّة؟

فيردّ الشيخ بعد أن يتأمل لفترة شأنه في كل جواب:

ما كان أعظم. لقد اجتثناهم وقطعونا عنهم. هكذا أفضل.

- قد يسألوننا ذات يوم.

- لا أحد يسأل ما دمنا لم نثر من حولنا الشبهات.

الصبية تلزم الصمت ولا تجرؤ على المكاشفة على الرغم من
خوفها وظنونها، وهاجس من تأنيب ضمير ظلّ يلاحقها لأنها لم تنقل
إلى أبيها الشيخ كل التفاصيل. لا تعرف لم شدتها حال عبد، وقلقه،
وكيف تسالت خلفه، واحتفظت بالسرحتى وقع الحادث. صوت

إطلاقة. حجلة تفرّ مذعورة. حمامة تتوقف عن الهديل. بصرها يقع على يد تتسلل في حياء إلى أنامل رقية، خلال ثوانٍ يتحول العاشقان إلى ملاكين طاهرين. الصمت يطول، واليأس يطول أيضاً، فيدخل الليل بالنهار، ليعود الموت مرة أخرى بوجه آخر.

وللموت وجوه كثيرة، وللموت أقنعة متباينة، وله غاية واحدة تنجلي في لحظة واحدة. ليلة الحادث راودها أرق بثقل الجبال، كأنّ العالم كله يجثم على أنفاسها. فانكمشت فوق سريرها تغالب في النوم عينيها. ظلت تحرق بوجه عبد، وتلملت. شيء ما سيحدث. أمر خطير. لعله يغادر القرية إلى مسقط رأسه، فيسترضي أهله ثم يعود، كما يحيل إليه، لكنها تذكر قول أبيها الآن، وكأنها نسيته منذ زمن طويل: إن عبد لا يقدر مثلما لم يقدر آدم على العودة بعد أن طرد من جنة عدن. ذلك ما روض - ولو إلى وقت ما - أفكارها التائهة الجامحة. لو يفصح عبد للشيخ عن حقيقة الأمر. ربما الخوف من الزجر والتأنيب. كيف تخون الزاد والملح. القرية آوتنا بعد كل تلك المحن.

افهم يا عبد نحن غرباء حتى وإن اشترينا كل بيت جوك، ما الذي يربطنا بهم الآن؟ انظروا إلى ابن النمر يكاد يكون معزولاً عن عائلته التي هجرت القرية وأصرّ هو على البقاء! مع العلم أنه ليس مقطوعاً من شجرة مثلنا إلا أن بعض الظرفاء والخبثاء يلمزونه حين تواتيهم

فرصة ما لأنه لم يغادر مع أهله ، فكيف بنا نحن المقطوعين من شجرة! لم يا ترى ضرب الشيخ ابن النمر مثلاً؟ أهو تحذير مبطن إلى عبد الذي اصفرّ وجهه واحمرّ لذكر الاسم؟ كل الناس يعرفون أنه فضل البقاء ، والخروج عن أهله لغرض لم يعد مستوراً ، كانت هناك حزازات ومنافسات بين آل النمر وآل عباس المنحدرين من آل حمود الذين ينتشرون على امتداد شطّ العرب ، نفور كمن في النفوس دهرأ ، ثمّ ظهر في الأحفاد علناً. ولكي ينفرد ابن النمر بشطّ العرب وحده ، لزم صف الحاج عباس فبردت علاقته بأهله. معادلة صعبة قد لا يفهمها عقل عبد بعد ، ولا يمكن أن تستوعبها الذاهية وإن كانت ذات ذكاء خارق يخرج عن المألوف ، ومع الفجر تسلل الضوء مرتاباً ، فوقع بصرها على الأب ، وهو يستغرق في صلاته ، فأدركت أنها غفت دقائق معدودة وصحت وأبوها على وشك أن ينهي تسيححه. الفجر سرقها من صحوها كما تسرق هدوء القرية ضجة البستان إبان كبس التمور. كل شيء هادئ... فجأة ، كما لو أن العالم انفجر... تداعى... هبّ من كابوس ، وهي ليست الإطلاق الأولى ، فغالباً ما يتعرّض طائر الحجل والحمام والبط العابر سماء القرية إلى النار. بيت جوك لم تشهد جريمة منذ انتشرت بيوتها بين البساتين ، وكانت هي الأرض لآلاف السنين التي لا تعرف الجريمة حتى هبط آدم وحواء إليها. كان السكون يتبعثر

بلحظة فتصل شظاياها إلى أقصى بيت جوك. الرصاصة هذه المرة لم تصب حجلاً أو خنزيراً برياً يخبئ وسط الحقول، فتبصر الصبية، من مكمناها، أخاها يضع يده على صدره ليسدّ شلال الدم، ثم يتهاوى داخل الأجمة، في اللحظة نفسها تلتفت إلى شبح مقنع غير غريب الهيئة. يدها، استدارة رأسه، طريقة ركضه. الشبح يفرّ بين البساتين باتجاه الطرف البعيد من النهر (الكودي)، مع ذلك لا تجرؤ أن تطلق أية صيحة. تكظم حزنها كأنها تجهل كل التفاصيل. الخضرة. الماء. العشب. النخيل. ليست الداهية وحدها شهدت مصرع عبد فالجميع هنا في بيت جوك شهدوا أنها أول جريمة وقعت بعد فرار آل النمر من دون قتال. يومها كانت الأرض عذراء بكرأ، مثلما هي الآن، وقد قتل ربع سكانها إذ صرع قاييل هاويل. اهربي. اهربي. اهربي. عثرة عند جرف الساقية. كدس الشوك. انسي ولو للحظات خدشاً في الركبة وشوكة انغرزت في إبهام الرجل اليمنى وعند العكس لسعة من ورقة نهمة كالدبور. أكثر من جرح وشوكة. الزمي الصمت حتى يتبين أهل القرية الأمر، ولم يستغرق الصمت بعد الإطلاقة طويلاً. سرعان ما أجمت النظر إلى وجه أبيها الذي ورده النعي خلال دقائق... لقد قتل عبد...

فعلها المجرمون.. فتطلق الصبية صرختها المحبوسة. صرخة تحملتها دقائق طالت كالسنين... ثم ذاع في القرية خبر صدقه الناس ما عدا

الصبية الصغيرة. الثارات القديمة سبقت الأمن والأمان. الثأر. عبد قتل من قبل عشيرته. اختلقت حكايات بألوان متنافرة. كيف تسلل القاتل؟ بل كيف عرف مكان الثلاثة؟ وهذه بيت جوك بعيني الصبية وأبيها والأهالي الأصليين بحر من دم اختصرته قطرة سالت من عبد. كادت أن تنساق إلى حرب طاحنة تأججت ملامحها في الصدور بين آل الحمود وآل النمر حتى قيل إن كلاً من العائلتين حفروا خنادق تحيط بالبيوت، وبدلاً من أن تسيل قطرة واحدة كان يمكن أن تستقبل القرية سيلاً هائلاً من الدماء يطغى لحظة بعد لحظة فيغطي ناحية شط العرب كلها، لولا أن صرخ الباشا في أهله: لا، وخرج منهم ليقف في صف آل حمود ويدافع عنهم وكانهم أهله، فوقف آل النمر مذهولين ثم انكسرت شوكتهم ثم انسحبوا بهدوء، ربما عرف الباشا أن قبيلته هي الأضعف ولعله لحكمة سابقة لأوانها لزم صف آل حمود، وبمرور الزمن رحل آل النمر فرادى عن القرية. واحداً إثر واحد حاملين غيظهم على ابنهم الذي لم يترك القرية. كان يمكن أن يقال حرب بيت جوك، فتكون هي الجريمة الأولى. الدولة نفسها أعجبت بذكاء ابن النمر وربما كان هذا الحادث أحد الأسباب المهمة لمنحه لقب (باشا) أما أهله وإن كانوا قد انسحبوا فإنه أبقى بينه وبينهم شعرة لم تنقطع ربما تجسدت في زيارة ما لهم من قبله كل سنة أو سنتين مرة.

لكن مصرع عبد، تلك الجريمة الأولى ذكرت القرية بكل الخلافات
السابقة التي لم تنفجر:

- عبد؟ كيف حدث الأمر؟

- الثأر كالنار تلتهم الأخضر واليابس.

- العائلة كلها مسألة لم نعرف عنها إلا خيراً.

- من يدري.

- القاتل كان يستهدف الشيخ بالدرجة الأولى وفي آخر لحظة

استثنى وقصد عبد.

- ليحرق قلب الأب.

- يقال الله أعلم.

في النهاية تستقر الحكايات بحكاية واحدة أن محروباً قتل الشيخ أباه
وعمه وسبعة أخوة له تسلل في زي شحاذ، وأخذ يجوب العراق قرية
قرية وحرارة حارة، ينام ساعة أو أقل باليوم ليواصل الليل بالنهار، وفي
رأسه خطة خبيثة. الخبر ذكر الناس بشحاذ أشيب الشعر طويل اللحية،
مكث في بيت جوك نهاراً، قبل شهرين طرق وقتها الأبواب بحثاً عن
كسرة خبز وقليل من الخنطة. الناس تذكروا لحيته الطويلة البيضاء
ونسوا تقاسيم وجهه، هو المحروب بعينه قاتل عبد معروف إذن سلفاً،
والشيخ الأب وقف صلباً أمام الدموع، الريح الهابة هوجاء من حوله

عجزت عن أن تحني ظهره، وإذ زاره الناس معزين نطق أطول عبارة سمعت عنه في تلك الأيام: مكتوب على عبد أن يموت برصاصة. من أطلقها لا يهم. بيت جوك أكثر عدداً الآن من الدنيا يوم خلقت كان عليها حين ذاك أربعة فقط: آدم وحواء وابناهما، مع ذلك حدث القتل، ربع سكان الأرض فني بلحظة واحدة، ولو ذهبت إلى مكان آخر، لكان لابد من أن يأتي قاتل عبد إلى هنا بصفة تاجر أو بائع متجول أو عابر سبيل، فتصيبه رصاصة في المكان ذاته والساعة عينها. كان الشيخ الأب بعيداً عن الدموع. كأنها تجهل الطريق إلى عينيه، حتى اكتشفت الصبية خطأها فيما بعد، فعلى الرغم من كونها الداهية إلا أنها - شأن الآخرين الغرباء - ظنت أباهما يضم بين جوانحه حديداً لا يلين.

ذات ليلة خاتلت نفسها بين اليقظة والنوم. السماء صافية. النجوم تستند إلى سعف النخيل، والبدر مال بهالته الشفافة باتجاه الأفق الغربي حيث عريشة العنب. كان كمن يتسلل، فخيّل إليها أنه يخطو إلى الخارج، فاقتفت بعد لحظات أثره. لم يذهب بعيداً، وقف عند حافة النهر، ورفع رأسه إلى السماء. كانت هناك أصوات تنق من السواقي. صفادع. جنادب تصر. وثمة كلاب تنبح من بعيد. الخشوع يسبق الأشياء. لم يطل تحديقته بالسماء، فنكس رأسه ومال إلى جذع نخلة كما النجوم، وبدأ ينشج بصوت عال، فلك يدور بالحزن إلى ما لا نهاية،

والسمااء تلتفّ بصوته لتبحث عن شيء مبهم معه. في كل مكان نحن غرباء. في السابق حيث الأهل. وهنا. وها هي النجوم يا أبي تغادر السماء وتستند إلى النخيل. الدنيا فلك دوّار، يوم لك ويوم عليك، ولحدّ الآن هي علينا، فمتى تصبح لنا! لن تتركه وحده، مثلما انطوى قلبها على سرّ يتعلق بأخيها عبد، ترددت قليلاً، كأنها تخشى من تأثيره أكثر من غضبه، وهمست على بعد خطوة منه:

- أبي! أبي..

رفع رأسه باتجاهها وتوقف عن البكاء:

- ألم أتركك نائمة؟

قالت وعيناها تحفران الضوء الخافت بين الأشجار:

- جئت أطلعك على سر.

- الآن في هذه اللحظة؟

لم تعرف أباهاً ضعيفاً قط، والآن تدرك أنه أعرّض عن البكاء أمامها كي لا يعرف الذلة والضعف، وكفّ عن الدموع في أسوأ الاحتمالات أمام الغرباء كي لا يشمتوا، أليس هذا ما أرادت الاعتذار به عيناه:

- فتحت عيني، فجأة، فلم يقع بصري عليك، فزاد خوفي،

وتلجلج السر في صدري.

- إن كنت تستطيعين الاحتفاظ به وحدك فلا تخبريني.

- أبداً ليس بمقدوري!

فعقب أشبه بالمستكر، وهو يمسح عن عينيه بقايا آخر دمعة:

- لكن أخبريني أولاً هل كنت تقتفين أثري؟

وكان لا بد أن تعترف بما كان:

- نعم، وكنت الأحمق عبد كظله إنه القلب يا أبي.

- لم تعودى طفلة. (أقرب إلى التحذير منه إلى الأسف):

يعلم الله أي ذنب اقترفه بحقكما.

دوتما تمهل أو روية قالت:

أعرف قاتل عبد.

جحظت عيناه لحظة، وانتقلتا بين النجوم المتهاوية ووجهها، ثم

عاد إلى هدوئه، واستدرك:

- هذا كلام يمكن أن نتحدث فيه داخل البيت.

وفي المنزل حيث اختفى كل شيء: الصرير ونباح الكلاب وضوء

النجوم غير أنهما أبصرا وجهيهما بوضوح تماماً على ضوء المصباح

الشاحب:

- منذ متى تتبعت المرحوم؟
- كثيراً ما شغلني تبدله المفاجئ. ظننته الحنين ثم انتبهت إلى أنه بدأ
يعتاد الخروج وقت الظهر.
- ولمَ لمَ أعرف منك؟
- منعني الحياء لا الخوف.
- وهل رأيت القاتل؟
- لا بل عرفت شكله.
- ماذا عن وجهه؟
- كان مثلماً.

- بين الكذب والصدق أربعة أصابع يا ابنتي.
- لن يخيب حدس ابنتك يا أبي. المشية ذاتها. الهيئة. الطول...
قاطعها كمن لا تعنيه التفاصيل:

- لبت قاتل عبد محروب طالب ثار كما شاع على الألسن!
لم يعد الأب الشيخ يكي بصمت أمام الداهية. رآته طفلاً صغيراً
يضع مراراً رأسه على ركبته ويغط بنسيج محموم. فتعلق عيناها بلحيته
البيضاء، وصدره المزدهم بالعبرات، فتركه يكي، وحين تجف
دموعه، يرفع رأسه عن ركبته، ويقول: صعب أن أفعل هذا أمام

العالم بل محال. لقد أثارها بكاء والدها الطفل، وعزَّ عليها الدمع
بعدئذٍ، وربما احترقت الدنيا، فكابرت دموعها، وقبل الحادث الجلل
بيوم، هبت بوجهه كاللبوة الجريحة:

- ما عدت أفهمك (قالتها كأم تؤنب طفلها) ترى لم منعت عبد
من القتل، فجئت به إلى هنا ليقتل يا ترى لو كنت مضيت في طريقك!
بقي الشيخ هادئاً لحظات. الآن جاء دورها. (أم عبد) و عليك أن
تدرك الأمر جيداً:

- الموت هو هو في أي مكان، وقته معلوم لا يتقدم أو يتأخر.

- ما دمت تعرف ذلك. لم خرجت بنا؟

- قلت ألف مرة سأموت ظالماً هناك.

- لقد قُتل عبد ولم يعرف لم تغيرت ومن حقي أن أعرف يا أبي.

فهزَّ رأسه، يتمعن فيها لحظات وهي تعود إلى هدوئها:

- اسمعي جيداً يا ابنتي ما دمت مصرة. سأقول لك لم تغيرت:

لكثرة ما قتلت، ويصعب حصر القتلى. طلبتني أكثر من جهة بشار،

أصبح النوم محالاً بعيني. شهر بكامله وأنا صاح يقظ، حتى وصلت إلى

أحد المضائف ذات ليلة فوجدت شيخاً جليلاً نائماً، وقد وضع جبهته

وعمامته جنبه، وفجأة خطرت في بالي فكرة قد يعجز عنها الشيطان

نفسه، سارعت وخلعت ملابسي. وضعتها جنب الشيخ، وليست

ملايسه ثم انتحيت جانباً، ونمت. كان الأعداء يتبعونني كالكلاب المسعورة، وإذا وصلوا ظنوا الشيخ أنا، فاندفعوا نحوه، يمزقونه بسيوفهم، وخناجرهم، والسكاكين، لقد رأيتهم يقطعونه إرباً إرباً قبل أن يفتح عينيه أو يتبس بنت شفة، بعضهم لعق دمه. آخرون قضموا لحمه حتى جمجمته حولتها ضربات السيوف إلى شظايا كالطحين.

كانت لحظات أشبه بالكابوس، وعندما غادرت المكان بملابس الضحية أمرت عبد أن يقف. قلت لنفسي: لقد ولدت من جديد فليقف الدم، لأنني أبصرت، وأنا أراقب مصرعي المزعوم، نطفاً خيرة في ظهور كثير من أعدائي الذين ظنوني مت خطأ، بذور سوف تحكم العالم ذات يوم، فتتشر الخير، كل ذرة مني اصطكت بسؤال غريب عني: لم أمضي في القتل؟! وسألت نفسي مرات ومرات: لم أعلن عن نفسي. كان الأعداء يطلبون رأسي وقد حصل. لم يكن بإمكانني أن أطلع عبد على الخبر (وتوقف كأنه قطع أميلاً وقروناً... ونظر إليها نظرة المندesh وقال):

- ها قد عرفت كل شيء!

ما أغرب الواقع لمن يجهله، وهي لما تزل تحت سر الحكاية التي

خرجت إليها من قمقم قديم:

- انكشف السر لكن بعد فوات الأوان.

- كنت في حيرة. كيف أدرك القاتل سري ، وتتبع الأثر حتى كشفت
أنت الحجاب.

- أكنت تشك في أحد؟

- الظنة حرام.

هذه المرة هبت كما لو أن جرأة مجرم خطر تدفقت فيها:

- أضيع دم عبد هدرأ؟

- أنا وليّ عبد ، وسوف يأتي جوابي في الوقت المناسب.

لم تدر كيف يتصرف ، وأيّ سبيل يسلك ، وهو الذي أقسم ألاّ يقتل مهما كان الأمر. مادام هو ولي عبد فليتحمل دمه ، فلتقبل بالحكم لأن الأمر ليس بيدها ، وقد أدركت خلال الأسبوع المنصرم أنها اقتربت من أبيها أكثر ، وعرفت أنها كانت بعيدة عنه ، بيد أن الفيضان قطع عليهما الطريق ، فبعد سبعة أيام على ليلة المكاشفة بين الصبية وأبيها ، جثم على الأنفاس جو ثقيل. الهواء راكد كبركة ساكنة ، ومنذ الصباح ازدادت شدة الوهج ، أما البساتين فقد تغير لونها إلى حمرة صفراء ، ولا حركة في السماء ، فالعصافير والبلابل والحمام انزوت منكسرة بين الأغصان. وحده الذباب يحوم في الغرف وعلى الأزيال وبين الزرائب. إنه سكون شديد الغرابة. أقرب إلى الموت. الجمود. حين تقف الأغصان وتصمت الكلاب والعصافير والإوز ، لا بد أن يحدث أمر ما وفي أيام

الحر، ساعات العصر مباشرةً، إذ تخف حدة الحر، اعتاد الشيخ أن يخرج، إلى البستان، هناك حيث يصطاد السمك. كان يجلس في المضافة والمصحف لا يغيب عن ناظره، صوته يأتي عذباً رقيقاً رخيماً يلفه الخشوع:

والضحى... والليل إذا سجي... ما ودعك ربك وما قلى...
وللاخرة خير لك من الأولى...

ثم صلى ركعتين وعاد يرتل السورة، مثنى وثلاث ورباع. لا محالة لا بد من أمر. كان إذا رأى حلماً صام عن الكلام إلى الظهر، وقد تعودت الصبية على أن تسمعه يرتل القرآن كل يوم. فجأة قطعت عليه تلاوته أصوات استغاثة. نداءات تحرك لها الهواء الساكن، وفزت الطيور من أوكانها. نباح، وصخب. اضطراب. فوضى. كابوس: يا أهل (بيت جوك). الفيضان. الفيضان قادم. هبوا إلى جبل عريزة أو اهربوا إلى مكان آخر. ستغرق شط العرب، كلها. يا أهل (بيت جوك) الفيضان. الفيضان. الناس في سباق مع الزمن، وعليهم أن يرحلوا إلى جبل عريزة ليحلوا ضيوفاً على أطفالهم الصغار. المحذور وقع، وهذه علامة أخرى تشير إلى أفول نجم بيت جوك. لم يأت الخطر من الغرب حيث نهر شط العرب هذه المرة أقبل غزيراً، هائجاً، من جهة إيران. فيضان لا أول له ولا آخر، يقال والحكايات انطلقت من جبل عريزة،

إنّ السد على البرّ انكسر من ثقل الماء، وطفى نهر (الكارون) كالبحر، ويقال أيضاً: إن إيران سربت الماء عمداً لتتخلص من الفائض لديها الماء: زغاريد وصراخ تكسر الصمت، للنار صراخ، وللماء صراخ وزغاريد، فاهربوا إلى مكان آمن... وقطع الشيخ تلاوته، وهرع نحو ابنته ليطمئنها، ويهدئ من روعها، ثم ليجمعها ما خفّ حملها وليس معها غيره، ولجرد أن اجتاز العتبة توقف لحظة كأنه جذوة من بقايا السكون الراكد. أغمض عينيه ومال نحو الحائط. وجهه انقلب إلى صفرة باردة. الأصوات من كل جانب كزعيق ساحرات في مقبرة: اهربوا! اهربوا!

الجليل الجبل، والشيخ يعجز عن أن يتحرك، هيا يا أبي لنلحق. استند إليّ. ما أقرب عريزة وما أبعداها. وقبل أن يمدّ يده، يتهاوى على الأرض. تقول راوية القرية: إن الصبية، فقدت توازنها، ثم استعادته خلال لحظات. انتبهت إلى نفسها فلم يعرف عنها بعدئذٍ أي بكاء لقد لامت نفسها ساعة المحنة وهي ترى الشيخ جثة هامدة أمامها: هل قتلته؟ ربما هو السرّ الذي أفضت به إليه. لعلّ الشيخ صدق الحكاية التي شاعت بين الأهالي عن قاتل عبد المحروب القادم من مكان بعيد، ليفاجئه بعد ذلك خبر آخر، فيكتشف أن القاتل الحقيقي من أهالي بيت جوك، حسابات جديدة، وهم أكبر من أن يطيقه قلبه المتعب، على أن

الذاهية وإن عاتبت نفسها إلا أنها اقتنعت كونها أدت واجبها وسلمت
الأمانة إلى صاحبها، وهو على قيد الحياة، وإلا فأبي عذاب ضمير
تواجهه لو صممت إلى أن يدرك أباه الشيخ الموت. وحين انتبهت إلى
نفسها، وتماسكت، أطلقت صيححتها التي علت على نداء الطوفان:
يا رجال... يا رجال أتفرون وتتركون الجثة بغير دفن؟

.. الشيخ!

.. مات أبي مات!

.. أين تفرون؟!

كانت في سباق مع الزمن وعيناها تشخصان إلى أقرب مكان. في
المثلث المعروض للبيع حيث الأجمة التي ترتفع قليلاً عن النهر، وليس
هناك من نبات، سوى فضلة للشوك والعاقول، هناك، راقبت الأيادي
المرتجفة، وهي تهوي بالمعاول على التراب. ليس ثمة وقت للصرخ
وحده. القرية كلها تصرخ وتزغرد. تصرخ وتزغرد. ونداء الطوفان أكثر
حدة من أي صوت. ناهيك عن جنازة شيخ غريب لا أحد يعرف من
أين جاء. كانت عينا الصبية تماسكان وتتحجران مع خفقات التراب.
كبرياء ورثته عن أبيها. شموخ. يكفيها أن والدها الشيخ توفي في يوم
عظيم يجمع الصراخ والزغاريد ليدوب حزن الصبية في المصيبة الكبرى.
فإذا سأل سائل بعد سنوات أي يوم توفي الشيخ؟ أجاب الآخرون

باتفاق كان ذلك يوم زغردت وصرخت النساء. كانت تترك الشيخ في مرقده وتصعد مع الهارين إلى جبل عريزة. سفينة نوح التي رحل إليها البشر وبعض الأغنام والدجاج، وكان أكثر ما يخشاه النازحون أن تخرج العقارب والأفاعي من مكانها في أثناء الليل، إذ يعتدل الجو وتسري في التربة رقة الندى. العيون تراقب الماء في الأسفل وعينا الصبية وذهنها يشخصان حيث القبر، وخلال الليل تتضاعف الحيرة. الحشرات تهوم حول مصابيح النفط، وشقوق عريزة تقذف بالمجهول. الماء المجنون يتدفق في سورة غاضبة، كل ما يصيب الإنسان والحيوان يمكن أن يكون دفع بلاء. القرية قالت بأجمعها كلمة واحدة الحمد لله إذ تكون الخسائر في غير البشر:

أفعى لدغت نعجة في ضرعها. صبي هبّ يصرخ منتصف الليل
من عضة جرد. كل شيء يهون فمن أين نأتي بالطيب ونهر جاسم
تعاني في الأيام العادية من عسر الطريق، فكيف بها وهي تنقلب إلى
جزيرة على قبر!

- نحن نستقل سفينة نوح.

- هناك تأخت الحيوانات فلم تلدغ الأفعى أي مخلوق!

الأفاعي هنا لا ينفع معها لا نوح ولا نبي الله عفرطون.

كان ذلك أول تعبير يبقى في الأذهان مدة غير قصيرة تقول الراوية

قاله فتى يدعى الرواس أو ابن الرواس بدأ نجمه يلمع في المكبس فيما
بعد :

- كفى سفاهة وكفراً، ماذا يحلّ بنا بعد.

حتى مرّت ثلاث ليال حاسمة، وعينا الصبية، رغم الحزن، لا
تغيبان لحظة عن تلك المشاهد. كانت قبل المعجزة تساق مع هواجس
قائمة تشدّها لكابوس عميق الغور يشخص أمامها في الموت والفيضان
والرحيل. الغالي قتل فكانت أول جريمة تقع. كان المفروض ألا يلتقي
عبد برقية كي يتحاشى ابن النمر الذي تخلى عن أهله ليقف في صف
الحاج عباس، كيف يقدر عقلها أن يحلّ رموز القدر؟ وبعد عقد أو
يزيد من إقامتنا باع الإنكليز بيت جوك وأذنوا بالرحيل، وإذا انكشمت
القرية على همها أول هبوطها من الجبل وامتدت بعدئذ لتمسح آثار
الطوفان كانت الحشرات والأفاعي تدبّ إلى جحورها، وتعود الخنازير
البرية إلى مكائنها في أجمات البردي وأطراف المزارع النائية، التفتت
بيت جوك إلى نفسها فارتدت ثوبها اليومي. عادت لضحكها وبكائها.
وقدّرت فضل الولي، فزار الحاج عباس الصبية، ووقف بنفسه في
مجلس العزاء، ثم زارها المختار، وتحدّث بشأن القبر، كان أول من فتح
الموضوع. كان لابدّ من الإصغاء لما تقوله القرية، إذ ظهرت معجزة
تالية، فقد سيق إلى الضريح صبيّ ملدوغ من عقرب، وبزمن قياسي

نسي الأهالي اسم قريتهم القديم (بيت جوك) ، وربما عنوا به قصر
المستر دوسن ، والمسيح فقط ، وأطلقوا عليها اسم السيد. أصبح القبر
هوية القرية. كان من المفترض أن ينقل القبر إلى النجف ، فقد اعتادت
القرية أن تدفن موتاها أوقات تنقطع بها السبل في قبور مؤقتة إما في
عريزة أو كما فعلوا بالشيخ ، لذلك كان المختار يقول :

- لم يعد القبر يخصك يا ابنتي وحدك بل امتد أثره إلى قرية
الدعيجي والسليمانية والبوارين والأفضل ألا ينقل إلى خارج نهر
جاسم.

رأت الموت مرتين وسمعت أن الميت لا يعذب في قبره وهو مدفون
بالنجف ، فهل تخشى على حامي شط العرب من العذاب. كانت تشعر
بالأمان مع أبيها حياً وميتاً ، لكن قلقاً ما قديم الجذور كان يساورها
حول المكان :

- تعرف أن الأرض ما زالت معلقة ، والإنكليز لابد أن يفرزوا
البيع عندئذ لا يحق لنا أن نبقى القبر مكانه.

- مستر دوسن شخصية محبوبة ، وعلاقته بنا كلنا حسنة فلا أظنه
يتهور.

- وماذا عن المشتري الجديد؟

- يا ابنتي لا تتعجلي الأمور فلكلّ حادث حديث ، لا تخشي على

الوليّ من عذاب القبر، فبفضله تراجع الطوفان، وببركته لن تموت نهر جاسم بعد أن يهجرها الإنكليز تماماً، أما إن كان ولا بدّ فلن يدفن الجثمان في مكان آخر غير نهر جاسم.

ويبدو أنّ ما جرى على لسان الصبية والمختار كان في محله تماماً، إذ أبت الأحداث إلا أن تطارد الوليّ حياً وميتاً، ويطارد هو الآخرين حياً وميتاً أيضاً، فاعتبر المستر دوسن، وغض النظر عن قضية القبر، ولو إلى حين. على أية حال كانت هناك مشكلة كبيرة واجهته تختلف تماماً عن سابقاتها، مع ذلك حاول أن يجرب من غير أن يثير ضجة. الوقت ضحى، وهو راكب جواده في طريقه إلى القبر. وفي نيته أن ينقل الرفات إلى البر، عندها اعترضته الداهية. قالت له بحدة: اخش العليّ القدير إن ربي أقوى منك. لا تكن كأبرهة الحبشيّ. فأجابها برطانتة المعهودة والابتسامة لا تفارق شفّتيه:

- يا أم عبد قدري الظروف. القبر على العين والرأس ولكنه يعرقل صفقة البيع ويعيق ربط الأراضي الثلاث المفروزة.

(إسمع الإنكليزيّ ثمّ ابدأ من حيث ينتهي) حكمة عرفتھا القرية الأليفة وهي ترتدي اسم (بيت جوك) وربما تذكرتها الصبية في هذه اللحظة، فأعرضت عن المقاطعة، واستمرّ يقول:

- كيف أبيع الأرض من دون أن أزيل التلّة بكاملها؟ قدري

الظروف ، وإني أعدك بنقل رفات الميت إلى أي مكان ترغبين.

كان يظنّ أنه بهذا العرض يرضي بنت الولي ويتحاشى جرح مشاعر الآخرين الذين عرفوه مجاملاً لطيفاً معهم في أكثر من مناسبة، والواقع أنه عرض الموضوع على المختار والباشا والحاج عباس، فنصحوه بالتريث، ثم رغبوه في أن يحاول، لأن السكان قد يتضايقون نوعاً ما من نقل القبر لكنهم لا يعدونها جريمة تنزل منزلة انتهاك حرمة الأموات. أخيراً شجعه صمتها، فتركها ساهمة ومال بمحاذاة ضفة نهر الكودي، يتبعه حفاران من العرب المعدان، ومع خطوات الحصان تحرك شيء ما خفي عن الأبصار. بالمرصاد. الحواس تعيه كأنها فيه، فتحفظه كما هو لا تبهت صورته، فهو الذي أراد أن تكون للأرض حكمتها وكلمتها، وللأموات صوتهم فعلام يزوروننا في المنام إذن، والصبية ترى أباهما فيطمئن قلبها، وإذا ما طاف عليها فإن خيراً يقع، فما أن خطا الحصان منتصف الجسر، حتى انقلبت الحال رأساً على عقب، ومن كان حاضراً شهد الحصان يصاب بنوبة جنون. من لحظتها هرع الحفاران إلى الصبية يحتميان بها وركعا عند قدميها يطلبان الصفح. كانت صرخات الرعب تنطلق من الحصان. القائمتان الأماميتان ارتفعتا لتخبطا في الهواء شيئاً مجهولاً. كأنه يعوم. عقابٌ سجين يهّم بالطيران. تنين، تقدح عيناه شرراً. ولكلّ ضربة حافر على الجسر دويّ لقداس جنائزي. العالم مذهول مشلول والحصان وحده يصهل. يحمحم يقرع

برجليه ويعوم. وبدا المستر دوسن يواجه دقائق صعبة، اصطكت أسنانه واصفرّ وجهه وعلا الرعب محيّا، كان مخيراً بين السقوط على حافة الجسر فيتخطم عموده الفقريّ أو القفز إلى النهر، فطار من على ظهر الحصان إلى الماء وهو يهتف، وعيناه تملقان باتجاه ابنة الولي:

- داهية. داهية. والله داهية!

كلّ ذلك حدث في لحظات. غضب الحصان. ثورته. جموحه، وهدوءه المفاجئ. كان المستر دوسن يتخبّط بالماء ويتشبث بالأشنيات الطائفة فوق السطح، باذلاً جهده، وهو بملابسه الثقيلة وحذائه الطويل، لأن يصل إلى الجرف، وبين السخرية والشفقة، صاحت الداهية بالحفارين:

- لا تتركوه يغرق.. أنقذوه!

وقد ظلت الواقعة حديث الناس إلى وقت متأخر، وتناقلت النبا القرية القريبة حيث خالط أهلها زهو وفخر، ويبدو أن المستر دوسن زار الداهية معتذراً لها عمّا حدث، ووعدّها أن يظلّ الوضع كما هو عليه، أما الداهية فبقيت على مخاوفها لأن قضية القبر أثيرت من جديد، يوم اشترى أحد الأغنياء الأراضي الثلاث.

كان (ابن الجلسي) المالك الجديد غريباً عن القرية مترفعاً عن أهلها، متعالياً، لا تربطه إلا مجاملات واهية مع الباشا. ويظهر أن

الرجل مغرم إلى حدّ الهوس بشراء البساتين وربما دفعه غروره إلى أن يهّم باقتناء معظم بساتين البصرة وذلك ما فعله فيما بعد. بالتأكيد سمع المالك الجديد بالمعجزة واغتاز من الحال، وفسّر ما حدث من معجزات سابقة سواء حدثت لمستردوسن أو غيره بأنها محض مصادفات، وأخبر المختار والحاج عباس، وتجاهل وساطة الباشا، قائلاً:

. لو لم يكن القبر على التلة لاضطرت إلى إزالته لأزرع مكانه

أربع نخلات تنفع ملكي!!

كان لا بدّ للشيخ أن يغادر. الرحيل أصبح حقيقة كوضح النهار. كان أهل القرية في حلم من رآه رأي عيان ومن فاتته رؤيته في الواقع أبصره في المنام. شاهدوا الدّاهية تقف عند رأسه. تراقب الحفارين: عيناها صامتان كما لو أنهما تبحران إلى غاية بعيدة مجهولة الأطراف. الوليّ نهض ملفعاً بكفنه. صافح أهل نهر جاسم واحداً واحداً. الأطفال... النساء.. الشباب.. الكهول.. دخل في كلّ البيوت، وعانق النساء، قبل الأولاد، ومسح على رؤوسهم، وطبع نظراته على الشمس، فتما زرع كثير، وأثمر بالخير الشجر، أما الأهالي المهورون فانسوا في لحظة العجب والدهشة أن يسألوا الشيخ الوليّ عن الأمن والسلام، فحدث أن خلفوا وراءهم حسرة تتمثل لعيونهم كلما جدّ جديد من كوامن الزمن وخبايا الأيام أيّ واحد منهم سواء رجلاً كان

أم امرأة يهتف إذ يلتقي الداهية : آه لو سألت الشيخ الولي وهو يزورني عن جليّة الأمر، ظلوا مشغولين بالزرع والخصب، في الوقت الذي كان يغادرهم نحو قبره الثاني، ثم يتوقف لحظات كأنه يتذكر شيئاً ما فيغير طريقه إلى بستان (ابن الجلبلي)، فجأة انقلبت كل الأحوال على أعقابها، تحولت نهر جاسم إلى كتلة جامدة، ولعله الكون معها. الطيور في الهواء وبين الأغصان والدواب والناس. الريح. الحشرات. الأصوات. جمدت لحظات أو دهوراً. لا نأمة ولا صوت. الشيخ الولي وحده يخطو إلى حيث (ابن الجلبلي) الذي يقف على بعد خطوات من التلة يراقب المزارعين، والعمال وهم يغيرون ملامح الوجه القديم للأرض. خلال لحظات تهدج صوته، وتغيرت ملامح وجهه. هم أن يجرّك يده ليفتح أزرار قميصه فاعتري أنامله شلل. اصفرّ وجهه، وهرب كل منظر من أمام ناظره. النور. الهواء. الصور، حتى التلة والعمال، عندئذ ارتخت قبضتا الشيخ عن عنقه، فسقط جثة لا حراك فيها. حينذاك استفاقت القرية من نوم طال لحظات أو دهوراً، والصرخة تنطلق داخل البستان بعد سبعة أيام من رحيل الشيخ الولي وانتقال الملك إلى صاحبه الجديد :

- ابن الجلبلي مات. مات ...

- غريب ...

- البقاء لله وحده..
- كلّ من عليها فان.
لو لم يتحرّش بالقبر.
- لكن بالأمس كان يتمتع بصحة جيدة، ووجهه يقطر دماً. من
يصدّق أنّ رجلاً معافى مثله يموت فجأة.
وتناقلت البيوتات الخبر. ابن الجلبى الذي يملك نصف البصرة،
ويسعى إلى شراء النصف الآخر مات في اليوم السابع من طرده للوليّ
الشيخ. معجزة أخرى، لم يشك من علّة، كان يأكل ثوراً بكامله،
ويقال إنه لم يزر الطبيب قطّ. كانت الدّاهية تقف عند قبر أبيها الجديد،
وقد تهادى إلى سمعها صراخ ما من جهة البستان، وعندما وصل إليها
نعي (ابن الجلبى) حدّثت نفسها كأنها تخاطب أباهما وهو حيّ:
- أنت وليّ أمرك، فمتى يحين الوقت.
فهزّ رأسه دون أن يتفوّه بأية كلمة... ودلف في قبره الثانى... أما
الصراخ، فقد هدأ من الجهة الأخرى حيث القبر الأول.



غادرت الدّاهية مقام أبيها لتلتقى الحاجة رقية. كانت ذاكرتها
تحتفظ بالصورة التي رسمها عبد لها، على الرغم من أثر السنين،

لاتدري لم اختار لها اسم الملكة عالية ، غير أنها ظنت الشيب لا يدبّ
إلى الملكات ، عندها لم تجد عبد بل وقع بصرها على العاشقة المدعورة.
الخبر فاجأها حقاً. ظنت أن الأجمة والطيور والسواقي والنخيل
والشجر وحدها تعرف قصة حيهما. وفي الأيام الأخيرة خشيت من
هواجسها حول شخص ما آخر غير الداهية ، فمن المحال أن يخطر ببالها
أن الصبية ستتبع أخاها ، فتطلع على السرّ ، لتحضر في غفلة من الحظ
فتشهد قطرات الدم ، فقاطعت لتزيل أي التباس :

- خوفي عليه هو الذي أوحى إليّ . كنت أحسست تغيره فدفعته
هواجسي. ألقته منشرج الصدر رغم المأساة ، أما أن يتغير هكذا فجأة ،
فأمر لم أكن لأصدق.

- صدق من قال إنك داهية.

- أ لم يحدثك عنا؟

أبدأ (ثمّ وهي تلف الملعقة بقدرح الشاي كما لو كانت تستعين بها
على الماضي الذي هاجر فجأة ، فتعلقت به كلّ تلك المدة ، وعاد إليها
هكذا من دون مقدمات) قالت :

- كنت تسمعينا يا عالية !!

أجابت الداهية بحسرة شدّ ما أخفتها خشية على الضيفة :

- ربّما فاتتني اللقاءات الأولى.

أي جرح تنكأه الآن الغالية، ولم جاءت في هذا الوقت بالذات،
ماذا يدور بفكرها، والحاجة رقية ترى الزمن يفرّ من قلبها فيستقرّ على
راحة يدها لتقرأ بعد كلّ تلك السنين. مع غير رقية لا تهتمّ الداهية
بالتفاصيل، وها هي السنوات تتلاشى وفي صدر كلّ منهما حكاية
ليست بذات نهاية. قبل اليوم التقنا لقاءات عابرة، لا خوفاً بل حذراً،
حتى استلّت الداهية السنوات الطويلة المستكينة في غبار القلب لتفاجئها
بالخبر الجديد، فما كان منها إلا أن تعقب:

- لم أفهمك لحدّ الآن؟

- ستفهميني بعد أن تنتهي من حكايتك.

نظرت إليها نظرة طويلة:

- ألن يكفي ما قلته؟

- حدّثيني عن كل شيء.

بعد تأمل بعيد:

- وما نفع الخصوصيات؟

و أعرضت لحظة عن الكلام، فبادرت الداهية:

- حتى الخصوصيات تنفعني.

لكن ماذا تقول والحبّ يأتي فجأة؟ عنيفاً كفيضان عارم اجتاح نهر

جاسم ذات يوم، بل أقدم من كل التواريخ. تلك الأيام تجرأت
وطاوعت قلبها، وحين يأتي الحب تتغير الأشياء... فجأة يصبح للحياة
طعم آخر. يذوب الخوف، والوحشة تزول، وتبقى المظاهر الحلوة
فقط. للماء وهو يلامس شفثيها حلاوة تغزو القلب. مشت، وليس
الطريق كما هو كل يوم، عيناها تبصران أرضاً جديدة وسماءً ناصعة
الزرقة. دنيا لا تعرف الألم والحزن، كل ما في الأرض يرقص ويغني.
النجوم كل ليلة يأتين إليها يلعبن معها حتى يشرق الفجر ثم يصعدن
إلى السماء، فأبي جرح جئت تنكئنه يا داهية اليوم، ومن قبل سمعت
عنك رقية وأنتم عائلة ناقصة: رجلان وطفلة، فليس من المناسب أن
يزار بيتكم من قبل النساء، ثم عرفت عن طريق والدهما أن عبد يقرأ
ويكتب، وبيال الحاج فكرة أن يعينه كاتباً عنده لئلا تشعر العائلة
الجديدة بالغبية. الخطوة تدفعهم أن ينضوا تحت جناح العشيرة، وربما
دفع رقية الفضول فذهبت إلى المكبس. هناك أبصرته بين العمال.
وللحب لحظة سابقة على أي زمان كان. مازالت تعيش تلك اللحظة.
خدر لذيذ. تيار دافئ يفوح في الجسد وقت الشتاء القارص. وفي اللحظة
الأولى كل السحر والفتنة. كان يقطع الممر الفاصل بين العمال
والعاملات، يملئ عليهم أوامر الحاج. في صوته حدة وليونة، وقبل أن
تسحرها عيناها، وقامته جذبها قسوته الحلوة. شيء لم تجده في شباب
القرية. إلى الآن لا تدري ما هو. شيء سهل يلوح على الألسن غير أننا

لا ندركه. كانت قد سمعت عن بعض مغامراته فأعجبت بها. بعضهم قال إنَّ العائلة هربت من الأهواز بعد هزيمة الشيخ خزعل وتخفت خوفاً من قسوة الشاه إلى أن يسّر الله لهم الوصول إلى بيت جوك، والشك يحوم حول عبد الذي كلف باغتيال ضابط إيراني كبير، ومنهم من رأى، خاصة بعد الحدث التالي الذي شد رقية وأذهلها، إن العائلة بالأساس تركت بادية الشام لنزاع بينها وسلطة الفرنسيين، فاندمجوا مع الناس في بيت جوك وتخلّوا عن مذهبهم الأصلي. لذلك غير سلوك عبد الأخير الحكايات الأولى التي ارتأت هربهم من نزاع عشائري. ذات يوم حضر جابي الضرائب ومعه شرطيان، الحاج عباس يدرك تماماً أنه كلما حلّ في الناحية مدير جديد أظهر القسوة في أيامه الأولى، ولا بدّ من مرور وقت تلين فيه عريكته، فكيف يتناول جابي الضرائب على الحاج، ساعتها طار عبد كالصقر، مثلما قالت العاملات، وجذب الرجل من تلايبه، ثمّ لطشه بأحد الشرطين، وهتف، وهو يمسك يد الشرطي الآخر، مانعاً إياه من أن يسحب سلاحه:

- لم أضربك أو اعتدي على جلال الدولة، لكن ورأس الملك سأقتلك إذا تناولت على الحاج.

وسرعان ما صارت الواقعة حديث القرية، واخضرت وورقت، وأزهرت، حكايات أخرى، ولاحت النشوة على وجه الحاج الذي سارع ولفلف القضية، فانقلبت العداوة بينه وكبير الناحية بعد حين إلى

صداقة حميمة. ولعلّ الطفلة تذكّرت الحادث، وسمعت الأب يحذّر
ابنه :

- لا تعد إلى القتل. لا يدفعك الغضب إليه ، لا بوجه حقّ ولا بوجه

باطل.

أما رقية نفسها فقد رأت أباهما الحاج يقبل عبد بين عينيه ، ويذكر
للحاضرين أنه يعدّه واحداً من أبنائه ، وبغضّ النظر عما جرى ، فإنها
تعلقت به يوماً بعد يوم ، ولأجلها هي انهمك في العمل بأقصى جهد
حتى أصبح يمّين الحاج وساعده ، يراقب العمال. يضبط المواعيد. يدقق
السجلات. يصرف الأجور والمكافآت. يوماً عن يوم مهام عبد تكبر ،
وكانت رقية تراقبه وتزداد به هياماً والحبّ على سعته يضيق بالعاشقين
فما أصعب أن يلتقي عاشقان في قرية صغيرة مثل (بيت جوك) ، بل ما
أصعب لغة العيون. كان الوقت ظهراً ، وقد فرّت إلى الحقل الواسع ،
شأنها كلما أرادت أن تسرّي عن نفسها. اعتادت أن تذهب إلى الطرف
الآخر جنوب نهر (الكودي) ، تراقب النعاج وهي تلتهم الحشائش.
امتدّ بصرها باتجاه الساقية إلى قنطرة (الحورية). في هذا المكان بالضبط
خلعت أول سن لها وتحدثت مع الشمس. لم تعد إلاّ صبّية عمرها
خمس سنوات تركض بين الغنم ، تلعب ، وتضاحك الصبايا ، تمدّ يدها
إلى لثتها ، وتلمس سنّها ، فإذا به يسقط في فمها : ثرسي ثرسي. الصبايا
يأخذن بيدها ، وهن يضحكن مقلدات كلامها : ثرسي ! درداء ! أيتها

الدرداء ، كم عمرك يا عجوز الخير.. تعالي قضي فوق القنطرة ، وارمي
سنّ اللبن إلى الشمس.. كالوزة تهادت ، وهي تغني بلكتها الجديدة ،
وعيناها تقبلان الشمس :

يا شمس يا شموسة يا حلوة يا عروسه
هاك سن الحمار واعطيني سنّ الغزال

سناها طار في الهواء ، ثم سقط في الماء أسفل القنطرة ، وصدقت
الشمس وعدّها ، فجاءت أسنانها كاللؤلؤ صافية ، ناعمة كالحالوب ،
وللسنين دورتها التي لا نحس بها حتى نستفيق في يوم ما على حدس
جديد يأخذنا إلى حلمٍ آخر ، كأن يكون شيئاً ما لا يخطر على البال
قط ، وإذا بها تنبّه إلى نعجة تجمع نحو بستان دوسن ، همّت أن ترفع
صوتها لتنبّه الراعية التي استظلت تحت شجرة سدر ، ثم استثنت. يمكن
أن يكون قلبها ردعها ، ليس غيره يأمرها ألا ترفع صوتها ، فتطيع. بعد
تردد قفزت إلى الساقية راكضة خلف النعجة.. هكذا استعانت بقلبها ،
وكان كلّ شيء يسير لموعده سابق من الطفولة يوم خلعت ضرسها ،
وتكلمت مع الشمس إلى حيث فرّت النعجة ، هناك عند قنطرة الحورية
قابلته عائداً من (المكبس) ، وفي حمى اللقاء الأول تموت الكلمات على
الشفاه. احمرّ وجهه وارتعشت شفتاه. الفارس ذو القلب الحجر يذوب
رقةً وحياءً ، آلف من الحمل. كادت لولا الحياء تشهق وهي تقابله وجهاً

لوجه. مرّت لحظات حملت إليهما نسمة من نسائم الجنة في عزّ القيظ، فانتبها إلى ما حولهما، طلب منها بصوت مرتعش أن تقف عند القنطرة لتسدّ الطريق، ثم ركض خلف النعجة إلى أن أدركها، ومع أول لقاء لها بـ(عبد) رأت نفسها وريثة الحورية، فربما هي حفيدة تلك التي اكتشفها أحد الملالي ذات ليلة ولجّرد أن انبلج الصباح ختلي تراقصت الحكاية على الشفاه وحملتها، من بين أوراق الشجر وغناء الطيور، الرياح إلى البيوت والأذان.

كان الملاً عائداً في إحدى ليالي رمضان من مجلس امتدّ إلى منتصف الليل، وقد اهتدى على ضوء النجوم المتراقص فوق السعفات، وإذا به يفاجأ عند القنطرة بالمشهد ارتعب. كاد قلبه يهبط إلى رجليه. ليس معه أيّ سلاح. قاطع طريق أو هو (الطنطل) الذي يضع عصا في دبر أيّ عابر سبيل ثم يركب ظهره ويحترث عليه إلى بزوغ الفجر. هذه المرة جاء الصوت عذياً رقيقاً رخيماً بلغة لا يفهمها البشر، والملا ينظر، ولا يشعر بالوقت الذي سرقه إلى أن شحبت العتمة، رويداً رويداً اطمأنّ قلب الملا.. وزال عنه الخوف، هو في الجنة. المكان مفتوح أمامه. الحورية تمتطي القنطرة كالفارس. شعرها ينسدل إلى أسفل ركبتيها. وجه نورانيّ رائحة ياسمين، عنبر يذوب. والحورية تضرب بيدها وتدفع راحتيها نحو الملا:

يا ملا يا علوان قنطرتي من ربحان
تأخذها من عندي تعطيها للحلوة

قنطرة الملا أو الحورية لا يهم، بل المهم أن رقية التقت عبد، هناك على انفراد، فعرفت أنها ورثت القنطرة بعد تلك السنوات من الحورية. لحظات دام اللقاء، مع ذلك كان الحلم الجميل يضمّ جناحيه على قلب، وهو اجس أقرب إلى المحال، لأنّ مهام عبد الكبيرة وإعجاب الحاج به لا يغطيان نسبه المجهول. القرية ترى الثلاثة غرباء عنها، أو تهم في ظرف غامض، وكم من مرة ترددت، وهي تسأله:

- من أنت حدثني عن نفسك؟

فيدا كما لو أنّ صدره يضيق وخيل إلى الأب الشيخ أنه يتمرّد،
فالسؤال بحدّ ذاته كان مفاجئاً:

- لماذا لا تفكر بالزيارة؟ مجرد زيارة!

فتساءل الشيخ بحزم:

- هل جدّ شيء ما؟

- قلت زيارة لعلّ الأمر يتمّ على خير.

- بيتنا هنا. وطننا هنا. مأوانا هنا ألم تشتري بيتنا؟

- لا يكفي. الناس يسألون من نحن؟

- يكفي إنك تعرف من أنت.

- حتى العجر لا يأنفون من ذكر أصولهم.

- لكن للضرورة أحكامها.

في عيني عبد شيء ما، التردد، الحجل.. الخوف.. من الشيخ..
وقبل أن يفلت الزمام من الشيخ لجأ إلى لغة التحذير:

- اسمع يا عبد. يكفيك أن تفهم لغة الإشارة. أنا ميت. معكم
ولست معكم. فالأعداء قتلوني ولم يقتلوني.

على آية حال عبد يتغير يوماً عن يوم، يزداد شروداً، وتنقلب
حدّته الحلوة المعهودة إلى ضيق صدر. في السابق لم يكن ليجادل الأب
الشيخ، فبعد الاستقرار في بيت جوك، انصرف الشيخ إلى تأملاته
وصمته. أعرض عن الكثير، ونطق كلمات تنبع حكمة صافية ومعرفة،
والمفروض أن يميل عبد إلى الاستقرار بعد كل ما حدث، وللمرة الأولى
تعترف رقية لأحد أنها كادت تطاوع عبد، فأدركت الداهية أية كارثة
ستحدث في بيت جوك فيما لو طال العمر بالابن. غاية ما انصرف
ذهنها إليه أن أخاها يزوغ إلى مكان خرجوا منه أن حالقه الحظ واهتدى
إليه فيخلط الأوراق من جديد، وما كانت الصورة لتكتمل في ذهنها
لولا اعتراف الشيخ قبل أن يموت، والسّر الذي باحت به لها الحاجة
رقية.

لقد انتهت حياة الأب العنيفة يوم ظنّ الناس أنهم قتلوه، ووقفوا في العتمة يلتمسون بركاته، وهو مرتد ملابس الضحية، فبفضل الوليّ الشيخ اهتدوا إلى مجرم عنيد ومزقوه إرباً إرباً، عندئذٍ أدرك الأب الشيخ أنّ في ظهور هؤلاء الأعداء بذرات خيرة، حتى خشي أن يطلع الفجر، فبين لهم وجهه، والداهية، مهما شحذت ذهنها، فهي تظلّ لا تعي كثيراً من الأحداث، حقائق غائبة عنها، ودّت أن تسأل أباهما فيها، خاصة بعد أن لاذ بالتأمل، لكن الوفاة داهمته فجأة، فضع كلّ شيء.

وإذ كشفت النقاب عن عالم الحاجة، فكأنها استعادت ذاكرتها هي. كان لا بدّ أن تبسط عينيها إلى عالم بعيد، يسري في الطفولة إلى ما قبل الحلول بأرض بيت جوك. ذكريات أجبرت عليها نفسها، وهي تنصت إلى الحاجة رقية. كانت طفلة عمرها ثلاث سنوات فقط. فتحت عينيها على زمن الرحيل، والعنف، وكان فارق العمر كبيراً بينها وبين أخيها عبد. تكاد تكون ابنته، فمن هي أمها، ومن هي أمه. ربما يتميان إلى أم واحدة، ولعلهما من أمّين سباهما الشيخ نفسه، أو.. بالتبني، لم يحدثها عن أمها رغم التصاقها الشديد به، ولم تسمع من عبد حديثاً يخصّ الموضوع، لو امتدّ العمر بهما لأثارت الحديث، كان الشيخ لهما أمّاً وأباً. كانت تجاهد شوقها في أن تعرف كلّ التفاصيل، وإذا بها تؤدّ

لو أصابها صمم. أخوها عبد يريد أن يحدث أمراً ذابال في (بيت جوك) كما لو أن الاستقرار والهدوء يكبلانه بقيد ثقيل لا يقدر عليه، فلا الأرض، ولا البستان الذي ملكه يضيفان عليه هالة من الاستقرار مثلما صبغت الملابس الجديدة ولو على مريض الأب الشيخ بمسحة من الهدوء، وكما تسقط صخرة في بئر ذي ماء راكد طالعها بقوله:

- ليس هناك من حل سوى الرحيل !!! -

- ماذا؟ -

- قلت نرحل ألم تسمعي؟ -

- لا أصدق. -

- إنه الحل الوحيد. -

- هل أعيئك السبيل؟ -

- حتى لو كنت أعرف من أين جئنا لما فعلت لأنني أعطيت أبي

الشيخ وعداً.

ترددت في البداية، وقلبت أفكارها. سرحت مع هواجسها بعيداً.

أية حياة ستعيشها في أحضان رجل غير عبد. تعرف سلفاً لمن تكون.

النمر.. ثم لانت أخيراً. كانت تدرك جيداً أي صنف من الرجال هو

خطيها. ليس بالغريب عنها، فبغض النظر عن موقفه من أهله، فهناك

رابطة الدم التي تجمعها من جهة الأم بالحاج. الأمر الذي جعل أعمامه يلمزونه في أثناء الوقائع القديمة بالمثل الشائع : ثلثا الولد على الخال ، وقبل الكلام في الخطبة وشيوع أمرها ، اعتاد الحاج عباس أن يستقبل النمر في بيت جوك التي ما فتئت تحلم بمناطق البصرة الأخرى ، خاصة بعد حصوله على لقب (باشا). كان يبدو واسع الصدر لا يستأثر برأيه. بارد. هادئ. والبرود والهدوء حققا له من المكاسب خلال مدة قصيرة ما لم يتحقق لغيره. كانت رجلاه في البصرة وعقله في بغداد ، وحين سأله الحاج خلال جلسة عائلية ذات مساء عن عدم رغبته في الترشيح للوزارة أو البرلمان ، أجابه أن الأبواب مشرعة الآن للوجوه التقليدية. آل الجليبي. باش أعيان. آل خضيرى.. إنهم أسن من النمر ، فليتقدموا ، وحين تُستهلك وجوههم ، يجدهم نزلوا له مرغمين ، معنى ذلك أن المدة تطول وسوف يبقى أطول فترة ممكنة ، وعندما سأله الحاج متى يتوقع ذلك رد بثقة : في نهاية الخمسينيات ! كان صبورا كالجمال يجاري أصدقاءه ، وأعداءه ، كل شيء لا بد أن يأتي في حينه ، والمعروف عنه أنه يحسب ألف حساب للعادات والأعراف. رفض أن يخلع الجلالية ويبدلها بالبطلون ، وتواضع للصغير والكبير ، إلى جانب ذلك اختلف نط تفكيره عن أثرياء شط العرب من ملاكي البساتين. لم يكتف بالأرض ، فاشترى سفينة (دوية) تنقل البلح إلى البحرين ، وتعود بالسمن ، وعلى الرغم من وضوح النمر ، وتواضعه إلا أن هناك أمر

جهلت سببه قرية بيت جوك وهو زيارته السنوية كل عام للندن، حيث يظل شهراً أو يزيد، فمن يرى أنه يذهب لمتابعة علاج لمرض مزمن، ومن يذهب إلى أنه ينفس ويروح عن نفسه فترة الزيارة حيث لا عين رأت ولا أذن سمعت، وتميل طائفة أخرى إلى أنه يحضر سنوياً دورة تأهيلية تعدّه لمنصب مرموق في المستقبل. المهم أنّ (النمر) كان يمثل طموح شط العرب كلها في الإطلال على بغداد من شرفة نهر جاسم، ولم يقتصر هذا الطموح على مؤيديه، بل يشترك فيه حتى الأعداء الذين يبحثون عن معايه ومثالبه، وكان الحاج بمناسبة أو غيرها يتلو على مسامع ابنته تلك الفضائل، مع اعتقادها الراسخ في أنها لا تجرؤ على أن تقول (لا) أو تعترض، وما كانت لتريد أن تقول لا.. أبداً، فهي لا تكرهه، ولا تحبه، وتحمد الله على أنه قريب العائلة، يزورهم، فتراه، من دون حجاب، وإلا كان شأنها في الزواج شأن أية فتاة من بنات بيت جوك لا تعرف من هو عريسها إلا ليلة الزفاف، هي إرادة الله شاءت أن يظهر عبد في حياتها لتستيقظ كوامن كثيرة في أعماقها، فتحس أنها تعترض، وتستطيع أن تقول لا أو نعم باختيارها حتى لو همست باعتراضها مع نفسها، وقد آن الأوان لتقول لعبد نعم آن الأوان. الرحيل، وليكن ما يكون...

ذلك، وهي تهمس الكلمة ياذن عبد، ثم تغلت من بين ذراعيه، وتعود عبر القنطرة، غفلت عن عينين تطلان عليهما، هما غير عيني

الداهية ، كان شبح النمر يحث الخطا بين النخيل ، فيسبقهما بمسافة غير قصيرة إلى الطريق المحاذي لضفة نهر الكودي. ترددت تحبس أنفاسها عند الساقية ، وتساءلت (هل كان هنا)؟ هل سمع أو رأى؟ منذ متى وهو يقتفي الأثر؟ وحاولت أن تقتنع: ربما كان مروره عابراً. الآن البصر وقع عليه وهو يمشي أو يتخفى بين النخيل ، وما الصوت الذي قطع عليهما حلمهما وهي مع فارسها إلا حجلة أو طير ما ، انخسر داخل الأجمة ، فذعرت له.

هكذا خيل إليها وإن بقي في نفسها شيء ما تثيره الوسوس. وحين هبط المساء ، وعاد الحاج عباس إلى البيت ، قرأت العاشقة قلقاً ما تخفيه سحنته الحائرة. بدا مضطرباً يهمّ بالكلام ، ويعرض عنه ، أو يماري أن يكظم غيظه ، وقال وهو يتصنّع البرود:

غداً صباحاً نستعدّ للذهاب إلى العشار. سأشتري لكم ملابس ولوازم. صحيح أن المكبس هذه الأيام بحاجة إليّ ، لكنّ البركة في عبد فهو بمنزلة ابني ، وقد أمتته على مالي وعرضي ، وهو كفء لذلك ، كما أثبتت الأيام.

تلك الليلة لا تنسى إذ جاء عبد متسللاً إلى البيت. الكلاب لزمّت الهدوء ، لأنها ألقت رائحة الشبح الغريب ، وبعض أهل بيت جوك يطلقون على التمر لقب (كلب الإنكليز). كيف هداه أنفه إلى الأجمة؟

الآن خلا الجو، فلا حاسد ولا عدول، هيا.. هيا.. الوقت يحاصرنا، أنا معك، فوضعت يدها بيده وسارا باتجاه البستان. كانت الداهية بانتظارهما. قصد الثلاثة الأب الشيخ، وأمامه صرخ عبد: أمرتني من قبل وأمرك الآن. قلت ألق سلاحك واتبعني. اتبعني. اتبعني.

فلم يتحرك الشيخ قيد أملة أو ينطق ببنت شفة. كان ينظر بعينين جاحظتين، حائرتين، وسقط على وجهه من دون حراك قبل أن يلمسه أحد. الأب مات. الشيخ... ومن هول المفاجأة ضرب عبد جبهته بيده، وصرخ: أفي مثل هذا الوقت؟ أيعقل ذلك؟

وفي لحظات انقلب الحلم إلى طعم مرّ؛ فرّت الغزاة بعيداً عن يدي عبد. النجوم عند قنطرة الحورية انقلبن إلى ساحرات متلفعات بالسواد، يلدن نجوماً سوداء، وحمراء، بالوقت نفسه، يلدن، فيفرشن على القنطرة، مواليدهنّ، ويذبجنهنّ، بمخالب كالمدى، في حين راحت الجثث تغني بالرؤوس المقطوعة:

أني طير أخضر أمشي واتمختر
أمي كتفتني أبوي ذبحني
أختي العزيزة لمت عظامي

وعلى أنغام الرؤوس بكين، وصرخن، وندبن، رحن يضرين بالدفوف. كانت بين أيدي الساحرات، وشرطهن الوحيد على النمر إماماً

أن يقتلن سبباً الحرب أو لن يتزوجها إلا أن تكون عاقراً. ووافق. ووافق
من دون تردد، وها هي تخشى أن تنزل عليها آية ضرة، لكن حلمها
البغيض انقشع حيث أطلّ الفجر...

فنهضت مرعوبة..

وانسلت بصمت..

وكانت تستقلّ مع العائلة زورقاً إلى العشار.

وفي اليوم نفسه بعد منتصف النهار، ورقية بعيدة عن (بيت
جوك)، دوّت طلقة عند أجمة البردي... وفرّ شبح ملثم هارباً
كالذئب، فلم تبيّنه عينا الصبية التي فرّت كقطة مرعوبة، ثمّ شاع في
القرية أن غريباً أو غرباء تتبعوا عبد فاغتالوه في (بيت جوك).

أول جريمة في هذه القرية الصغيرة التي فتحت عينيها على الهدوء

والأمان...

فصدّق الناس كلهم الحكاية، وكان الحاج عباس وعائلته آخر من
يسمعون بالخبر.. ما عدا رقية إذ وخزها قلبها أنّ أمراً ما سيقع في هذا
اليوم، ولتستفيق من حلمها بعد سنوات طويلة مأهولة بالحيرة على
خبر تزفّه لها شقيقة الغالي الداهية:

- سأكون لك ضرة!

فابتسمت الحاجة، وأخذت إحداهما الأخرى بالأحضان.



لم يكن من شأن النمر أن يذكر محدّثه أو يلحّ في أيّ طلب مهما كانت أهميته مرّتين. يكفيه أن يشير إلى سامعه، ثم تغنيه هزّات رأسه، وإشارات يديه عن الكلام. كان يحاول أن يخفي انفعالاته تجاه من يخالفونه الرأي، فلوجهه القدرة على أن يستعيز بالفرح عن الحزن، والعنف بالهدوء ربما.. وصفه مناوئوه بالجن، لكنه كان يتحكم بانفعالاته كلاعب البوكر. لقد كان مثار إعجاب المستر (دوسن) نفسه الذي ثنى عليه أكثر من مرّة، فقال بعض المغرضين عنه: إنّ فرخ الإنكليز فاق أسياده ببرودة الأعصاب.

مرّة واحدة فقط كرّر النمر طلبه مرّتين، ولم يتوان عن الرجاء. كان كالذئب الجريح، فكيف يخرج من المأزق بشكل لا يبعث على الريبة؟ إنه يدرك تماماً أيّ شخص عنيد يقف في طريقه، فعلى الرغم من أن العائلة الجديدة انضمت إلى عشيرة آل حمود أكبر العشائر في شطّ العرب، فلم يلح على عبد إحساس المنكسر قط، فكثيراً ما استقطبت آل حمود قادمين جدداً، واستوعبتهم حالما خلغوا أنفسهم من عشائرتهم، فظلّوا ينعمون بالأمان، في الوقت نفسه، حجب عنهم حقّ الأصالة، أما عبد فقد غاب عن باله أن يلتزم الحدود المتعارف عليها

التي تخص القادمين الجدد، زاده شعوراً بالزهو، شراؤه البيت والبستان الصغير، فكأنه اشترى نهر جاسم كلها، وفي قرارة نفسه وذلك ما عرفته أخته، إنه لا يقل شأناً عن الحاج عباس أو الباشا نفسه، ويوم وقف بوجه جامع الضرائب غاب عن فكره حماية الحاج له ولا حتى واسطة الباشا، الحق، ردة الفعل أعجبت الباشا نفسه، ففكر أن يجعله رأس جماعة ينوي في المستقبل تشكيلها لتكون واجهة للعنف إذا ما تطلبت الظروف، ولعل تفكيره هداه إلى أن يجعل من عبد حارسه الشخصي الذي يرافقه في حله وترحاله، لكنه أجّل الموضوع إلى حين، مع ذلك فكثيراً ما تنقلب الأمور رأساً على عقب، وتجد أحداث ليست على الخاطر ولا في البال. من كان يظن أن الاعتداد بالنفس، والغرور، يدفعان عبد إلى التطاول بعيداً، فيضع نفسه بموازاة النمر، فيجد الأخير سمعته، ومستقبله، على وشك الانهيار بفضيحة، وهما الأمران اللذان دفعانه منذ سنوات إلى التخلي عن أهله، فمن أبصر المشهد، وعرف عبد وتهوره، لا يستبعد أن تستفيق شط العرب من أقصاها لأقصاها، على فضيحة جديدة، ولو فرض سلفاً أن رقية لن تطاوع قلبها، وتفرّ مع عبد، فلا بد أن ينكشف المستور اليوم أو غداً، فتلوك سمعتها الألسن، وبذلك يدخل الباشا في معمة جديدة مع الأصدقاء والأعداء، فيكون العرض والشرف محور الحديث...

كان عليه أن يسحق الأفعى من رأسها تماماً...

ذلك اليوم حدث الحاج عباس عما رآه بعينه. وقتها كانت مفاجأة.
حقيقة أغرب من الخيال. رقية الوحيدة المدللة تقع بحب فتى غريب،
والأدهى أنه لا يكرهها بقدر ما اندفع بحمده على عبد. اتق شر من
أحسن إليه، وقفزت في ذهنه والدم يغلي في عروقه قصة الأفعى التي
لدغت حمار الفلاح حالما شعرت بالدفء، لكن من يدري أن هؤلاء
المشردين الغرباء سيعضون اليد التي آوتهم لا لشيء.

بل طلباً للأجر والثواب:

- نستطيع أن نطردهم، ما داموا خانوا الأمانة (وأردف، وحيرته
تطغى على غضبه) بيدنا النفوذ والمال، فلم لا نلحق الضرر بهم.
وأول ما خطر بذهنه أن يذهب إلى العشار، ليجتمع بأبنائه الثلاثة
فيتداول الأمر معهم، لكن النمر اعترض بقوله:

- ذاك ليس خلافاً على صفقة تجارية بل قضية تخص الشرف،
ولمجرد أن ينتشر الخبر يضحى كالنار التي تأكل الأخضر واليابس، فلم
تعرض نفسك لإشاعات أنت في غنى عنها، إنس أن لك أولاداً
يسكنون العشار!

- يجب أن نتدارك المسألة قبل أن يقع ما لا تحمد عقباه.

قالها وفي تصوره أسوأ الاحتمالات، كأنه يحمل من جديد على
كاهله الحرب العالمية الأولى. اهرب أيها الجندي. اهرب إلى حيث

لا تدري. الموت أصعب الاحتمالات التي واجهته. النار ولا العار،
والحاج عباس لا يفكر بالموت، والعار، والنار إلا لحظة هربه، وجد
نفسه جندياً في صفوف الأتراك، يقفز من خندق إلى خندق، لم
نحارب؟ أمن أجل تركيا؟ لنهرب، ولكنه العار، فالإنكليز كفرة. إن
كفروا فلأنفسهم، وروحك يا حاج لم تعتد العنف. الموت هو هو في
أي مكان، ومن حسن الحظ أن لا تكون في مكان بعيد على حدود
روسيا أو اليونان، فيضعب عند ذلك الهرب. اهرب. ليس من ناقة أو
جمل لك في الحرب العظمى، ومن يذكرك؟ الأمان. روح الشاب
عباس تعشق الأمان. عندما يجد نفسه بين العشائر، وتنتهي الحرب
بانتصار الإنكليز يعود إلى حياته الوادعة. وقد فاضت أيامه بعد أن
انتهت الحرب بما تجول به خواطره من ألفة ومحبة، فانيست (بيت
جوك) أمامه بساتينها الفتية العذراء، فقام مكبسه، واتسعت أرباحه،
وكم اغتمّ وحزن يوم ومضت غيوم العداوة بين أهله وآل النمر، وكم
تنفس الصعداء يوم انكشفت الغمة، وتراجع آل النمر وانزاح كابوس
الخراب، فكبر كل ما حوله من جديد، الأرض والمكبس، وأنسته
التجارة ما كان من محنة الحرب. كان اندفاع عبد يذكره بجرأة افتقدها
منذ زمن بعيد، ولغله اختاره لهذا السبب. ويوم استفزه محصل
الضرائب بدا ممتناً لعبد بعد الواقعة، وإلا كادت هيئته تسقط أمام
العمال وفي شط العرب كلها. الحدث أثبت للناحية أن للحاج نفوذاً

على شطّ العرب، وأنه لا يلجأ إلى الباشا إلا في الحالات القصوى،
وكناد عبد لولا المصالحة التي تمت بين الناحية والحاج أن يساق إلى
محكمة البصرة فيقضي ستة أشهر في السجن بدعوى إهانة موظف
خلال أدائه الواجب الحكومي، أما ما حدث فقد جعل الأهالي يظنون
أن للحاج قوة لها القابلية على تأديب الدولة، وجعل الناحية تحسب
ألف حساب في التعامل مع آل حمود. لقد انتشى الحاج لسلوك عبد حدّ
الشمالة، فاقرب منه أكثر، وحمله مهام أكبر، من غير أن يدرك أن هذا
الشاب العنيد، ستدفعه جرأته إلى التناول، فيعبر حدوداً محضور عليه
تجاوزها. لا ينكر أنه أخطأ إذ مكّن الغريب من الدخول إلى بيته. الشرف
كاللون الأبيض، وسجلّ (بيت جوك) يكاد يخلو من الفضائح. سوف
تصبح الفضيحة تاريخاً مهولاً يعبر به الأهالي عن سنوات الماضي.
وعمن؟ من رقية بنته الوحيدة المدللة وصُغرى أبنائه. في السنة التي شاهد
فيها الملا علوان الحورية بنى الإنكليز كندا، وفي سنة الطاعون... وقد
جاء إلى الناحية مدير جديد سنة عشقت فلانة... حدث كذا السنة التي
عشقت فيها رقية بنت الحاج عباس الغريب. فيا ألسن انطقي، ويا
فضيحة انتشري. وفي كلام النمر عزاء ما. كأنه عرف ما يجول برأسه:

- لذلك أخبرتك يا خال.

- أخشى أن يسبقنا الزمن.

- لا أبداً فنحن في أول الطريق.

- ألا تظن أنه (وتردد كثيراً، ولسانه يلوك الكلمة، ولا يهضمها).

- حقاً رأيت في وضع لا يوصف لكن لا تذهب بك الظنون بعيداً.

فقال والغيظ يأكل قلبه :

- الكلب أكل عقلها.

- لقد رأيت كل شيء، لكنني لم أسمع كل شيء.

وبدا الحاج مستسلماً، يتعثر بيأسه حتى كاد يفقد القدرة على

الكلام.

- ماذا لو.. داهمنا؟

ولم يكن النمر جاهلاً لشخص خاله الذي فقد القدرة على الجرأة

بالتالي أخذ زمام المبادرة:

- قلت لك يا خال دعني أتصرف، لا تنس أنّ القضية تعني

مثلك، وكل ما يهمني أن يظلّ الأمر سراً بيننا نحن الاثنين، حتى رقية

نفسها.

كأنه وحده في جزيرة من رمال تداهمه عقارب وكلاب،

والفضيحة على الأبواب. ما يخفف عنه وجود النمر معه. ماذا كان

بإمكانه أن يفعل من دونه؟ كان يمكن أن تشبّ الفضيحة حتى تتحول

(بيت جوك) إلى محرقة كبيرة، فيحمل الهواء رائحة عرضه إلى كل

بيت ، وأمامه خياران لا ثالث لهما : الفضيحة ، أو القتل ، والثاني أهون الشرين. كان النمر أقرب إلى الحاج عباس من أولاده الذين انحدروا من صلبه ، فوق كل ذلك ، بقي ملتزماً بوعدده ، ولم يتخلّ عن فكرة الاقتران برقية. منذ تلك اللحظة أصبح مديناً لصهره إلى درجة أنه بات يقلده في سلوكه وتصرفه ، وكان النمر عند وعده ، فقد تمّ الأمر بموعده المحدد ، ولم يشر الشكوك ، وحول الحادث دارت قصص ، واختلقت حكايات كثيرة لا تمسّ بيت جوك من قريب أو بعيد. القرية كلها عبرت عن أسفها لحادثة القتل الأولى على أرضها ، وأبدى الخال وصهره اهتماماً ملحوظاً للوليّ الأب ، وابنته الصبية التي أظهرت نبوغاً مبكراً حتى قال عنها النمر ذات يوم : لو كانت في نهر جاسم مدرسة لسجّلت الصبية على نفقتي فحرام أن يندثر مثل هذا الذكاء...

ثمّ زفّت رقية إلى الباشا...

ومرّت الأيام والسنوات ، فنسيت رقية خطأ الصبا ، وجموح الشباب ، كما هو ظاهر الحال ، فغفر لها النمر غلظتها ، ولم يواجهها طوال عشرينهما ، والحق أنها خدمته ولم تقصّر في حقه. عاشت كلّها له ولا يطلع على القلوب إلا خالقها ، فأقرّت بما هو واقع من دون أن يساورها شكّ في أن الباشا صبر كثيراً على مسألة الذرية حفاظاً منه على تحالفه مع الخال الحاج عباس ، لكن قلقاً ما ألحّ عليها بعد وفاة

والدها.. لا بدّ من أن يأتي يوم يعلن فيه الباشا عن رغبته في الزواج قطعاً
للألسن بعد أن تبين أنه ليس العلة في الإنجاب، وحفظاً للمال من أن
يذهب إلى أهله الذين رغب عنهم ولو بقي الحاج على قيد الحياة
لعرض على النمر أن يتزوج، فمن يا ترى ستكون ضرة رقية وابنة من
هي؟

كيف تفتحم عليها امرأة أخرى مملكتها؟

وكان النمر يتطلّع إلى المستقبل ويسأل نفسه: لمن كلّ هذا المال؟
وللمرة الأولى وجد نفسه تكاد تضيق بالصبر. الأيام تمر، ولشدّ ما حذر
الزمن. تطاول خياله بعيداً إلى حدّ طرد عن عينيه النوم، فأوشك الليل
على النفاد في حين غطّت رقية بنوم عميق. أنفاسها تلاحقت بطيئة. كأنّ
لحظة غضب ساورته، فامتدّت يده لتضغط على رقبتها، أو لتمسح
عنها خيالاً لآح شفافاً، ثم ارتدّت قبل أن تلمسها. كم من السنوات
مرّت. كانت شفتاه تنطبقان على شفتيها، في الأيام الأولى، فيخيّل إليه
أن هناك شخصاً يراقبهما. كان يتابع رحلاته السنوية إلى البحرين ولندن
وبيروت، للشحن، ولفتح أسهم جديدة، ويعود إليها محملاً بالهدايا،
فيجدها تحمد الله على عودته، وهذا يكفيها. كانت نظراته تختلف تماماً
عن أغنياء (شطّ العرب). فكروا بالأراضي، واكتفى هو بستان واحد،
وهدهد عقله إلى (الدوبة) و(أسهم بيروت) وللشحن بين لندن

والبصرة، ولو كان يقيس الأمور بمقياس أهل شطّ العرب لأعرض عن رقية، لكنه، تناسى أو تجاهل، فنسي. كاد ذات يوم على وشك أن يخسر رقية، فيفقد رهانه مع نفسه والزمن، والناحية التي وضعت ثقتها فيه، وما زال يسأل نفسه، ويعيد حساباته، كيف اقتحم ذلك الغريب الأجواء، وليس ببعيد أن تنظر عين نهر جاسم إلى غيره، وهي مبسوطة أمام عينيه مثل كيس لليانصيب تختلط فيه الأوراق والحظوظ:

- انظري هذه البدلة من بيروت!

- المهم سلامتك.

- أنا حلوة يا عبد؟

- ملكة والله. العن أبو الملكات!

- ما رأيك يا داهية.. ولد يحمل صفاتنا نحن الاثنين؟

تختلط الأوراق كلّها وتصبح بين يديه. بزواجه من ابنة الوليّ يقبض على نهر جاسم كلّها، وربما يصلح ما فسد ذات يوم. كلنا سواء. لا كره، ولا بغض. كلّ شيء جميل. ولم يبق إلا القليل، وشطّ العرب تسير باتجاه العاصمة. السنوات تقترب منه فيمدّ يده إليها ليجرّب حظّه. كان القمر غائباً تلك الليلة، وفي العتمة تغيب ملامح الأشياء، ما عدا خيالاته التي تسطع بوضوح. إنه يشفق عليها ويتألم لها، لكنّ السؤال ألحّ عليه... من هي من بنات القرية تستحقّه؟ أسماء كثيرة ووجوه

مختلفة. ارض عن واحدة. فقط اقبل.. فقط فلانة أو أشرف إلى أي بيت.
ولسبب مجهول لا يدريه. محامن خاطره كلّ الأسماء، وبقي خياله
معلقاً بالداهية، وابتسم في سرّه.

- يا داهية لم ادّعت بعد خروجك من البنك في العشار إنك
لم تستلمي النقود؟

- يا سعادة الباشا، خرجت من البنك، والشك يساورني أنّ
لصوباً يترّبصون بي. كان معي عبدك فخاطبته يا له من بنك لعين.
أمس أخبرونا أنّ القرض سوف يتأخر، واليوم لم يمنحونا القرض والله
سوف أخبر الباشا، وعندما همّ عبدك الغبي بأن يفتح فمه ويفضحنا،
اضطرت لأن أمسكه من ياقة السترة وألطشه بالأرض، كاد يتجمّع
من حولنا الناس الذين ظنّوه يتحرّش بي، لينهالوا عليه ضرباً،
فأمرتهم أن يفرقوا ولا يتدخلوا بين العبيد وأسيادهم.

- داهية والله داهية، وما أخطأ من سمّك كذلك أيتها الأصبيلة.

قالت بين الدعابة والسخرية:

- ماذا يا مولانا الباشا؟ أهناك ما يقال؟

- لا تتعجلي في دعوتي كل خير إن شاء الله

وضحك في سره، وبداه أن ضحكته تنطلق من الماضي البعيد
وتوشك أن تهز المكان كله، وتنذر أن تنقلب إلى صخب يخالف الفرح.

كان الماضي يشخص إليه ساطعاً، قوياً، ويملي عليه، أن يصوغه،
خلال الأيام التالية، بشكل يرضي طموحه على الأقل. الذاهية تكاد
تكون متكاملة من الناحية الجمالية، ولم تعد تلك اللاجئة المجهولة
الأصل. أهل القرية ينسبون لها لآل البيت، ويخلفون بروح الولي أبيها،
فيقيمون له الندور، ويحكون عن معجزاته، ويكفيها فخراً أن دوائر
الدولة غيرت اسم القرية القديم على اسم أبيها. لم لا يعرض عليها
الفكرة؟ لعله يرزق منها بولد يرثه، فتمتد يد الماضي المغلق إليه بالود؟
ومن الواضح للباشا أن موافقة الذاهية كانت مشروطة برضا
الحاجة رقية ومباركتها، فجاء الرد، وهي تنشج من الفرح:

- تزوجيه، أنت أفضل من أن تأتي غيرك لتستولي على أمواله

وتحمل اسمه. تزوجيه فلن تقر عيني لسواك!

بدت ليست رقية الأمس. كأن ظهرها تقوس من هم ما، ونحف

وجهاها. بعد وفاة والدها داهمتها الهموم. ذلك الطول.. القوام.. المشية..

صفحة الخد.. ذوت كورقة صفراء داعبت بها نسمة خريف. لا بد للباشا من

أن يتزوج، لكن من هي التي تستحق أن تكون ضرة الحاجة رقية،

ومن هي التي تدخل البيت فتعزل الملكة عن عرشها. ابنة من؟ وهم

ما بعده هم؟ فهل تثلج الذاهية أخت الغالي صدرها؟

- ستعرفين أنني لم أجيء لأكون ضرة قط..

- يا داهية لابد من أن تأتي ضرة في هذا البيت.
تجاهلت عدم فهم الحاجة لتلميحتها :
- لكن يظل هناك شرط ثقيل قد يزعج الباشا.
- إن كنت تقصدين المهر فاطلبي من الدينار إلى الألف.
- لا أبداً، مهري سيكون مصحفاً فقط ، الحاضر مصحف..
توقفت ، كأنها لا ترغب أن تضيف شيئاً :
- والغائب؟

- دعينا في الحاضر الآن.

داهية. الباشا لا يبخل عليك !
فتجاهلت كلامها :

- تعرفين أنني أقسمت ألا أخلع السواد.

فربتت على كتف الداهية وقالت مبتسمة :

- إدفعي كفارة أيتها الصبية المشاكسة ، فلن تلبسي ثوباً أحمر أو
أخضر ، بل سأختار لك فستاناً أزرق وطريحة بيضاء ، وغديني أنك
تنسين الماضي من أجلي أنا على الأقل.

بابتسامة ماكرة :

- ألم أقل لك أنني جئت لأكون ضرة لك !

وخرجت رقية من عند الداهية، كأنها صغرت عشر سنوات، وكل ما حولها استعاد رونقه، كوجهها الذي دب فيه السرور، وقامتها التي سرى فيها ماء الحياة. جبل ثقيل من الهم والخوف انزاح عن صدرها. كانت هي نفسها تزف الخبر إلى الباشا، فلم يمر أكثر من أسبوع حتى استفاقت (نهر جاسم) على الخبر الجديد، فاهتزت دهشة وطرباً. بعد ممانعة طويلة وافقت الداهية على الزواج، ورأى الناس أن الله بسط نعمته وفضله على العلوية الطاهرة التي فقدت أخاها وأباها. سنين طويلة مليئة بالمرارة والغم، وكانت نهر جاسم تعيش معها حزنها وصبرها، وتدعو الله أن يمن عليها بالفرج، والحق أن أهل نهر جاسم رأوا في الباشا الشخص المناسب، والكفاء للداهية بنت الولي وتابعوا وهم في غشية البهجة والذهول، عرس الداهية وهي تنتقل من بيتها الذي عاشت فيه وحيدة سنوات طويلة إلى بيت الباشا، بعربة يجرها حصانان، ترافقها الحاجة رقية والخادم ملكة الليل...

كانت تبدو للمرة الأولى بثوبها الأزرق، وطرحتها البيضاء...

تلك الليلة وكانت جمعة...

ظلت نهر جاسم تفيض فرحاً وحبوراً... حتى الصباح.

قالت راوية نهر جاسم:

ما رأي ضرتان قط تحب إحداهما الأخرى مثل هاتين المرأتين!

كانتا أما وابنتها أو شقيقتين !

على الرغم من ذلك ، فقد كانت الداهية متحفظة إلى حد ما إذ اعتادت ألا تشير إلى التفاصيل لأنها أخذت بعين الاعتبار العشرة ، وطول السنين بين الحاجة والنمر.

فبعد شهور مرت على الزواج ، طلبت من الحاجة أن تصحبها لزيارة قبر الولي في موضوع ما. كان ذلك صباح الاثنين عندما انطلقت بهما العربة إلى قبر الولي ، فتوجست الحاجة رقية شيئاً ما ، لأن الداهية اعتادت أن تزور الضريح عصر كل خميس ، فإذا ما جد نذر أو مناسبة أو التفتت إلى أمر ما ، زارت الضريح أوقات العصر ، بالتحديد بعد الساعة الرابعة حين تخف وطأة الحر. هناك حيث تشعل البخور ثم تعمل الشاي ، وتجمع بعدئذ ما تجده مكدياً من قطع نقدية وورقية اعتاد أن يلقها ، طوال الأسبوع ، أصحاب النذور والمطالب ، فتشتري بها شايًا ، وحلوى للزائرات أو تتبرع بالباقي إلى من يستحقه ، وتظل شأنها في كل جلسة ، إلى وقت المغرب ، تحاور الزائرات اللائي قدمن يتبركن ويتحدثن عن معجزات الولي :

- هذه القرية تنام مطمئنة والولي الشيخ يحرسها من كل شر ،

وجوده بركة ، وقبره فال خير.

أين كنا قبله؟

من كان يصدق حتى اسمنا كان إنكليزياً!

- نحن الذين نصلي ونصوم!!

- الله قدير لمجرد أن وصل الشيخ رحل الإنكليز الكفار.

- الشياطين تهرب حالما ترى الملائكة.

- هذا النهر الأعمى لم يكن فيه سمك ولا سلاحف أو ضفادع،

كلنا يعرف ذلك لكن ما شاء الله حينما انتقل إليه قبر الولي عج
بالسمك وماج بالحياة مجرد ما يرمي الصياد الشبكة حتى يعجز عن
سحبها.

ولعل بعض الحاضرات يستهويهن الحديث عن الجنون والسحر،

عما يجري في الظلام الدامس على جبل عريضة، أو يتحقق في منطقة
الخندق بالعشار من سحر على يد مهرة يزرعون الجنون والشلل، وكان
أبوها الولي يشفي من ناله السحرة بكيدهم، رغم ذلك تحذوها الرغبة
لأن ترى المكان، عساها تلجأ إلى هذا السلاح في يوم ما... فتزور مع
إحدى ضيفات الضريح الخندق بحوانيته القديمة ذات المظلات البيضاء
والواجهات القائمة، وتكرر الزيارة وحدها، فتختزن ذاكرتها الوجوه،
وتعاود الكرة كأن الزمن يتشعب كالروافد ليصب في نهر كبير يدعى
عصر الخميس. يوم مبارك، وعند الداهية، لكل يوم سمته وشكله.
مبارك يوم الجمعة لكل الأحوال. وخير وقت للسفر السبت. الأحد

يأخذ المرء زيتته. الثلاثاء أيتها الحبيبات تستحب زيارة القريب
والصديق. الداهية حددت الأيام للنساء، واختصت لنفسها بساعات،
لكنها اختارت يوماً آخر. أشعلت شمعتها داخل الضريح، ونشرت
البخور، ثم أغلقت الباب خلفهما، فأدركت الحاجة أن هواجسها
كانت دليلها لخبر جليل تخصه بها الداهية. جلسنا متقابلتين، وشفاهما
تنمّان عن تسيحة طويلة بعد إطراقة هومت إلى الماضي السحيق. رفعت
الداهية وجهاً بعينين تتنفسان الدموع أو تكادان تنفضان عنهما نوماً
ثقيلاً:

- أيتها الحبيبة أتعرفين أنني أصبحك إلى هنا لأقول لك آن الأوان.

ترى غضباً. ناراً، وتبدو لعينها نهر جاسم من تحت الرماد.

الحمرة والسواد، يا ترى هل استبدلت الداهية الأسود بالأزرق
لكي تعود بالسنوات إلى عهد الصبا، شيء ما على وشك أن يفصح
عن نفسه، والدقائق الهائلة حول القبر تستفزها:

- دعي الأمر لصاحب الأمر.

ردت بشيء من العصبية المخنوقة:

- الولي مات وحصلت منه قبل أن يلحق بربه على وعد بأن أحقق

لنفسي وله ما أعرض هو عنه لسبب لا أدركه.

أطرقت الحاجة رقبة كما لو كانت تواجه عاصفة تلوي قامتها:

- أنا مثلك يا داهية أعيش الماضي لكنني تركت الأمر لصاحب الأمر.

هل نسيت؟ فإسفة الداهية لا تخيب. مهما يكن، فهي العزيزة على نفسي. ملكة الغالي:

- يا غالية من أول من سماك الملكة؟!

فغالبت دمة ولم تقو على الكلام، فواصلت:

- عاهديني بالمصحف على أنك لن تفشي السرا!

فتحاملت، ونطقت كمن قدم راكضاً من مسافة بعيدة:

- قلبي لا يطاوعني أن أراك بمحنة. أخشى عليك يا داهية.

أخاف أن تضيعي فتخسري كل شيء.

- لا تخافي على الداهية، إنها تحسب لكل خطوة ألف حساب.

وبعد صمت مثقل بذكرى قديمة امتدت على مساحة سنين

طويلة:

- لي صبر الجمل!

ما الذي تريد أن تفعله الداهية؟ وأي سبيل تسلك إلى الثأر؟

تزوجت لتنتقم. آه لتلك السنين التي غطت الجمرات. لم انبعثت

فجأة من تحت الرماد بهذا العنف. كان يمكن أن أكون لعبد في يوم ما أنا

الملكة ، فتصبحي أيتها العزيزة عممة لطفلي ، ثم تتذكر عقمها فتزوغ
عينها ثانية عن الماضي ، كطير فر من شبك :

- تذكرني أنه زوجك ، وهو سترك. أنت لم تكشفي جسدك لأخيك
ولا أهلك ، المرأة عورة لا يطلع عليها إلا زوجها.

فقال بغمزة ماكرة :

- وهو أبو ابني أو ابنتي.

تشهق الحاجة ، وتنط عينها دهشة... فرحاً... قلقاً. كأنها هي

الحامل ، وتهتف.

- بركاتك يا ولي. بركاتك.

- ادعي لي أن يكون المولود ذكراً.

ويبدو أن الحاجة لم تدرك بعد ما خفي من هدف بعيد كانت

الذاهية قد لمحت إليه في بداية الحديث :

- كل ما يأتي من عند الله بركة ونعمة وخير.

- لا... ولد إن شاء الله!

ويتراقص صوتها مع الشمعة ، ويزوب بضوئها الرقيق :

- هل تحسبن أنني دعوتك عبثاً في يوم ليس بالخميس ، والسوقت

لم يكن عصراً

- تذكري أن قلبي حدثني حالما دعوتني عن أمر غريب.
- لم يكذب قلبك يا حاجة، وها أنت أول مخلوق يعرف مني
الخبر، وأين؟ في هذا المكان!

الحق أول ما خطر على بالها أن تخبر الحاجة، فقد استفاقت فجر
اليوم، وهي تشعر بدوار ثقيل. غثيان قلب الدنيا بعينيها. لم تقو على
الخطو. تقيأت. موجة سعال تخرجت بصدرها. مع خيوط الفجر
أدركت حملها. كانت وحدها لم يشاركها الباشا السرير. الواقع رقية
نفسها تنازلت لها عن الباشا عن طيب خاطر، وهي تؤكد، بما يشبه
الدعابة: خذيه لك. عشت معه سنين طويلة، فطابت نفسي، غير أن
الداهية رفضت. أصرت على أن ينتقل الباشا بالتساوي بين الاثنين،
لا طمعاً في الزواج كما ترد على لسان ضررتها، بل حفظاً لكرامة
الحاجة كي لا تتضارب الأقوال فيدعي الشامتون أن النمر هجر الزوجة
الأولى، وطابت عنها نفسه، وفي هذه اللحظة بالذات تساءلت الحاجة
بشيء من الريبة:

- ليس من أجل هذا دعوتني فقط، فكل ما أريده أن تنسي وعذك
للولي.

- لا تظني أن هناك شيئاً الآن أهم من الذي في بطني.

- هذا ما يجيرني فيك.

واستدركت الداهية وهي ترى صمت الحاجة المفاجئ، وعجزها،

بل تجاهلها:

- لعل الزمن يطول فيغير بعض الأمور أو يؤجلها ولو إلى حين.

وفي الهواجس تضيع الحاجة. دروب ثقيلة المشى، بعيدة، عميقة الأغوار، لا نهايات لبعدها تقبع أمام عينيها. بانث المسافات عن مرمى البصر مخفوفة بالوحشة. حيوانات خرجت من مكانها. كل المشاهد تمر ثقيلة قبل أن تلتف على نفسها. القلق وحده يرتسم أمام عينيها. خوف على الداهية والطفل القادم، أكثر من خوفها على النمر، ونفسها. الداهية بقايا عائلة تنفست بيت جوك روحها حتى خلعت جلدتها ولبست اسمها الجديد منها، فهل تدمر هذه المهرة الجموح نفسها لتحطم نهر جاسم معها؟ كيف ترجع إلى اسمها القديم بعد ما ألفت كل شيء فيها من خلال الولي والد الداهية؟ تمت أن تظل الداهية تحبل بالبنات دون البنين حتى إذا أطل الولد بعد عهد، كانت العشرة، والألفة، وريح الأمومة قد مسحت من ذهنها فكرة الانتقام مثلما روض طيب العشرة الحاجة نفسها، ومن لها غير الضريح مأوى تلوذ به من قلق وخوف، فتضرع إلى الله بحق صاحبه أن ينزل على الداهية سكينته، وعلى الرغم من أن الداهية كانت في دوامة من القلق على ما في بطنها، إذ أرادته ولداً لتتعجل فكرتها إلا أنه لم يلح عليها أي تأثر...

ما عدا رغبتها التي أفضت بها إلى الحاجة، فإنها رددت أمام من يسألها عن الحمل: إن كل ما يأتي به الله خير، وساعة زفت خبر الحمل إلى الباشا رجته أن يترك لها الخيرة في الاسم، وقدمت الأنثى على الذكر، فإن أنعم الله بأنثى سميتها (رقية)، أو كان ذكراً سمته (عبد)، فشحب خاطر سريع بذهنه، ثم تدارك ارتباكاه، بإبتسامة واسعة عننت الموافقة والرضا، بحكم الولي العزيز، لا شكاً في الداهية، ففي ذلك اليوم نطق المقدور بما شاء، وعرف القاصي والداني أن الثأر كتب مصير عبد بتلك الصورة، لكن الباشا قبل على مضض التسمية لأنه بحكم تربيته وثقافته يراه اسماً قديماً لا ينسجم مع روح العصر، لكنه لم يرغب في أن يفسد على الداهية سرورها، وهي حامل، ولم يرد أن يضع نفسه في موقف حرج مع ابنة الولي، ولتكن في ما بعد أية إضافة تلحق بالاسم فتغير من قدمه كثيراً.

ومرت أيام مليئة بالتوتر والترقب، وبطن الداهية تتكور، وتكبر، وركلات الجنين تنطلق مصادفة، فتعظ على شفيتها، وسط تهكم الباشا الذي لم يخرج عن وقاره إلا في هذه الأيام، وهو يعلق:

- هكذا كنت أركل أمي مع أنني هادئ الطبع.

فتقول الحاجة بشيء من المرح:

- فرخ البط عوام.

وبدا أنه صغر، واستعاد عافيته، وشبابه، بل توغل في الطفولة

من خلال ذكرى قديمة:

- أمي لم تحس بي إلا بعد ثلاثة أشهر، كما ذكرت رحمها الله، ثم
تقيأت فجأة، وتغير شكلها، أما أنا، فبدأت أركل حالمًا عرفت أن أمي
شعرت بي!

- إنه حمل الغزاة لا تحس فيه الحامل بالمولود إلا بعد أشهر.

قالت عبارتها بشيء من الزهو كمن تريد أن تتباهى بخصوبتها،
متجاهلة عن غير عمد وجود الحاجة، فعلى الرغم من تجاوزها سن
الثلاثين، ولما يمض على زواجها إلا بضعة شهور حتى أصبحت
حاملًا، ومرت الأشهر الثلاثة الأولى خلسة، وكثيرًا ما أنجزت خلالها
أعمالًا كان الواجب أن تؤديها الخادم عنها، لكن الله قدير ولطف،
الأمر الذي أزعج الباشا كثيرًا، فحذرهما لائماً:

- من الآن فصاعداً لا حركة ولا شغل الخدم والعييد موجودون،

وما عليك إلا أن تركي أي جهد وتعب.

وفي حالات الولادة، جرى العرف الشائع أن تستدعي الحامل،

وهي على وشك المخاض، داية القرية التي تؤدي واجبات القابلة،

وربما للمرة الأولى خرج الباشا عن العرف الجاري حين استدعى من

العشار الطيبة لطيفة بنت لاوي التي تنحدر بالأساس من عائلة يهودية

كانت تسكن أصلاً (بيت جوك) قبل أن يرحل بعض أفرادها إلى العشار أو يهاجر الآخرون إلى فلسطين، وكانت أمها تحضر أفراح القرية وأحزانها، تندب، وتلطم في أيام عاشوراء، قيل عنها يوم احترقت بمحادث مفعج أن النار لم تمس مكان اللطم منها على الحسين، وكانت نسوة القرية يقصدن، عند الضرورة، عيادتها في العشار بدلاً من أن يكشف عليهن الرجال، ويظهر أن الباشا خشي، تحت وطأة القدر أن يحدث مكروه للداهية عند المخاض، فطرح الفكرة أمام شريكه في النقل البحري كامل لاوي الذي دعا الطيبة بحكم القرابة للذهاب إلى بيت الباشا، وكان يمكن أن تحدث كارثة تنتهي بوفاة الطفل أو الداهية لولا تلك الإبرة التي لجأت إليها، وساعدت على الطلق.

ومع الآمال الجديدة المفتونة بصرخات الداهية وفي ذات الليلة التي سهر بها الجميع. الحاجة رقية. بنت لاوي. بعض الخدم. وربما الباشا نفسه. تشرّبت القرية حكاية جديدة، فبدت كأنها تسهر مع بيت الباشا. إشارة ظهرت فسمعها أكثر من فرد، وتناقلتها الشفاه. هناك من مر بالضريح مصادفة، فسمع ضحكاً، وبكاءً، ولكنه الليل، والعممة، والباب المغلق، فمن عساه يتكلم غير الأرواح، والملائكة، ونبوءة استعصت على الافهام، ولو إلى حين.

- المولود ذكر.

- نعم ذكر.

- هو وحده يعلم ما في الأرحام.

- إنها إشارة واضحة...

- ولو... الأولياء الموتى يزورون الناس، ويتحدثون، فيخبرونهم

عما يحدث.

- أتذكر يوم زار الولي في الحلم كل البيوت قبل انتقامه من ابن

الجلبي!

- حرف الباء مشترك بين البنت والبكاء.

- لا. سيكي ويضحك. هذه هي حال الدنيا.

- أيهما أولاً الضحك أم البكاء؟

- كلاهما في وقت واحد.

- يا سبحان الله!

وعلقت عجوز:

بيكي المولود أول ما يهبط من رحم أمه كأنه يقول ما أشقاني إذ

جئت إلى هذه الحياة، وقبل أن يسلم الروح على فراش الموت، يتسم

كأنه يعلن عن فرحة بالخلاص.

لكن العابرين سمعوا بكاءً وضحكاً ألا يعني ذلك....

- قال الله ولا فألك.

- أبوها الولي لا عقب له إلا منها.

- الله ألهمه ليدعو الطيبة!

وبدا أن القدر يقف هذه المرة بكل قوته مع الداهية. كان أشبه
بشلال النجس ماؤه في زاوية عالية ضيقة حتى انبجس غنيماً من دون أن
يراه أحد، أو تلمحه عين، ففي مخاضها وعنادها مع الحياة، كانت
الداهية أشبه بصياد علقبت بسنارته سمكة شرسة، فأرخت لها الجبل...
وأرخت... حتى يش ذلك القدر، ولان، فجاءها مطواعاً ليناً تصوغه
كيف تشاء كما يصنع الطفل بطينة لينة، يشكلها وفق هواه، وربما
أحبطها التفكير في جنس المولود، فضعفت قواها، وفترت، لأنها لا
تريد أن تصبر أكثر، غير أن كل شيء انتهى في لحظات مع آخر صرخة
دوت، فهزت البيت الكبير.

- مبروك... مبروك...

الشدة انتهت!

ولبس البيت الكبير حلة قشبية، وانشدت الأذان خارج الغرفة

لعبارة تالية، حيث توالى الزغاريد:

مبروك ولد!!!

باسم الله ما شاء الله، وكأنه فلقة قمر، على سيماء هبية جده،

ورزاة والده، وفي عينه الصافيتين لمحة من نباهة أمه، وربما اختصت
الحاجة رقية لنفسها منه طيبة القلب، ونقاء السريرة.

نهر جاسم انتشت طرباً.

وكان حديث الطيبة يدور على الألسن إذ لولاها والإبرة... حتى
ظن الأهالي أن استدعاءها حدث بسبب إلهام من الله للباشا لأنه،
جئت قدرته، أبى في اللوح المحفوظ أن يتقطع نسل الولي، الدنيا
خضراء، ملونة، والبيت في عرس جديد، ذبائح. ضيوف، ودعوات.
الخدم في حركة دائبة وبفضل الوليد عادت الأمور إلى مجاريها بين النمر
وأهله ساكني العشار، فزار سعد النمر الباشا مهنتاً، ومباركاً بعد جفاء
طالت مدته ولم يلغه زواج الباشا لا من رقية أو الزواج الثاني، وكانت
الداهية تخص سعداً بمزاحها: لو كنت أعلم ذلك لتزوجت منذ زمن
بعيد، ولا يعرف أي من الغرباء فضلاً عن أهل البيت ماذا يدور في
ذهن الداهية. الحاجة رقية وحدها عرفت أن كل تلك المظاهر الخضراء
ما هي إلا غلاف ملون لعاصفة هوجاء لا يراها أي أحد. كان يعز عليها
الاثنان معاً: الباشا، والداهية. وإن كانت خشيتها على ضررتها أكبر،
لكن للعشرة أثرها. ولقد تجاهلت ما كان ذات يوم، وودت لو أن
الداهية تتجاهل مثلها ما كان... لكن آه من هذه العنيدة التي أبت إلا أن
تجاري ذاكرتها، وتشجذ الماضي كلما غطاه رماد النسيان.

أما الباشا، فقد تغير إلى حد بعيد...

بعد الجفاف والمعاناة الطويلة، أطلقت الحياة في بيته من جديد. الداهية العظيمة منحته أغلى شيء في الوجود، معها ومع الوليد الجديد، رجع إلى طفولته، وترأى مستقبه في أكثر من صورة. فرأى أن الموعد حان ليجري كثيراً من الحسابات لمستقبل ابنه، فكتب باسمه شركة النقل البحري، وربما فكر أن يجعل لزوجتيه حصة في المكبس، ويخبر الداهية عن الكثير من خصوصياته: أمواله المودعة في بنوك بيروت. النقل البحري. سفراته إلى لندن التي يشيع عنها شانؤوه أنها دورات تأهيلية يعدّ فيها لتولي الحكم في بغداد. صمته المفرط انقلب إلى ثرثرة مع الداهية. أحيانا يتحدث لأجل الكلام فقط. ثرثرة هادئة مرحة، حتى التفتت الداهية إلى سلوكه محذرة:

- يجب ألا تكثر الحديث عن عبد لثلا يحسده الناس.

فقال دون أن يلتفت إلى كلامها:

- تذكرني أنه أول مولود في نهر جاسم جاء على يد طيبة.

وواصل كأنه غير مكترث:

- أبوه الباشا نفسه بكل لقبه المحسود عليه ولد على يد الداية!

عقبت الداهية بخفة تضاهي خفة الباشا:

- والأهم أنها يهودية!

- الداية أم ثانية واليهودي بمفهوم اليهود من الأم!

فقرصت خذّ ابنها، وعضّت على شفيتها:

- يا ابن اليهود!

فردّت الحاجة:

- والله العظيم ستُجنّان الصغير.

وكانت تضمه إلى صدرها، كأنها تحرص عليه أكثر من أمه

الذّاهية.



وتابعت راوية نهر جاسم كلامها قائلة:

مرّ عام أو أكثر بقليل على ولادة عبد، لم تغادر من خلاله
الذّاهية (نهر جاسم) إلى العشار. لقد أدركت أنها ربحت الزمن، عندئذ
تنفست الصعداء، وقررت أن تمضي في خطوتها التالية، دافعها في
العجالة، أنها لا تريد لعبد أن يعي ملامح والده، بل خطر في ذهنها
منذ اتخذت قرارها أن تغذي المولود حب الأب، ربما عن لها أن تحبّ
زوجها لولا الماضي الذي راهنت عليه الحاجة وخسرت الرهان

في يوم ذي ملامح غريبة نوت الذهاب إلى العشار بحجة شراء بعض الملابس واللعب لوليدها. كانت مفاجأة للحاجة رقية يبدو أن الداهية استأذنت الباشا في الليلة السابقة، ولعله الأمر الوحيد الذي اختصت به لنفسها.

كان يوم أربعاء.

ذلك الوقت، لم تكن الحاجة رقية متأكدة من غضب الداهية. لم لا تتغير وقد تغير كل شيء بعد ولادة عبد حتى الباشا نفسه، وخلال العام المنصرم لم تفه للحاجة بأي حرف، واليوم أربعاء، اليوم الذي طرد فيه الله آدم من الجنة، وأهلك قوم نوح بالطوفان، فعلام تذهب الغالية وحدها، وهي التي تصر على أن تصحب الحاجة في أي موطن قدم تذهب إليه.

- دعينا نذهب غداً أو بعد غد.

تجاهلت الجواب:

- دعيني أقم بما لم تقدرني عليه.

- يا غالية سأقول لك كلاماً لكن لا تظني بي السوء، كتاب ربنا

العزير تحدّث عن الدية والعفو، والآن كل أموال النمر لك ولا بنك.

- هل مات القديم؟

- قلت لا تظني بي السوء.

فقال أقرب إلى الحدة :

- كلّ أموال الدنيا لا تعادل اضفر عبد.

- لا تجعليني أندم على أني قبلتك ضرة.

بشيء من الاستفزاز:

- أبداً، ويشهد الله، لكنها العشرة.

- العشرة! إنها كيس ملح، وعلقم، كيف تمضغينهما؟

- إلغني الشيطان يا غالية، واذكري كأن لك أخوين ذبح أحدهما

الآخر فممن تنتقمين.

العالم مليء بالأرواح الشريرة، وفي هذا الأسبوع بالذات أطلّ عليها الشارع القديم بالعشار، ذلك المكان الضيق الذي تكدّست فيه السنين كأنه هو لم يتغير منذ كانت الداهية عذراء تنصت إلى أحاديث النسوة عن الجنون والسحر والموت. الشارع ما زال بلونه وطعمه القديم، ودكاكينه ذات المظلات البيضاء التي تزاحم الشمس، وأصحابها الذين انكبوا على الكتب القديمة يقرؤون الطالع أو يغالبون المحال. كأنهم لا يشيخون أبداً، ذخرتهم الداهية لمثل هذا اليوم، أو كان الزمن لا يجرّو أن يغيّر المكان وأهله. كانت تقابل رجلاً ذا وجه عريض، ولحية بيضاء طويلة:

موت عدوّ!!

- ظلّ صامتاً مدّة طالت حتى رفع إليها عينين بدنا من خلف زجاج

النظارة كبركة ماء توهّجت تحت الشمس :

- قريب أم بعيد؟

- العدو هو هو.

- كل شيء بئس منه.

فعالجت صبرها قائلةً :

- قريب :

- كل شيء بئس منه!

- اطلب ما تشاء إلا العرض.

- شرفك مصون إن شاء الله.

- والسّر في بئر عميق. لا قرار له.

فقال وقد هدأت عيناه قليلاً :

- معاذ الله أن أكشف سرّ زبائني ثم إنني شريكك ، وإلا كيف

أخون الجن!

- ما قلته حق.

وبعد صمتٍ طويلٍ أضاف :

- لن يترك معارفك الجدد. عليك أن تحضري كلّ عام لتقدمي

لهم فرض الولاء وإلا فستثيرين غضبهم.

.. هذا حق.

.. متى نبدأ؟

.. سيأخذك مشوار إلى سوق العطارين.

.. أمن الضروري أن أحضر لأرى الجن؟

.. ما دمت ستقتلين عدوك بيدك، وهو ثأرك، فلا بد أن تقابلي

الجن بنفسك، وتواصلتي الزيارة كل ثلاث سنوات مرّة أو أربع بحسب

حروف عدوك.

فقال تغالب حيرة:

.. أليس في من ينوب عني الكفاية؟

وأعادت حين نظر إليها من غير كلام:

.. أليس في من ينوب عني الكفاية؟

.. لا أنت صاحبة الثأر، واعلمي أنك إذا خفت أو صرخت، أو

ذكرت اسم الله، فلن يدخل عليك جني صديق، بل يقتحم الغرفة

عفرت شرس، ويكون مصيرك الجنون.

ذلك أهون من الميit في المقبرة خلال ليلة مظلمة مع الساحرات،

فليمت القلب، وليمت الإحساس ما دمت سأدخل البسمة على قلب

الغالي الراحل، ولن أترك روحه تتعذب، عاشرت الرعب والخوف،
وأنت طفلة، فلن يكون الجن أخطر من بني آدم.

- هل بدأ؟

كانت تدخل في غرفة معتمة تحمل قلبها على كفيها، وتهرب من
الخوف والأسماء الحسنى التي لاذت فيها بوحدتها الطويلة. أما مضيفها
فقد أطفأ شمعتين كان يقرأ على ضوءهما أسطراً غريبة لكتاب موغل في
القدم، ومع آخر تمتماته، وسطوع الظلمة، وجدت الداهية الباب
الخلفي يتحرك وحده. كأن يداً دفعته. قلبها مات في تلك اللحظة.
جسدها بارد، والأشكال كما وصفها مضيفها الذي لا تدري كيف
اختفى: جسد بقرة، وأرجل ماعز، وله رأس قط، حوله مخلوقات
أصغر منه تشبه في الهيئة. داروا حول الداهية، ووقفوا صفاً أمامها ثم
زعقوا بصوت واحد:

- من هو عدوك يا ضيفتنا؟

فوجدت لسانها يتحرك من دون أن تطلقه:

- النمر!

- بماذا نحكم عليه؟

- الموت.

- هل يشكو من علة؟

- آلام في المعدة!

تقدّم أكبرهم حجماً إلى المنضدة حيث العشب اليابس. كان
يمضغه، ويتفله. الأشكال جميعها مضغت ثم عادوا إلى الصراخ:

- يا عشب يا سمّ. اقتل ابن النمر عدوّ ضيفتنا.

ظلت الوجوه الغريبة تمعلق في العشب اليابس، والداهية التي
لم تطرف لها عين، والأصوات تزعق:

- سرّنا سرّك، وعدوّنا عدوّك. اسحقه أربعة أيام، واسقيه لعدوك.

وبرمشة عين سطم الظلام ثانياً، واختفت الأصوات. تحوّل
العشب إلى زمن بطيء، وعلى الرغم من أنّ الداهية بقيت متماسكة إلا
أنها شعرت بموجة باردة تجتاح جسدها. كانت تسبح في صهرج بارد،
وبدا لها الجنّي عربيداً شريراً يعوم وراءها. كأنه الفيضان ذاته الذي
أجأها وهي صغيرة إلى الجبل. اهربي يا داهية، والحقّ عليك لأنك في
حضرة الجنّ ذكرت اسم الله. تصرخ وتضرب الموج، ولم تجد نفسها في
العشار حيث الشارع المسحور، أما ما كان من يوم أمس وزيارتها
للجن، فالأولى بها أن تعيه وهي يقظة: ربما يخونها النوم ولا تخونها
ساعات الصحو. تتذكر كل شيء، وتنسى، على أنها حلمت، وهي
تدقّ النبات القاتل المعفّر بلعاب الجنّ حلماً آخر، فخشيت أن تكون
زيارتها للجنّ باباً تفتح لأحلام لا نهاية لها، لكنها اطمأنت أخيراً،

وهي ترى أباهما بملابس البياض ووجهه النوراني وجناحيه اللذين يطير بهما عالياً يعاتبها لأنها استبدلته بالجن، وحثرها من أن تضيع نهر جاسم، ولم يذكر النمر، وإذا سألته عن دم عبد وثأره لم يجبه... بل اختفى، شأنه وهو حي حينما كان يعرض عن أي سؤال.

لكن لا أحد يعرف أين ذهبت في العشار، ويبدو أنها دخلت سوق العطارين، وابتاعت شيئاً ما، ثلاثة أيام ظلت تطحن، وكانت عينا الحاجة رقية معلقتين برنات الهاون، وهي تتلاشى في فضاء البيت الكبير. ظلت تراقبها بشفتين صامتتين، وعينين ذاهلتين، كأنها تشفق على نفسها والذاهية، والطفل من غضب محتوم، أشبه بنار محمومة. وقد غاب عنها أن تفعل أي شيء، لتتقذ النمر، ما عدا أن تعترض، لأنها عاهدت الذاهية من أول يوم قبلتها فيه ضرة لها، واعترفت أمامها، أن تحفظ السر، ولم تياس. كررت رجاءها مرة وأخرى حتى قالت الذاهية:

- لم تسأليني لم شرطت عليه مهري الحاضر مصحفاً، وكان في نيتي أن يكون الغائب حجة إلى بيت الله الحرام، لكنني لم أرد أن أذهب إلى مكة قبل أن يحكم كتاب الله بين الخصمين.

محال. ضاع منها عبد، وفقدت الملكة عرشها. الحلم تحول إلى حطام: عربة العرش تجرّها خيول مطهمة ذات سروج من حرير مطرز

بقصب ، وكانت العربية مزينة بزينة غريبة عجيبة ، وحين استفاقت
عرفت أن مآل الحلم المفرح يصبّ في نهاية حزينة كقصة حمدة التي
خطفها نسر شرير ، وأنت يا داهية ، ستكونين مظلومة خيراً منك ظالمة ،
فمتى يتوقف هذا الرنين الذي ينقبض له القلب؟

في اليوم الرابع كمل المطلوب.

أما كيف سقت الداهية الخليط العجيب للباشا من دون أن يشعر ،
فذلك ما لا تدركه الحاجة رقية : بعد الشربة بشهر بدا الرجل يشكو من
اضطرابات في المعدة والأمعاء. داهمته الآلام فجأة ، ولم يكن يشكو من
علة من قبل ، وكما رقية أظهرت الداهية قلقها ، ونصحته كالأخرين أن
يعرض نفسه على طبيب إنكليزي خلال السفارة القادمة ، ويوماً عن
يوم بدأ وزنه يخف. الحيوية انتهت تماماً. كان يشرف على نهاية العقد
الخامس ، مع ذلك بدا في الثلاثين ، وعندما تزوج من الداهية قيل إنه
رجع سنوات نحو الصبا والشباب ، لكن الوجه الممتلئ حياة بان كصبغة
زعفران ، ولاحت الوجنتان كعظمتين ناتتتين ، وتلك العينان اللماحتان
ذبلتا كبردي مرّ عليه الخريف. ظلّت صحته تتدهور ، واختلفت أقوال
الأطباء حول مرضه. أطباء البصرة ، بغداد ، تحاليل ، وأشعّات ، لكن
كلّ ذلك ضاع هباءً... ولم ينجع أي علاج...

وفي ليلة صيفية غائبة القمر ، سقط الباشا يتلوّى من الوجع ،

فاحتارت المرأتان ، وماج البيت بالحركة ثم خيم الصمت بعد أن تمّ نقل الباشا إلى المشفى ، ثم جاءت الأخبار صباحاً تؤكد نجاح عملية جراحية في المعدة.

كانت الداهية تحتضن طفلها كأنها تلوذ به من شيء مجهول لا تدرك كنهه. انتبهت لحظات إلى نفسها ، وتساءلت في لحظة خشوع : ما الذي فعلته؟ أما كان لها أن تتناسى؟ قالت لها الحاجة : اعقلي يا مجنونة أمواله الآن لك ولابنك اعتبريها دية الغالي. وما ذنب روحه التي تهيم طالبة الثأر. لو لم تتزوج منه لوجدت مع الزمن والصبر ألف طريقة لتحقيق انتقامها ، فهل قتلته حقاً؟ والطبيب يؤكد إنها القرحة. ماذا لو شفي؟ في هذه اللحظة تمنت لو نسيت انتقامها ، ومثلما اخترقتها لحظة عابرة الملامح ، ناصعة ، وهي ترى الباشا يتلوّى ، وعيناها مشدودتان إليهما ، هي والحاجة ، خرجت من تلك اللحظة إلى غير هدى نحو ذكرى قديمة : إطلاق ما من مكان ما. حمامة مذعورة تفرّ حجلة تروغ. القليل يتلوّى من تحت بصر صبية لا تجرؤ على الكلام. كان سوق العطارين والسحرة ، والبخور ، وحجر أسود مطحون يملآن خيالها :

- لا تسألني عن اسمي ، واطلب أي ثمن تريده ما عدا أن أمنحك نفسي ، لا أريد دواءً يقتل في الحال. دواء يعدّب. شهراً. شهرين ثم تضيع المسألة. وينتهي كل شيء.

العشار ليس بعيداً ، والسوق القديم يعجّ بعشرات السجرة ، كلهم
ينتظرون منذ أعوام :

- رقية هل أنت متأكدة؟

- للمرّة الألف يا غالية تسأليني هذا السؤال. لكن لا ينفع الكلام.

- لم أشك في كلامك ، غير أنني لا أريد أن أظلم أحداً.

غير أنّ صرخة الظهيرة كانت تشقّ السكون في القرية. انطلقت قوية
حادّة. الساعة الواحدة. شاءت الأقدار لتلك الصرخة أن تسبق مصرع
عبد قبل عشرين سنة بساعة واحدة ، وأوّل من جاء يعلن خبر الموت
المراقب ابن الرؤاس الذي هرول من المكبس صارخاً: الله أكبر. الله
أكبر. فضجّت قرية نهر جاسم ، وترك عمال المكبس شغلهم. القرية
ذهلت. حتى الذين صاغوا النكات عن الباشا ، وسمّوه (فرخ الإنكليز)
و(كلب الاستعمار) أسفوا لموته ، فجأة ومن دون إنذار رأت القرية
آمالها ، وحملها أجمل ما فيه ، يتهشّم عند صخرة الزمن. مات الباشا ،
فتلاشى فرح شطّ العرب في الوصول إلى بغداد. الله !!

إنه الزمن الغدار ، كيف تكون بغداد البعيدة؟ مدوّرة... مربعة...
أين قصر الملك؟ كيف تكون بيوت الوزراء؟ في خضم الخبر الجديد ،
نسي الجميع مساوئ الباشا ، ونكاتهم عنه ، تذكروا فقط آمالهم المراقبة
حديثاً على عتبة الموت حتى ظنّ بعضهم أو كلهم أن المستر دوسن

الذي غادر إلى لندن منذ سنوات بكى على الباشا حين ورده النعي.

وها هي نهر جاسم تبكي أكثر من لندن.

وتجد لبكائها تأويلات تتمحور حول الموت والمستقبل. نوري السعيد قتل الباشا. وضع له السم في فنجان القهوة. سمّاً بطيئاً كي لا ينافسه في المستقبل أو ينافس بديلاً له. ألم يفعلها مع الملك فيصل الأول. ليدبر من بعد مصرع الملك غازي. وقد يكون موت الباشا بتدبير إنكليزي لأنهم لا يثقون بأيّ أحد من أهل الجنوب، ووقع الشك في أحلام القرية أيضاً، على الوصي عبدالإله هو الذي دبّر مقتل الملك غازي مع نوري السعيد، ولا بدّ من أن يكون سقى الباشا شربة أدّت إلى تهيج القرحة، وفي البيت الكبير الواسع أطلقت الحاجة صرخة حادة، وجلت لها القلوب، ثم لاذت بالصمت المفاجئ، ونظراتها العائبة نحو الداهية التي أظهرت جزعها أكثر من أيّ إنسان آخر. ضربت صدرها. وخمشت خديها، وقصّت خصلة من شعرها، وقد رجعت إلى السواد. اليوم مات عبد حقاً، وبحقّ لها أن تبكي، واليوم أحبّت النمر. قال الناس عنها: ستجن، فما شوهدت أرمل تبكي على زوجها مثلها. امرأة خلقت للسواد منذ الطفولة، وما الثوب الأزرق إلا لحة عابرة في حياتها... هكذا تحدثت عنها القرية، أما الحاجة رقية فقد اتخذت لها مكاناً وسط مجلس العزاء. كانت تتطلع بوجوه الزائرات صامتة، لكنها

حين يجن المساء، ويكاد البيت يخلو إلا منها والداهية، وبعض
الفلاحات، والخدم، فإنها تجلس عند عتبة غرفتها، وتنوح بأبيات
شجية، حتى تأتي الداهية أو أي من الفلاحات، فتقسم عليها أن تترك
جلستها تلك...

ولم تصبر الداهية على قضاء الأربعين في (نهر جاسم) بل قصدت
النجف. صحبت ابنها، والحاجة. هناك عند القبرين المتجاورين - لأن
الداهية أوصت أن يدفن زوجها جنب أخيها - هناك جلست المرأتان
تبكيان. طالت الجلسة، وطال البكاء، بعدئذ ختمت الداهية نحيبها
وهي تنظر إلى ضرثها الغالية، وترفع طفلها الذي لم يبدأ البكاء بعد:

- إنهما يرقدان سعيدين الآن، فهذا خاله، وهذا أبوه!!!

وأضافت الراوية في ختام كلامهما عن الداهية:

إنَّ أم عبد لم تعد مريحة، صاحبة نكتة، كما عهدها (أهل نهر
جاسم) من قبل، فبعد وفاة زوجها لم تلح أيما ابتسامة فرح على
وجهها قط طوال عمرها المديد.

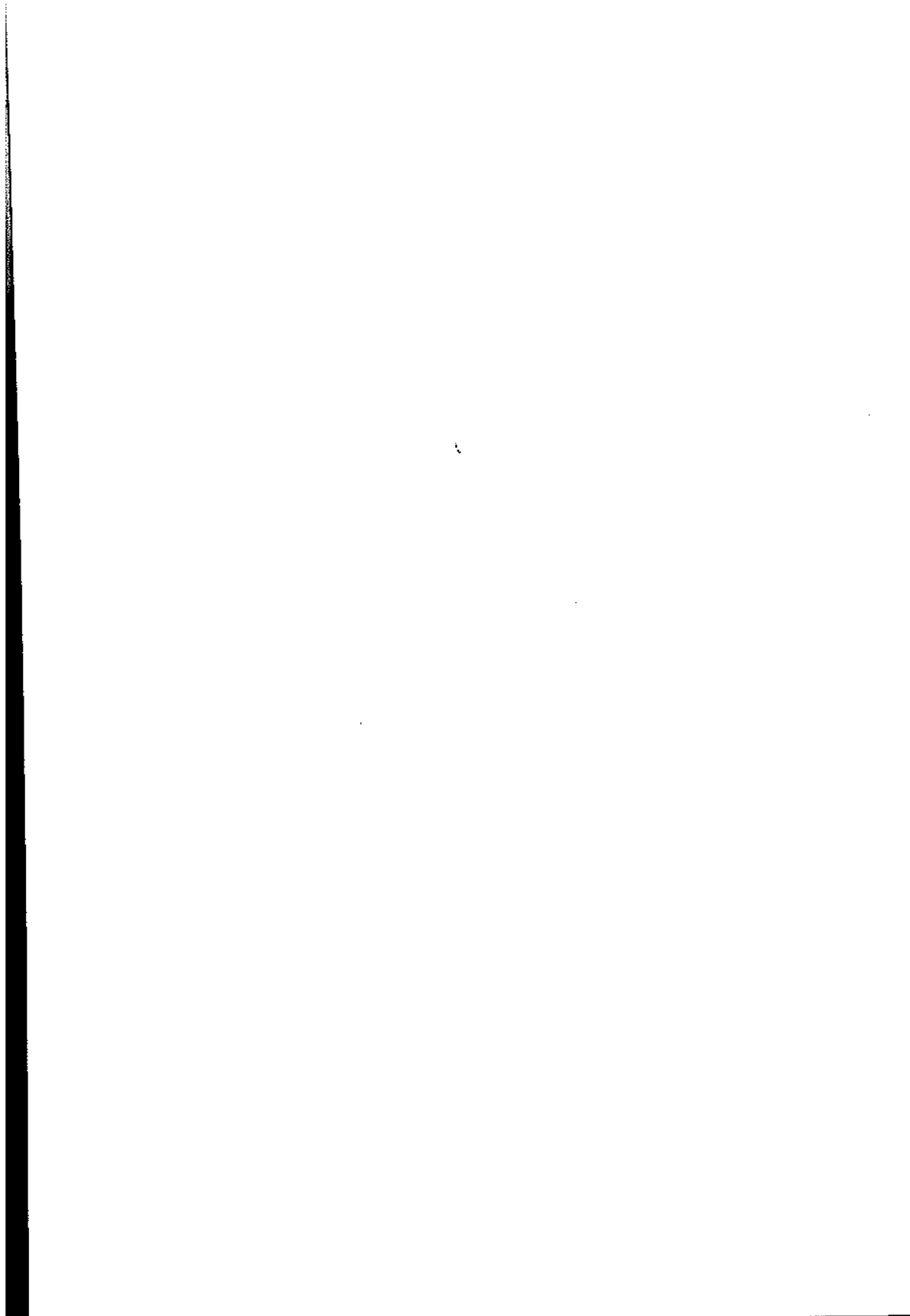
كوبنهاغن - ١٩٩١م



XXXXXXXXXXXXXXXXXXXX

XXXXXXXXXXXXXXXXXXXX

XXXXXXXXXXXXXXXXXXXX



XXXXXXXXXXXXXXXXXXXX

سفر الثاني

الطريق



في البدء كانت الحكاية.

وعن الغالي (عبد) حفيد الولي يجري هذه المرة الكلام.

فمع الحداء الشجي العذب كان يغفو مبكراً تلك الليلة التي
ضحكت فيها النجوم وغنى القمر أغنيته الجديدة بانتظار صباح الغد،
إذ تصحبه الداهية والخادم ملكة الليل إلى العشار فتشتري له بدلة
وحقيبة ودفاتر وأقلاماً لكي يدرس ويتعلم فيصبح عظيماً مثل أبيه
وأجداده، وتابعت الداهية قائلة، وهي تحثه على النوم مبكراً: لو كان
في زماننا مدرسة لرأيت كيف أصبحنا أنا وأمك الحاجة الآن.

أما الراوية فقد أضافت:

كان يعرف أن له أمّاً كبرى تدعى الحاجة، وصغرى تسمى
الذاهية. كلاتهما ربّته، وأجهدت نفسها من أجل رضاه، فضي بأبي
العيون سكن، ومن نافلة القول أن يذكر أن الأم الكبرى هامت به
أكثر، لأن صداقة حميمة شدّته إليها، فكانت له ملجأ وملاذاً، سواءً
خوفاً من عقاب، أو طلباً للنصح، وقد سعدت الذاهية وسرّها اهتمام
الحاجة به، وانصرفت بالحديث إليه، وثرثرتها معه، كما لو أنها
أعرضت عن الكلام مع غيره.

كانت تقضي وقتها بعد وفاة الباشا بالتأمل والصمت، حيث تتخذ
مجلسها جنب عتبة الباب، فتطوف نظراتها الذاهلة من المسبحة الطويلة
السوداء إلى الفضاء الرحب الواسع المجلل بالزرقة وخفيف السعفات،
ولم تكن لتعترض على أيّ أمر، ولا تعنى بأحد، أو تجيب آخر إلا إذا
سُئلت، حتى يأوي إليها الصبي، فتخرج عن صمتها، وأفكارها
البعيدة، فإذا ما جنّ الليل، وتهافتت النجوم مزدحمة في السماء، أو
توهجت جمرات الموقد أيام الشتاء، راحت تقصّ عليه من حياة
الغابرين وسير الأيام السالفة حلوها ومرّها، سعدها ونحسها، حوادثها
المرعبة، وأنسها، الأمراء العشاق، والملوك ذوي البأس، ومن مسخهم
الله سلاحف، ومخلوقات غريبة، فيرى كل شيء مبسوطاً أمامه من
دون عائق، ويلمس أبعد الأشياء بأنامله. لقد زاده عالم القصص،

وأجواؤها الملونة البعيدة تعلقاً بأمة الكبيرة، فمع عالمها البعيد نما وترعرع، وصلب عوده، فلم يكن ليتصور أن القمر لا يتكلم، والنجوم لا تغني وترقص. كان الذهب يسيل أنهاراً تحت قدميه، والرياح تجري خيولاً به إلى المدن البعيدة السعيدة أو المسحورة، فيخطر في ذهنه أن تغلت الحكاية من وقتها ومحلها إلى ما يصادفه من أحداث تجدد في اليوم التالي، فلم لا يكون الغريب الشحاذ الذي لقيه في طريقه مصادفة ملاكاً هبط من العالم البعيد، فتتكر بزوي عجوز فقير يشحذ ليختبر نوايا البشر، والأحرى بعبد بن الداهية حفيد الولي صاحب الضريح أن يمد إليه بشيء ما يعينه به على الحياة، فيكسب خيراً وأجراً، مثلما تحقق لطفل ذات يوم، ساعد الجنّية وهو يظنها عجوزاً ضعيفة فجعلت من شعره فضة، وذهباً، ومهما ذهبت الحكايات بعيداً، وحلقت إلى فضاءات أبعد في عمق السماء، أو انتهت في مساء مبكر، فلا بد من أن يرجع ختامها إلى حمدة، وجملها البربري، ونهر جاسم عندئذ تتدلّى في ذهن الصغير صورة بعيدة، ومؤلمة:

اسمهم القديم (عرب حمدة) وسمّوا قريتهم (بيت جوك)، ثم جاء الولي الصالح فحملت القرية اسمه إلى اليوم. ها هي حمدة تنتظر حبيبها عند قنطرة الحورية.

كانت لحظة غروب، ساعة اختطفها النسور، وطار بها بعيداً إلى

قصره حيث المصائب والغرائب: فتيات علّقن من أئدائهن وأرجلهن في السقوف، وصبايا مربوبات من الضفائر. رؤوس مقطوعة. كانت كل واحدة ترفض الزواج بالنسر تلقى المصير ذاته ما عدا حمدة التي أحبها ورفضته، وعلى الفور نطق لسانها فقالت: دعني حتى أنسى وأعتاد حياة القصور، وطباع الجن، فلم يقتلها وظلّ ينتظر وينتظر طويلاً، لعلّ قلبها يوماً ما يهفو إليه، ويلين، أما الناس في بلد حمدة، فقد لبسوا السواد، مثلما تفعل الحاجة أمه الكبيرة، والداهية، اللتان بعد مصائب بقيتا ترتديان السواد.

كان كل شيء يمشي بقدر كالميزان، ففي الطريق مات حمد حبيب حمدة، وهام بعيرها البربري في البراري، ومثلما صرخ الجن بموت حمد، هتفت ناعيته بموت الباشا، وقد ضاق الناس بالسواد، وتشاءوا من اسم قريتهم القديم، ولمجرد أن حلّ الإنكليز، وخططوا الأرض، وزرعوا، ضرب الله على القلوب، فنسى أصحابها اسمهم القديم (عرب حمدة)، وسموا قريتهم (بيت جوك). كان أبو حمدة - ذلك الرجل الذي بكى كثيراً لفراق ابنته حتى تقرحت عيناه - واحداً من هؤلاء، نسي الاسم الأول، هكذا الحياة، وهذا هو حال الدنيا، كل يوم لها لباس جديد ومعنى يألفه الناس بعد حين، حتى جاء الولي، فحملت القرية اسمه.

- هل الإنكليز مثلنا؟

- بشر يشبهوننا لكنهم زرق العيون بيض البشرة طوال القامات.

تأمل لحظات وسأل ، بعدها :

- لكن يا أمي لم سميتموني عبد وليس على اسم جدي؟

فتمتت مع نفسها :

- داهية مثل أمك.

في اللحظة ذاتها انصرف ذهنه إلى أكثر من سؤال :

- لو كان جدي حياً لأنقذ حمدة (كان يصرّ على أسنانه) يرفع

سيفه ويضرب النسر هكذا ضربة واحدة.

لكن الله أنقذ حمدة بعدما تاهت في الصحراء. كان يمكن أن تعيش وتموت مثل أيّ صبّية فلا أحد يذكرها. غير أنّ إرادة الله شاءت أن تبقى الصبّية الحلوة تنتظر في كلّ مكان. في بلاد السودان صارت تلمع كالشعر الفاحم فتخطر في ملابسها الزاهية ، وفي بلاد الشرق في الصين حورية جميلة لها عينان غريبتان ووجه مدوّر ، وتكون في بلاد الفرنج شقراء طويلة فارعة القوام يعجز عن أن يحيط بها البصر ، فسبحان من صور الشعر والوجه الذهبي يزيداها هيبةً وكمالاً شالها الأبيض الذي ينسرح على كتفها. كانت روحها تجلس على حوض من مرمر ، تمدّ ساقها فتسيل الحكايات فوق قدميها كالماء ، وهي ما زالت تنتظر حبيباً عرفها

باسمها الأول وقد نسيته الذاكرة. إنه ينتقل في كل البلدان، فيراها
سوداء مرّة، وشقراء، وصفراء، ويناديها بكلّ الأسماء، كلّ ذلك
لأنها يا عبد يا ولدي تتنكر عن أعين أعدائها، وما أجمل أن تكون نهر
جاسم بعد رحلتها مع الأسماء من قبل، وما أجدر بالولي أن يمدّ إليها
اسمه. تلك الليلة بالذات كانت القصة قد اختلفت تماماً حيث لم يضع
حمد في الصحراء فيقتله الجوع والعطش، ففي اللحظة التي دخلت
عليها الداهية، وتحدثت عن المدرسة، وحالما خرجت، تغيرت الحكاية
تماماً: في الزمن الغابر، يوم تكلمت الحيوانات، والطيور مثلنا نحن
البشر، نزلت حمدة من قصر النسر، وكتبت على الرمل مكانها،
فحمل الجنّي الطيّب العنوان على جناحه، وركب النسيم إلى عرب
حمدة. طار يوماً.. يومين.. ثلاثة، وشاءت الأقدار أن يكون حمد هو
الوحيد الذي يعرف القراءة، فحمل سيفه، وانطلق على جمل حمدة
في الصحراء، وهو يغني:

جمل حمدة يا بربري يأكل عصيدة وينفري

كلّ الجمال تعارك بس جمل حمدة بارك

وبقدرة قادر اندفع الجمل بفارسه أسرع من الحصان، وهكذا
هاجرت الحكاية من العهد البعيد إلى الحاضر، فعرفها كل بيت،
وآدعى كبار السن أنهم سمعوها من جداتهم.. فجأة رفع عبد رأسه عن

الوسادة، ومال نحو أمه الحاجة، وهتف:

- أمي الحاجة، أمي الحاجة، الحكاية ليس هي.

- ألم ترد أن يقتل حمد النسر ويعود بحمدة؟

فصمت ثانية، وعادت أمه الحاجة إلى حدائها الشجي العذب،

وربما توقفت قليلاً لتهمس له:

- هي إرادة الله التي شاءت ذلك ليكون لحمدة كل يوم شأن وحال.

كانت تعود إلى حدائها من جديد...

ولم يفهم بالضبط، لم تغيرت القصة هذه الليلة بالذات، لكنه

حين تطلع في عينيها، عرف أنها كانت تغني، وهي نائمة، فابتسم،

وهو يلقي برأسه على الوسادة... كان يحلم بالمدرسة ورحلة الغد إلى

العشار... باللحظة ذاتها كان صوتها يخبو بالحداء الشجي رويداً رويداً.



لم يكن قلب الداهية ليطاوعها في أن يمشي عبد صبي الخير المدلل

كلّ تلك المسافة الطويلة إلى مدرسة الدعيجي، فاتفقت مع حوذي،

بالوقت نفسه، بسطت فضلها على اثنين من أهل القرية، فلجّ، ولهج

بالدعاء لها ، والرحمة للوليّ زاهد العمران أبو (حسن) وكاظم المسعود أبو (ناصر) اللذين التحقا بالمدرسة في العام ذاته ، فاطمأن قلبها إلى أن ابنها لن يكون وحده في العربة مع الحوزي. اعتاد الثلاثة أن يلتقوا عند قنطرة الحورية ، ثم يسرون بين النخيل إلى الطريق البري حيث تنتظرهم العربة ، لتقلهم إلى الدعيجي التي لم تكن بشارعها الترابي العريض ، وحوانيتها الطينية ، ومحلّ الجزارة الوحيد جديدة على عبد. لقد رآها من قبل مع أمه ، أو بصحبة ملكة الليل ، وقبل الانقلاب بشهور ، كان معها أمام دكان الجزارة ، فأبصر الطلاب ، وهم يخرجون في صف طويل ، ويهتفون : مؤامرة... مؤامرة... وكم ودّ لو طالت أحداث بغداد ، والتبست الأمور كي يتأخر فتح المدارس ، فلم تكن الدعيجي لتستهويه ولا العشار الكبير بحوانيته ، وعالمه الصاخب. كان يجد حرّيته في البستان والمكبس ، أو قرب أمه الحاجة التي لا ينطق لسانها إلا معه. كان وجود رفيقيه يبعث الراحة في نفسه وسط حشد التلاميذ... وبمرور الأيام اعتاد جو المدرسة ، لا سيما والدته وزياراتها بين فترة وأخرى لمقابلة المدير والمعلمين ، والتبرع ببعض الهدايا. الحقّ إن الصبي اكتشف في الدعيجي على صغرها ، وكآبة دكاكينها ، واقعاً آخر غير عالم نهر جاسم ، وغير العالم الجميل المنطوي على قصص أمّه الحاجة ، خاصة الأشباح والنسور ، والمخلوقات الغريبة الخفية ، ولم يصعب الأمر عليها ، وهي تعود به مساءً إلى إحدى الحكايات الجديدة ،

وأصرت على أن تظلّ في عالمها الجميل ، على الرغم مما فيه من
عفاريت وأشباح ، بل أقنعت أن ذلك كان في الزمن الماضي إلى وقت
صباها ، لكن سرعان ما اخترع ابن آدم الطائرة والسيارة والمذياع
والتلفاز ، فأصبح هو الجن والعفريت ، فأدرك الجن الحقيقي أن لا بقاء
له بعد أن غلب الإنسان على الأرض بمخترعاته ، فرحلت أسرابه إلى
الفضاء الواسع ، وسكنت مجاميعه التي لا تعدّ ولا تحصى الكواكب
الموحشة بدلاً من مقابر الأرض وخرائبها ، مع ذلك ، فلا يعني الكلام
أن الجن هجرت الأرض بالمرّة ، إذ سرعان ما تروح تهبط حين يراودها
الحنين ، والويل لمن لقيه عفريت ، والحظ السعيد لمن قابله جني صالح
مؤمن .

كان الثلاثة سعداء بالعربة ، إلا أنهم في غالب الأوقات يشعرون
بالملل ، فيحلمون بالمطر ، ليغطي الوحل طريق البر ، عندئذ يستغنون
عن العربة يومين أو ثلاثة ، ويغتنمون القرصة باللعب ، حالما ينتهي
وقت الدروس ، وكان حسن يشبه عبد في جبه للهدوء والميل إلى الجد ،
على التقيض من ناصر الفيل الذي يطعم كلامه بنكتة أو حركة لا معنى
لها من دون مناسبة ، حتى إنه حاز على لقب الفيل الذي عرف به فيما
بعد ، وهو في السنة الابتدائية الثانية من قبل معلم الرسم يوم طلب أن
يرسموا حيوانات أليفة من بيئة شط العرب ، وإذا بناصر المسعود يرسم
فيلاً... مدّ ذلك واللقب يرافقه لأكثر من عام ، ولم يسقط عنه إلا حين

حصل على لقب جديد.

على أية حال، بالرغم من اختلاف طبيعة الفيل، فقد بدا كأن الثلاثة يبحثون عن شيء عثروا عليه في أحلامهم الجميلة. الواقع، والخيال. نهر جاسم تلك القرية المنغلقة المنفتحة حيث طريق البر والتنومة، والرحلة إلى العشار عبر السواقي والأنهار. الكبار والمهريون يتحدثون عن عبادان في إيران تلك المدينة الجميلة، فيها كل ما لئد وطاب، قطعة من الجنة على مرمى البصر. البائع الجوال الذي يحمل كيسه الواسع على ظهره، ويطوف الدنيا، فيظنّ الصغار الثلاثة أن الرجل العجمي ذا اللكنة الغربية يحمل الدنيا كلها على ظهره: تارة يبيع صور الملك المطبوعة على الصحون، وأخرى إلى عهد قريب صور الزعيم، ويشترى البيض، والسلال من البيوت، ويحكي الأعاجيب بلهجته المضحكة، عن الناس هناك، وأحوال العالم، وكأن الدنيا إذ يأتي كل شهر أو شهرين مرة تقبل على الصغار بكل ألوانها الزاهية: الحياة هناك، الدنيا، وعلى مرمى البصر كل ما لئد وطاب.

كل شيء قريب وبعيد والناس يرغبون في أن يسمعوا عن الأماكن الغربية على أن تظل في بعدها. كان هناك خوف يدب بين فترة وأخرى. رية تتسلل عبر الأنهار والأشجار كما لو أن ذاكرة الناس تحركها من تحت الرماد، فتلهج به الألسن، لتلتقطه آذان الصغار، فيتخيلونه كيف

شاءوا: قيل من عهد حمدة يوم كان الطير والحيوان ينطقان، وكلّ من عليها يمكن أن يخلع رأسه قبل أن ينام ستشبّ في يوم ما حرب على الحدود، ثم تنتشر لتدمر العالم منذ ذلك العهد. جدّ عبد الولي أكد الخبر ذات يوم وهو يزور أهل قريته ذات ليلة وهم نائمون، فيهمس في جوارحهم الخبر عن الطريق، وكان لتلك المصيبة القادمة من زمن ضارب في القدم إلى زمنٍ أتٍ مجهول، مخالب بصور متباينة الملامح: فيضان واسع طاغ يحمل في أحشائه عراييد تعيثُ فساداً، ومن قبل يهبّ من مربضه شرق الحدود، دودٌ أسود له شكل الحيات السمك الغريب يلدغ ولا شفاء من وجعه إلا الكي بالنار. بالأساس غول اختطف فتاة، وعندما هاجر الجن، وابتعد عن الأرض ارتأى أن يغزو كوكبنا بشكل أكثر شراسة، وأعمّ انتقاماً، فأين هي الراحة التامة كما يصغي إليه عبد من شفّتي أمّه الداهية؟

- إلا الجنة (كما تستدرك الحاجة الكبيرة).

- لو كان أبي حياً للفت بي الدنيا مع أمي الداهية والحاجة. لندن. البحرين. الهند، حتى لو فتح الطريق وحدثت حرب فإنّ أبي سوف يصحبنا معه إلى بلد آخر، فنكون في أمان حتى تنتهي الحرب.

كان حسن صامتاً في حين عقّب الفيل:

- المرحوم والدك من شخصيات العهد الملكي، ولو كان حياً لقتله

الشيوعيون.

سأل باستنكار:

- من قال ذلك؟

ردّ الفيل بجراته المعهودة:

- الناس كلهم. أبي يقول كان يمكن أن يصبح رئيس الوزارة لو لم

يختلف مع نوري السعيد.

هزّ كتفيه ساخراً:

- كان أبي يكره نوري سعيد.

الوحيدة صورة والده التي ارتسمت في ذهنه. كثيراً ما كان يقف في الصالة حيث موقعها مقابل آية الكرسي، فليس هناك من أيّ تصوير للخال أو الجد. الحاجة، والداهية، وربما أيّ إنسان آخر، يذكرون له أنه يشبه الجميع. صورة الثلاثة فيه: الأب، والجد، والخال:

- أمي الحاجة تقول: كان الزعيم وجماعته موظفين في العهد

الملكي، ثم عملوا الثورة، من أدراك لوبرقي أبي حياً لكان يمكن أن يكون من جماعة الزعيم.

ومع وقع الحصان، واهتزاز العربية أطلق حسن سخريته من

الفيل:

- يا طويل اللسان ، وقليل الإدراك ، كلنا كنا نحب الملك في العهد
المباد. أمي تقول إنها تحب الملك وتكره الوصي ، ونوري السعيد.
تحمّس لرأي حسن.

- الدّاهية تقول لو امتد بأبي العمر ووصل إلى بغداد لكان يمكن أن
يصلح الأمور فيجد الزعيم أن لا حاجة للثورة.
الفيل ، وهو يهزّ كتفيه :

- الآن لا ملك ولا زعيم ما عدا المشير (وكوّر فمه كما يفعل معلم
التربية الوطنية واسترسل في الكلام) المشير المؤمن. من منكم يحب المشير
المؤمن؟

رفع عبد وحسن إصبعيهما وأجابا بصوت مرتفع :

- نعم أستاذ و(بصوت منخفض ، وهما يضحكان) هنا فقط في
المدرسة أما في البيت ، قلنا كلام آخر.
بماذا تهمسان أيها الولدان؟

لم يكن عبد ليفهم تلك الحالة التي ربما يجدها لعبة يتسلّى بها.
أحداث أكبر منه يراها تدور على لسانه ، فيظنها ، هو والآخران ، أكبر
بقليل من قدراتهم. والده الباشا. الوزارة. الزعيم. الطريق ، وقصته التي
ارتبطت بالحرب ، فظلت مدخلاً لسطوح الظنون ، والتأويل من جديد ،

وعني بها الكبار والصغار، كأن الأمر فيما لو وقع، سيكون من الأحداث الجارية على الألسن، ويحتلّ موقعه بين السابق الخالد مما مرّ من أحداث، والحقّ لئن ظهر خوف الأهالي من وحش الطريق لارتباطه بتلك الأحداث، فقد كان كلّ منهم خائفاً على أرضه من أن يفترسها ذلك الوحش الطويل النابيع من حكاية ما، والمبسوطة بدايته عند التنومة، ولا يعلم إلا الله أين ينتهي، أفي الدعيجي أم على الحدود. كانوا يرسمون صوراً لا متداد، الوحش، لعلّ في الخيال ما يخفف من مخاوفهم، وكلّ رآه يمتدّ بين النخيل حسب هواه. الداهية كانت تخشى على الأرض والمكبس، إلا أن الضريح هو المقصد لثلاثاً يرحل جثمان الولي مرة ثانية إلى مكان آخر. رأته يشق البساتين متجنباً أرضها، والمكبس، والضريح، وبستان كندا، فيتجه عبر البساتين الشمالية المحاذية للشط الصغير، أما كاظم المسعود، فقد ترجم ابنه الفيل حلمه: الشارع سوف يأتي من طريق التنومة، ماراً بكوت سوادي، وكوت الجوع، ثم يلتف بمحاذاة الشط الصغير، ويقسم المسبح قسمين، وقد يمرّ قربه، ليطلع بعد ذلك عبر بستان الجلبي الكبير، وينتهي بالمفرق.

وللمرة الأولى، يتدخل حسن، فقضية الطريق لا تهمه، ولا تعنى بها عائلته التي تمتهن الفلاحة في إحدى أراضي الجلبي:

- إذا تكلم المهندس الكبير ناصر المسعود، فعلى الجميع أن يلتزموا الصمت، فذلك أفضل.

في المدرسة أصبح خبر الطريق حقيقة. أول ساعة دخل فيها الفصل معلم الجغرافية ذكر أن مدير الناحية قدم إلى الدعيجي، وتحذت مع المعلمين والمختار. كان الحوار يدور حول الطريق. وكان المعلم يث الحماس في نفوس التلاميذ، خاصة عندما استرسل في وصف المآسي، والحوادث المؤسفة السابقة التي كان يمكن تجنب شرها لو التفتت الحكومات السابقة إلى حال القرى، فكم عانى المعلمون، وكم من شخص مات قبل أن يصل إلى المشفى، وماذا يحدث لو داهم القرى طوفان على حين غرة عبر البر مثلما حدث في الأربعينات، أو حريق. قرانا سوف تفتح على عبادان، فيمتد بنا المطاف إلى إيران، والهند، فباكستان، هناك يستطيع ناصر الفيل أن يصبح واحداً من الفيلة الكثيرة، عندئذ تنبسط الأرض بالضحك والابتسامات، وتتمرغ بأحلام الصغار، ونكات الفيل:

في الفيضان الأول تذكر جدتي عن العرييد.

- ما هو العرييد؟

- الجن موجود في القرآن!

- الجن وليس العرييد.

- هل ينتهي الطريق بالهند يا أستاذ؟

- متى تأخذنا المدرسة برحلة إلى عبادان؟

- أيام الخميس والجمع يعسكر الكشافة في التنومة والعشار.

وبقدر ما فرح تلاميذ الدعيجي للخبر، لأن التنومة ستكون وجهتهم في أغلب الحالات بغير عائق، فيستغنوا عن عبور نهر شط العرب إلى أبي الخصيب، فقد خيمت مسحة من الوجوم على وجوه الثلاثة القادمين من نهر جاسم، وسرعان ما خرج الفيل عن وجومه، وكاد يدخل في عراك مع صبي من الدعيجي، سأله ساخراً:

- أيها الفيل أين خرطومك؟

فهتف، وهو يمدّ يده أسفل بطنه:

- هنا هذا هو المسه كي تصدق.

كان لا بدّ من أن يمرّ بعض الوقت لينسجم ابن المسعود مع اللقب الجديد، فيرضى به مثلما قبل الألقاب السابقة التي منحت له من أترابه، والناس أو المعلمين: السفية. الأرعن. أو الشمر ذلك اللقب الذي حصل عليه يوم ارتضى أن يلبس الثوب الأحمر في تشاييه عاشوراء، ويذبح الحسين. كان يبدو أكبر من عمره، وأطول من أيّ طفل، وله القدرة على أن يغير وجهه، فيسطه، ويقبضه كالعجينة بالضبط. كل ذلك أوحى له أن يقدم على أفعال لا يجرؤ من في سنّه

عليها. كان يسير في الظلام الدامس وسط البساتين وحده، أو يفكر أن يغزو مقبرة عريضة منتصف الليل، وكثيراً ما تحدّى تلاميذ الصفين الخامس والسادس الأكبر سناً منه بسبب لقبه الجديد، قبل أن تمرّ بضعة أيام فيعتاد عليه، ويتوقف الشجار بانتهاء الفرصة، وانصراف الطلاب مع صوت الجرس إلى قاعة الدرس.

كان عبد يرّحل بعيداً إلى عوالم بعثها الحدث الجديد من النسيان، فلشدّ ما كانت أمه الداهية تحشى من أن يتحوّل الطريق إلى علامة شؤم تنذر بمجزرة، قالتها مراراً، وسمعتها الصبي، فوجه سؤاله إلى الحاجة الكبيرة:

- كيف ستكون الحرب؟

- هذه المرّة يدمّر الناس بعضهم بعضاً بالقنابل الذرية، فتغطي الجثث الأرض، بعدها تقوم القيامة.

الجواب ذاته يسمعه من ابن الروّاس. وفي لحظة ما يهاجر الخبر إلى نهاية العالم. لا بدّ أن تقوم القيامة في اليوم التالي بدلاً من أن يموت الناس فرادى، فيستغرق موتهم سنين طويلة، ليأكل جسده الدود. العالم كله يفنى معه. أمام معلم الدين:

- أستاذ لو حدثت حرب عالمية ماذا يكون؟

- العالم كله يفنى يا أولادي!

- متى تقوم القيامة؟

- الله أعلم!

أمر محير. هناك من مات وانتظر طويلاً. ألف سنة. مليون. أكثر. مثل أي حيوان برائحة تزكم الأنوف، رآه عرضاً في البرية أو البستان، يحفر الدود أشلاءه، ويدوب مع التراب عظمه، أما المؤمنون فتذكر الحاجة ومنهم الوليّ جده، فلا يتخر البلى عظامهم، ولا يأكل التراب لحمهم، أما نحن وقد قضت الحرب على الأحياء جميعاً، فلن نرقد ملايين السنين، فلا تتعفن أجسادنا ولا يأكلها الدود لأن القنبلة الذرية تفني كل حياة تدبّ فوق الأرض حتى النمل والسّوس والبكتريا التي لا ترى بالعين تفنى!.. الطريق على وشك الظهور، والعالم يسير نحو الحرب، لكن الفيل يردّ بسخرية شأنه كل مرة:

- ولم تتخلل أجسادنا طويلاً، وكلنا موتى!

يتجاهل المعلم سخريته، ويعقب:

- لو قامت القيامة، سترجمون أتم فقط لأنكم صغار تدخلون الجنة

بغير حساب أو كتاب.

- الجنة؟!!

- الله لا يحاسبنا؟

الحاجة الكبيرة. المعلم. الداهية. كل كبار السن يشيرون إلى الجنة والأطفال، إنهم طيور الجنة، هناك أرض ينقل إليها الناس إذا ماتوا، فيشعرون بالأمان، ولولا إرادة الله التي بعثت الفيضان، لكان جدك في تلك الأرض البعيدة التي دفن بها أبوك وخالك. الموتى إليها يرحلون أما الأطفال الصغار، فلا خوف عليهم، أينما دفنوا في الدنيا فمصيرهم إلى الجنة في الآخرة. الله لا يحاسب الصغار، مع ذلك، فالداهية تعاقبني إذا تسللت أيام الصيف، ساعة المد إلى النهر، وحاولت السباحة، وتطلب من أمي الحاجة الكبيرة ألا تحكي لي قصص المساء. لست وحدي. حسن أيضاً يربطه أبوه مع الدجاج، والفيل لسعته أمه بالنار على كفه لأنها امتدت إلى جيبها. عالم غريب. لم يعاقبنا المعلم، وأهلنا، والله يدخلنا الجنة ولا يلتفت إلى أفعالنا؟

- إسأل المعلم يا فيل.

- وأنت؟ أليس عندك لسان؟

بغض النظر عن الاحتجاجات المكتومة. كان الثلاثة يفكرون بنهاية العالم، وإنقاذ العالم من الكارثة المتوقعة، فلم يجدوا غير الاستحواذ على الاسم الأعظم، فقد كانت إشاعة الطريق التي أوشكت أن تكون حقيقة، مفتاحاً للغز كبير. لو كان يملك تلك الآلة السحرية. مصباح صغير يدعكه بأنامله، فيغير مجرى العالم. في عزّ البرد يأمر مدير

الناحية ، ومدير الشرطة ، وكل هؤلاء الذين يكرههم أن يتعرّوا حتى تزرّق جلودهم ، وأمامهم معلم الجغرافية ذو الوجه البدين الذي يتحدّث عن العالم وطرقه وقنواته ، وكأنه غول يلتهم الهواء :

- هل من سؤال؟

- الناس يقولون لو تمّ الطريق ، لتمكنت إيران من مهاجمة العراق ،

واحتلال شط العرب.

الغول حائر. كيف يستوعب الصغار مثل هذا الكلام؟ الناس خائفون من الحرب ، والصغار يسألون ، كأنهم في سباق مع الزمن ، لتصبّ الحكايات ، فيما بعد في درس الدين ، فراوية الدين ، على لسان المعلم ، تحدّث قبل راوية نهر جاسم ، وقبل الحاجة الكبيرة : اسمعوا حين يُبعث الناس ينهضون عرايا ، عيونهم مطبوعة فوق هاماتهم ، حتى لا يرى أي منهم عورة الآخر ، وقتذاك يؤتى بالموت على صورة كبش أسود ، فيُذبح أمام الخلق ، فيعرفون أن لا موت بعد يوم الحساب ، فإمّا إلى الجنة أو النار.

- من يدفن الجثث لو قامت حرب عالمية؟

- الملائكة!

الأمّ الحاجة قالت ذلك ، لكنها غيرت نهاية حمدة ولم تغير نهاية

العالم.

- أستاذ هل صحيح سيكون الطريق سبباً للحرب؟

- خرافات عجائز!

- متى تحلّ نهاية العالم؟

اسمعوا يا أولادي، الدنيا ما زالت بخير، ونهاية العالم بعيدة، الله وحده يعلم متى تحين الساعة، ولن تقوم ما دام في الدنيا ناس يفعلون الخير، يصلّون ويصومون، ينهون عن المنكر، ويأمرون بالمعروف. في ذهنه سؤال، يدور إلى هذه اللحظة، خبر سمعه من الداهية، لم لم تفكر الحكومات المتعاقبة في فتح الطريق، بإمكان عبد أن يحبط مساعي الحكومة، لو يملك الاسم الأعظم، وهو موجود في القرآن، ولا تمسه النار، لو أحرقناه ورقة، ورقة لعرفناه، ولكن:

هل يدخل النار من يحرق كتاب الله؟

ولم يفعل الإنسان ذلك؟ هل تخشى عليه إذا بليت أوراقه؟ إذا كان الأمر كذلك، فألقه في الماء، فذلك أفضل من الحرق.

ها هو يعثر على الحلّ يرمى صديقيه، فيرى الارتياح مرتسماً على وجهيهما. سوف لن يصابوا بالجنون. كان القرآن مكتوباً على جريد النخل، ثم جمعه على نسخة واحدة، وأحرقوا النسخ الباقية. أمر لا تعرفه الحاجة الكبيرة، وحين سمعت به، هزت رأسها ولم تعلق على الأمر، وليس هناك من مأوى أفضل من قبر جدّه. مكان لا تدخله

الشياطين، لا جن ولا سحرة، بقادرين على اقتحام ذلك العالم الهادئ الرزين، وعلى الصغار الثلاثة أن يلمّوا الغيوم المتناثرة في السماء حبة حبة، ويحتكموا إليها ليتخلصوا من العربة بضعة أيام، ولم تكد الحصص تنتهي حتى نقرت بعض القطرات على زجاج الشباك. كانت قطع الغيوم تضيء على الجو عتمة ثقيلة، والعيون شخصت إلى الخارج، كأنها تحثها على المطر، وبدت سعادة عبد أكبر من أي طفل، وزهوه، وهو يسمع الأطفال وبعض الصبايا يغنون، فيلمحون باسم والده الباشا:

مطر.. مطر يا حلبي عبّ بنات الجلبي
مطر.. مطر يا شاشا عبّ بنات الباشا

في الليل استمر هطول المطر إلى الفجر. النسوة الثلاث تجمعن في غرفة الداهية، شأنهن كلما عيس الجو، وعصفت الريح في الخارج، كانت معهما ملكة الليل التي يقال إن جدّ النمر اشترى جدتها أيام الرقيق، ولم تغادر البيت بعد وفاة الباشا، شأن العبيد الآخرين، كان عبد يضع رأسه على ركبة الحاجة بعد أن فرغ من سرد ما جرى في المدرسة عن الطريق الجديد، وحديث المعلمين للتلاميذ، وعلامات الاهتمام تلوح على وجه الداهية، ثم لا ينسى أن يستحثّ الحاجة أن تحكي له قصة جديدة، وربما استوحت تلك المرأة الصامته الناطقة

قصتها الجديدة، هذه المرة، من وحي العراء الموعود بالمطر في تلك
الليلة، فسمتها قطر الندى. أميرة جميلة شقراء كالضوء ذات أسنان
بيضاء، مثل الثلج، أحبها النسر ذات يوم، فأحسّ الهواء بالأمها،
وحركّ جناحيه، فثارت عاصفة شديدة ألقت النسر بعيداً، ولعلّ عبد
أنس للحكاية، ولاقتراح الداهية أن يبقى في البيت غداً إذا ما استمرت
العواصف، ولم ينقطع المطر.

.. عندما بكت الأميرة، قطر الندى، سقطت دمعة من عينها، فنزل
المطر على العالم، وتحركّ ملك الرياح من نومه، وهو يصيح غاضباً:
لا تسبّي الهواء... أنا الهواء... أنا الهواء، ثم راح يجمع التراب،
والغبار، والرمل، وألقى كل حملة بوجه النسر الشرير.

ولم تكذ تتم عباراتها حتى فرقت السماء، وانفجرت، ولاح من
النافذة برق ساطع عن بعد أشبه بالبركان. صوت انفجار هائل، فندّت
عن الحاجة متممة، وشهقة عن الخادم السوداء، وعيناها تلوذان
حولها:

- يا ساتر أين وقعت؟

تمت الداهية، وهي تصلي على النبي:

صاعقة! يا حافظ (وأضافت، وهي تتنفس الصعداء): الصوت

عند طريق البر. الحمد لله. دائماً يجعل الصواعق تسقط في أماكن غير

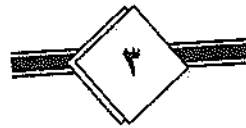
مأهولة بالسكان، وإلا...

وداعبت الحاجة شعر عبد، كأنها تخصّه بالحديث وحده:

في طفولتي سمعت أن صاعقة وقعت على رجل من أهل أبي الخصيب، اختارته من دون الآخرين، وشاع في المدينة أنه عذاب الله تعالى، حلّ بتاجر مراب لا يأبه بحدود الله.

ثم دخلت في صمتها، كما لو أنها تسابق الخارج إلى الهدوء، ولم تدر الداهية، أهي مجرد حكاية، أم حدث وقع أيام زمان، فقد نسيت الكثير، وحفظت الذاكرة القليل. كان عبد يسأل نفسه: أحقاً كلما خطف النسرة فتاة هبت عاصفة تلقيه بعيداً، وصوت الداهية يعقب:

- ثم الآن، ودع الحكايات إلى يوم آخر، فلنا خير حارس، عين ربّ لا تنام.



صباح اليوم التالي إذ كفّ المطر، وانحسرت الرياح، تبين الأهالي أن صاعقة البارحة، نزلت، كما حدثت الداهية، وبعضهم، عند المنعطف الدوار، نهاية طريق البر. ثلاث نخلات احترقت، الأمر الذي

عدّه بعض أهل نهر جاسم بادرة مبهمه لحدوث أمر غامض واضح على أقلّ تقدير، لا سيما وحديث الطريق أصبح جارياً على الشفاه بعد زيارة مدير الناحية للدعيجي. الذكرى رجعت ببعض كبار السن إلى أيام الإنكليز، وتخطيط البساتين في القرية. قالوا إن النخلات الثلاث، هنّ بعمر المستر دوسن، ومن يدري لعلّ هبوط الصاعقة في مكان خالٍ من السكان، وفوق نخلات غرسها إنكليزي ينذر بعلامة ما الشرّ منّ بغير ما خسائر. لعلّه وعسى!

كان عبد يغادر مع رفيقيه إلى الدعيجي. راحوا يخوضون في الطين، يشغلهم الهدوء، وسكون الهواء بعد تلك العاصفة التي ظلت تزجر طوال الليل. الشمس الصافية، كما لو أن السماء تقيأت كلّ ما في جوفها خلال الظلام، خيبة أمل للثلاثة الذين كان من الممكن أن يظلّوا في البيت هذه الساعة، قرب المواقد، ومع هذه الشمس الساطعة في غير موعدها، سابق الثلاثة الوقت قبل أن يجفّ الدرب، وتعود العربة. كانوا يتطلّعون عن بُعد بالنخلات المحترقة، وحسن يقول:

كان قلبي يهبط، ويصعد، وقد ضمنت ركبتي إلى صدري.
- أنا كنت نائماً أشخر لأنني حين أنام لا أستفيق على أيّ شيء.
- لا تكذب أيها الفيل! الصاعقة هزت العالم كله.

- ما هي الصاعقة؟

الفيل يبّالغ ، ويدّعي أنه لم يخف ، وربما غاب عنه الخوف ، ولا أحد يصدّقه ، والصاعقة نار تهبط من السماء ، تحرق الأخضر ، واليابس . هكذا شرحها المعلم . قنبلة ذرية صغيرة مثل التي نزلت على اليابان . بقدر قبضة اليد . إنذار . سوف ينتهي الشر عما قريب . الاسم الأعظم بين أيدينا ، ونحن غافلون عنه ، عندئذ تعهد عبد أن يجلب المفتاح معه ، ووعد حسن بنسخة من القرآن ، في حين خرخشت ، علبة كبريت في جيب الفيل . كاد حسن يوم الاتفاق يخفق في وعده إذ لم يكن بإمكانه أن يستحوذ على نسخة لمفتاح الضريح بيسر ، وسهولة ، مثلما خيل إليه . بحث عن النسخة الأخرى في أكثر من مكان ، ترى أين وضعت الدّاهية المفتاح . كاد يسأل أمه الحاجة لولا أنه خشي من أن يثير فضولها ، فيضع نفسه عرضة لأكثر من سؤال . فتش في غرفة الاستقبال . حجرة أمه الحاجة . قرب سرير الدّاهية . أخيراً تذكر أنه لمح الدّاهية ، ذات يوم ، تصعد إلى دكة الشباك ، فتمدّ يدها إلى سلّة أعلى الخزانة . دقائق ، بين سلع مختلفة تلاًلأ المفتاح بين أنامله ، وارتسمت على شفّته ابتسامة الظفر . كأنما عثر على الدنيا كلها ، ووضعها في جيب سترته الداخلي ، جنب كيس صغير من الملح حضرت له الدّاهية طرداً للعين .

كانوا يختصرون الطريق أثناء عودتهم من المدرسة . مرّوا عبر المفصل الدوّار ، وحالما اجتازوا النخلات المحترقات ، سأل عبد رفيقيه :

- ماذا تنوي أن تفعل بالاسم الأعظم؟

- ماذا تنوي أنت أن تفعل به؟

ردّ الفيل ، أما حسن ، فأجاب بهزة من كتفه :

- أنت ! سوف تستخدم الاسم الأعظم لتجعل الناس يغرقون

بالضحك !

- لا بل أجعلهم يبولون من الضحك !

تلك اللحظة ، التي ربما تعدّ من اللحظات القليلة التي لم تغلب عليها سخريته ، وعبثه المفرط بمدى لا يعرف الحدود. كان هناك ظلام ، وعمّة ترمي أمام عينيه. نقطة تسطع لبصيص شاحب. دخان كثيف. عيناه تحتلسان النظر من فتحة الباب. النسوة يرتلن. يرفلن حول النار. رؤوس تترنح جيئةً وذهاباً ، كأنها انفصلت عن الأجساد. صرخة مكتومة. همهمة أشبه بعواء ذئب يتهادى إلى أذنيه في الليل من مكان بعيد ، ولما تتوقف الأصوات أية لحظة ، والمخلوقات الصامتة الصاخبة تنطق على لسان خلق خفيّ ، يراقبه حذراً ، فيساقطن كالثمار ، واحدة بعد الأخرى. أنشودة تنغني باسم المسعود الأب ، وناصر الابن ، والأم. كل شيء يقتحم عليه عينيه ، هذه اللحظة : الله حي ، في دقائق الجد ، على الطريق إلى الضريح ، يتداعى أمامه مشهد يراه كل شهر : أيها الأولياء. أيها الجن الصالحون ، ومن الصخب ، تنبثق حكاية ، رآها يوم

أمس على الشفاه: الهدهد ثاقب البصر، سفير سليمان بن داود مستعبد الجن، من يملك عظمة منه يصبح ذا شأن، ولا يعزّ عليه مطلب، وهو يهيم في البساتين بحثاً عن هدهد. اذبحه واستلّ عظامه، وقت المدّ ارمها عظمة عظمة، وإذ يقع البصر على عظمة تسبح عكس التيار التقطها، الله حيّ. ثقب الباب. كم مرّة حذرته أمه. كل شهر لها جلسة مع حبيباتها. اذهب بعيداً. العب. رافق أباك في الحقل. ثقب الباب. عينه تحفر الضباب، والدخان، ويحسّ بلمسة من الخلف، فيبهت مذعوراً، وإذا بالكلب، يتشمّمه، فيطمأن قلبه، وتعود عينه ثانية إلى الثقب.

أين هو الهدهد، أو خاتم سليمان؟ وحالما تنتهي الطقوس، والمراسم تؤذن بالختام، ويرفع الحضر، يتسلّل بين الحاضرات. عينه تتابعان شيئاً ما. الضريح. البيت. سرّ النساء، فساعة الجدّ لما تنته بعد. هل هناك من يطل من ثقب الباب عليهم في الضريح. هذه المرأة الضخمة ذات الصوت الرجوليّ تعرف كل شيء. تقدر أن تخاطب الجن والملائكة. تأمر العفاريت أن يهجعوا أو يهبّوا لها. قالت لتحلّ البركة في ناصر المسعود. ثمّة يد تمتد، بغفلة من عيون الحاضرات، وعيني مروّضة الجن التي مسحت على رأسه، وباركته، وتغنت باسمه خلال الضباب، وتتسلّل إلى دفتر أصفر، خشن الأوراق. خشني أن يسرق

الدفتر كله، فيكون عرضة للسؤال، والعقاب، وما زالت علامة الكي
ترتسم على يده بعد أن ضبطته أمه يسرق. اقتنع بأن اقتطع ورقتين
صفراوين دسهما في جيبه، قبل أن يعود من صمته المفاجئ الغريب،
على استفزاز عبد:

- هل أنت خائف؟

- أنا؟ أنا؟

- الصفتة ليسن لك أيها الفيل، بل للحمار!

عقب حسن، وكان الفيل يفاجئهما:

- أنظرا!

- ماذا؟

- من أين لك؟

كاد لسانه يفلت لولا أن تذكر وجعه. غير عقاب السرقة. كادت
أنامل أمه الخشنة، تخلع أذنه عندما ضبطته يتلصص على الزائرات،
وألقت اللوم عليه في تأخر الجن وأرواح الموتى الطيبين، وزادت أذنه
فركاً، وهي تعده بالكي ثانية إن هوفشا السر. ليست وحدها التي
تعاقبه، بل الجن ينقلبون من طيبين إلى أشرار:

- عثرت عليها.

العيون تتابع. ترتسم عليها الدهشة، وقد عجزوا عن أن يفهموا شيئاً من الرموز. مربع. خط كأفعى. طيور غريبة الأشكال، وألسن الصغار تهجى كلمات غريبة: هرموز... طالوت... جردان... فرادور... قال عبد:

- إنها أسماء ملائكة.

- أسماء جن.

- الملائكة لا تحويهم كتب السحر لأنهم من نور.

- لو كنت أستطيع قراءة المربع لاستطعت أن أفعل كل شيء.

وخطف عبد الورقتين من يد الفيل، مطوحاً بهما في الهواء،

فترنجتا مع النسيم البارد، ثم انقلبتا في الطين، لتدوسهما الأقدام،

وهو يؤكد:

- سندخل ضريح وليّ من أولياء الله الصالحين.

وما أن اجتازوا عتبة الباب، حتى وقعت أبصارهم على قطع

النقود، متناثرة خلف المصراع، فصفر حسن مندهشاً:

- ما أكثرها!

- كل هذه لجدك؟

- ليست كلها من النذور. أمي الحاجة والداهية أيضاً.

واندفع الفيل ، ولعلّه شك بشيء ما ، أو مجرد التحذير :
- حسن ! لا تلتقط أيّ فلس . إذا ما أردنا أن نأخذ شيئاً يجب أن
نسأل عبد أولاً .

فهتف حسن :

- أنا لست لصاً . انظر يدك ، وعلامة الكي .

- لم أقل شيئاً . عبد ابن الوليّ ، ويحق له أن يعطي من يشاء .

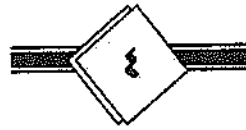
خفق قلبه لسماع الإطراء . هو الوحيد صاحب الحق في التصرف
بمال الوليّ . إنه جدّه مثلما هو أبو الداهية . التقط ثلاثة دراهم ، دسّ
أحدها في جيبه ، وناولهما آخريّن . كانت العتمة لما تنزل تعمّ المكان
سوى ضوء شاحب يعبر من فتحة أعلى الباب ، وعلى الرغم من
العتمة ، والهدوء ، فلم يشعر الثلاثة بالخوف أو يعترّيهم هاجس ما ،
فلم تكن القبور لتخيفهم ، وكثيراً ما كان جبل عريزة ملعباً لهم وقت
النهار ، أما في الليل ، فيصبح مأوى للجن ، والسحرة ، وسوف يكون
بإمكانهم ، ربما بعد دقائق ، أن يقتحموا عالم الإنس والجن ، فلا يقدر
عليهم أي مخلوق .

- هل نبدأ ؟

- هيا .

خط الفيل نحو الدكة ، حيث الشمعة ، فأشعل عود ثقاب ، فعمّ

ضوء شاحب المكان كله ، وكانت وجوه الصغار الثلاثة تفيض بالفرحة
والبشر، وبعض الخوف أيضاً.



كانت تدرك تماماً أية امرأة تقصد، وأي رجل تلوذ به، لتنزل عن
بعض كبرياتها، فتتملق. ليكن ما يكون، فهي في هذه اللحظة تقطع
عهداً غير مألوف، فكم ثارت إشاعات وأقاويل مع كل مرحلة، ومع
أي انقلاب جديد، أو إذا قلنا الصدق من غير التواء، تأتي الإشاعات
من حيث لا يدري أحد أو من دون مناسبة، لكن الذي أثار الداهية،
وجعلها تهتم للأمر، هو أن الحكومة، بدت هذه المرة، جادة في الأمر،
والألمة تحدّث المعلمون في المدارس، ولهج بذكر الدرب المزعوم
القاصي والداني، وبعض النظر عن أسوأ الاحتمالات، فلا يهمها أي
شيء سوى الضريح. ليذهب جزء من الأرض أو المكبس. كل شيء
يهون، وصدق من قال زمان دوار لا يستقر على حال. كنا إذا هبّت
الهواجس، وكادت تقع أزمة ما بين الأهالي والناحية، نلوذ بالحاج
عباس أو الباشا، والآن، اختلط الحابل بالنابل. تقول لها الحاجة رقية
التي خرجت تواء من رحلة جديدة، وحكاية غريبة، تقصّها على

الصغير، قبل أن ينام:

- بيت أبي مصعب بيدهم كل شيء.

- أهكذا رأيك؟

- بيتنا الوحيد الذي لم يُسئ إليهم أيام الزعيم، لا بل لاذوا بنا

خوفاً من الناس.

وقالت الداهية بحسرة:

- سأفهم منهم أين يمرّ الطريق ليرتاح بالي.

وهناك تأكيد من ملكة الليل:

- ليكن نوعاً من ردّ الجميل.

كان الطريق يذهب بها بعيداً حاملاً نذراً جديدة. أسوأ الاحتمالات.
وكل خطوة تحكي دهنراً يرتسم بحلوه ومرّه على الشفاه. هذا الذي تلقّه
بذهنها، وتكسوه، بعينها إلى بيت أبي مصعب، ما هو إلا سحابة
طويلة أو سجادة مزركشة تبدأ - وفق ما يقول المعلم - من ألمانيا إلى
العشّار، وعند شط العرب، ينقطع التواصل، فيبدأ بعدئذٍ من عبادان
إلى الهند، نحن الحلقة المفرغة، يا داهية. شاءت المصادفات كما يرى
الشيوعيون، أو الله حسب رأي الملاّ في الجامع، أن نكون نحن تلك
الحلقة. وسط العالم. العقدة. التوازن. أي شيء، مثلما أكون أنا، ابن
الروّاس، كاتباً في المكبس، بمناسبة أو غير ذلك، تجرّني زوجتي

أم الروّاس إلى نقاش لاطائل من ورائه، تسندها ملكة الليل، فيخلطان السياسة بالبطاطا، مع المعجون، والفجل، ولا يغفلان الباذنجان، وتسيبه بالحال العصبية لمن يأكله، وفق هذا المنظور، تحدث الثورات، والانقلابات، وقت الصيف في العراق، أي عسكري مغامر يستطيع في أي شهر حار أن يأكل وجبة باذنجان، بالطبع تفضّل أن تكون مشوية، ثم يدخل الإذاعة ويعمل انقلاباً، بيان رقم واحد، ثم تأتي التفاصيل الأخرى، فيفكر كغيره في الطريق أو بالأحرى نفكر نحن فيه وبالطريق، والمشكلة أن الباذنجان عندنا برخص التراب، ولو كان الأمر بيدي لجعلت سعره يعادل الذهب، أو صدّرناه إلى مصر واستوردنا من هناك الباذنجان الأبيض الذي لم نره بل سمعنا عنه من أم مصعب التي تدّعي أن زوجها أكله في القاهرة، فلعلّ عدوى الانقلابات تنتقل منا إليهم..

على أية حال، ما دام الطريق المزعوم مرتبطاً في بغداد، فكلتا المرأتين: أم الروّاس وملكة الليل على حق، أقول يا داهية، اذهبي إلى أم مصعب. جسّي النبض. كل الناس يعرفون أن لك في عنقها ديناً. لوحي بالرشوة، فإذا ما عجزنا عن ذلك حركت الناحية كلها بمالك. والله، يا داهية تستطيعين أن تجعلي طريق نهر جاسم ملتويّاً يمرّ عبر أيّ مكان تشائين، مثلما فعل الأغنياء بطريق أبي الخصيب. النقود يا داهية بإمكانها أن تجعل العالم أضحوكة، نكتة.. خراباً.. أي شيء.. قدر

نهر جاسم أن الله خلقها وسط العالم هكذا جاءت ، فلا بد أن تتصل
الحلقة المفرغة إن لم يكن اليوم فغداً ، المهم ألا يكون الأمر على
حساب الموتى ، يا ملكة الليل ، ويا حاجة يا ابن الرواس .. اسمعوا
جيداً ، زمن الإنكليز ، والزعيم ، تدخلنا في السياسة. الداهية نفسها
حيرت الإنكليز. المستر دوسن بالذات. الآن تعبنا. لا يهمنا من ذهب أو
أتى ، ولا تفسير عند ابنة الولي لزيارة رئيس الوزراء إلى إيران ، وهدوء
الأحوال على الحدود إلا الذي لأبد منه : درب يمتد من ألمانيا إلى الهند
والصين. إذن هي النبوءة من زمن حمدة. قبل الطوفان الكبير ، وموت
الولي. سكنت الدنيا. توقفت الأشجار. الطيور. مشهد لن تنساه
الذاكرة..

ثم فجأة تغيرت الأحوال ، ونعب الهواء ، ورحم الله الزعيم الذي
غضّ النظر عن الطريق المزعوم إن لم يكن في الأمر شيء ما ، وأي سرّ
هو تحمله في أحشائها غوامض الأيام أولم تسمع ، والفرحة تشيع على
الوجوه إن الدرب إذا ما أندلعت حرب سيكون لمصلحة إيران. كل
شيء يظل على حاله ، وأول بوادر الشر ذلك الدود الأسود ، ونحن
نعيش فرحاً ما بعده فرح. نهر جاسم حلمت بالرحيل إلى بغداد ، ومن
دون مقدمات ، أطلت عليها العاصمة. كل بيت ابتاع مديعاً ، وتابع
أخبار العالم. كأننا خلقنا من جديد. اكتشفنا العالم. الزعيم. التهافت.

الجيش انتشر على الحدود، والداهية في المكبس، تعيش مع الناس
فرحتهم. يشير إليها أحد العمّال، وهو يقلب الجريدة:
- انظري، يا داهية، يا أم عبد، هذه هي صورة الرئيس الأمريكي
كنيدي.

- ما اسمه؟

- كنيدي.

- على اسم كندا.

المراقب يطلق نكتة:

- نحن عندنا كندا، وهم عندهم كنيدي.

- إنه ناعم، له سمات النساء، أما زعيمنا ما شاء الله. أسد.

- ليجربوا إن كان في نيتهم الحرب.

- نحن أقوى حتى لو تحالفوا مع الشاه.

- وهل تترك الصين العراق وحدها!

- دعك من الصين، العراق وحده يكفي.

وحين تقترب النبوءة من نهايتها، يظهر شيء غريب في الأنهار

يلدغ الناس.. علامة. إنذار ما. هل حلت نهاية العالم، والناس ما زالوا

في قمة الفرح. حلف بغداد. أمريكا. تركيا. إيران. الصين. روسيا. العراق.

حتى الحاجة الكبيرة خرجت من عزلتها بضعة شهور. أنصت إلى
المدياغ، ومحاكم المهداوي. والأحداث الجديدة، وتساءلت كغيرها:
- من أين جاء هذا البلاء الأسود؟

كانت قد رآته عند الشريعة، عندما راقبت الخادمة في أثناء غسل
الصّحون، سمك صغير أسود، أملس، كالجرّي، شوكتان فوق
الرأس، ثمّ ازداد يقينها، وتحققت من شكله، ساعة اصطاد عبد
واحدة بالشصّ:

- يا ساتر. إنه ينقر الطعم كأنهم. شره. ما أقبحه!

كآية ظاهرة جديدة تتطلب تفسيراً، اختلفت الآراء، وتباينت
التعليقات، إلا أنّ المراقب أكد أنّ الدود انتقل إلى الأنهار والسواقي من
إيران. لديهم خزّان كبير انكسر فجأة، ومن حسن الحظّ لم يحدث
فيضان. لو فتحت إيران سدودها لحدث فيضان مثل الأربعينات، إيران
لن تتركنا بسلام. حلف بغداد. انتظروا الجديد، اليوم الدود الأسود،
والله أعلم ماذا في الغد. لكن الرّوأس يستدرك فيذكر أنّ الشاه جلبه من
أوروبا ليقضي على البعوض في مستنقعات عبادان، والأهواز، فتسلل
إلينا، وفي نهاية المطاف عض على شفّته، وهو يتخيل حدة الألم:

- الله ما أشد لدغته. كالعقرب، والعياذ بالله.

عبارته تفتح الباب أمام الداهية، لتحذر عبد:

- اسمع. لا تنزل إلى النهر. لدغته لا ينفع معها إلا الكي.

ليس هناك من دواء شاف غير الوقت. الزمن وحده. كم لعناه. ولولاه لهلكنا كمدأ. الغريب معه يصبح مألوفاً، والجديد قديماً، حتى أنت يا داهية، سمحت لعبد أن ينزل إلى النهر. أصبحنا نألف السمك الغريب وأطلقنا عليه الدود الأسود. القرية جميعها، ما عدا أم مصعب زوجة عبدالعليم المعروف بكرهه للزعيم، وانتمائه القومي والذي لم يسلم من سخرية المراقب. كان يسميه رجل عبدالناصر في نهر جاسم. زمنٌ دوّار، وما أصعب أن تنزل الداهية من عليائها ومقامها الرفيع، فتقصد ذات الفرج المشوه. الله جلت قدرته، أحرقتها بالدنيا قبل الآخرة، في مكان يستقبح النطق به. يمهل ولا يهمل. كانت تفرّ قبل أن تحترق، من الدود الأسود، إلى الداهية خوفاً من أن تمتد موجة السّحل والعنف نحو نهر جاسم، فللولي مقامه، وللداهية منزلتها، وفي لحظة واحدة، كانطباق جفنين على أضغاث أحلام، تبرز السّنوات بكلّ عنفوانها، وجبروتها، فتصبح أم مصعب عبرة للناس في أوج فرحتها، ولو سئلت الداهية، في ميزان الحقّ، لقاتل إنها لم تسمع أيّ شيء لا هي أو الحاجة، ولا ملكة الليل. مع ذلك، فنساء القرية يقلن إنها زغردت صباح ١٤ رمضان حالما سمعت بيان الانقلابيين. تلك العاهر بنت الشارع استطاعت، بسحرها، ومكرها، ووقاحتها في الفراش

حيث لا تجرؤ امرأة أن تفعله لرجلها ما تفعله هي، وكان للنساء القدرة على الوصف وكأنهنّ معها، بتلك الصورة استطاعت أن تكسب ودّ عبدالعليم. تقسم زوجة ابن المسعود، وأمّ الروّاس، وأخريات يؤكّدن، أنّها من العواهر التّائبات. واحدة من هؤلاء تعلّق بها عبدالعليم أثناء إحدى نزواته في المبغى، أشبعت رغبته فيما حرّم الله، فشرطت عليه أن يعتزل أولاده، وزوجته، فابتاع لها أرضاً في نهر جاسم، واعتزل أسرته، وأولاده، في أبي الخصيب، لا يطلّ عليهم إلا لماماً، لكنّ شارة الزّعيم، وانتقام الله، بانّت خلال الأسبوع الأوّل، فأصبحت عبرة لغيرها. دخلت المرحاض، وكان الله ضرب على قلبها، فنسيت إذ عبّأت الإبريق بدل الماء من برميل البنزين، وعلى حرارة الفانوس التهب فرجها.

يا داهية.. شرّ البليّة ما يضحك، فكلّ خطوة بذكرى، وكلّ ذكرى بدهر. يا يوم الانقلاب، يوم الأفعى، وعلى الرّغم من كون الدّنيا شتاء، فالشّفاء كادت تتشقق من العطش. تقول أمّ الروّاس: الدّنيا رمضان، والذهاب إلى المشفى مرهق، مع ذلك فهي قادرة على أن تتحمّل العطش وتقصد باب الزّبير. ماذا يمكن أن نقول لها؟ أيّ مريض يمكن أن تسأله كيف أصبحت، تقدر أن تستوضح عن مرضه... الكلى... المثانة... الأمعاء... أمّا هذه، فهل يمكن أن نسألها عن فرجها؟!!

والحق أنّها لو أصيبت بمرض - أيّ مرض - لما عادتها آية من نسوة نهر جاسم. زيارة للشّماتة باستثناء الدّاهية التي انتظرت، فعادتها في منزلها. زيارة مجاملات لا أكثر. أداء واجب فقط. في بيت أمّ مصعب وجهاً لوجه مع عبدالناصر، وعبدالسلام. هناك إلى اليسار شخص لا تعرفه، وجه طويل، وأنف مثل منقار الغراب:

- الحمد لله على سلامتكم يا أمّ مصعب.

قالت، وعيناها تتحوّلان عن الصّور التي يبدو أنّها حديثة العهد على الحائط.

- الحمد لله. الله ستر (وأضافت، ولما تزل تترنّح في مشيتها) أبو مصعب قال لي لا تقفي جنب مدفأة النّفط، وأنت بالملابس النّايلون. الخطأ خطئي، والحمد لله كانت شدة الحرق عند السرة.

- الحمد لله. وبالسلامة.

- لا عيب في المرض يا بنت الولي لكنّها الشّماتة!!

- ومن هو العاقل الذي يشمت بمرض؟

باحة البيت، وصوت المذيع. نشيد الله أكبر. الله فوق المعتدي.

- هذا أخوك أبو مصعب، حين يكون في البيت يتابع، هذه الأيام،

الأخبار أولاً بأول.

- الله يعطيه العافية (تعود عيناها للصورة الغريبة) من الشخص

الثالث يا أمّ مصعب؟ إنه صغير السنّ. هل هو من أقاربكم؟

- يا داهية هذا المجاهد الجزائري أحمد بن بلا.

المذيع يتحوّل إلى أغنية عاطفيّة. أغنية قديمة. تنقطع الذكري،
فجأة، ويعود النشيد، مرّة أخرى. الدّم أم الدود الأسود. ألفتاه. أصبح
منظره لا يثير الخوف والقرف، كلّ الأحوال تتقابل وجهاً لوجه،
والحلقة المفرغة التي تدور بنا هي الدّم. نبحت عنه دون أن ندري، أو
نعرف في أغلب الأحوال. طريق موعود.. القتال من بيت إلى بيت ومن
حارة إلى حارة في بغداد. إذاعتا لندن وواشنطن. العائلة المالكة أهدمت.
والوليّ يأمر عبد: ألق سلاحك. اعدم. اسحل. اعدم. شاحنات على
طريق البرّ معبأة بالسياسيين الذين سلّمهم الشاه إلى العراق. حتّى نهر
جاسم الصغيرة نصبت المشانق، وهتفت، وأنت يا أمّ مصعب تفرّين
إلى الداهية مرعوبة:

- أنت وزوجك وابنتك يا أمّ مصعب أمانة في عنقي إن تطوّرت
الأمور وخشيتم، فتعالوا اسكنوا معنا، وسوف يعلم كلّ الناس أنّكم
في ضيافتي.

كلام يريح القلب من زوجة رجل محسوب على العهد الملكي،
ولو امتدّ به العمر لربّما وقف متّهماً في محكمة المهداويّ

- أصيلة يا بنت الولي لكن من ضمن ، ألا يتسلل أيّ منهم

منتصف الليل ، فيذبحنا؟

من حسناتك يا داهية أنك لا تفسين أسرار آية من محدّثاتك.

الصورة الحيّة للولي الذي يسمع كلّ شيء ، ولا ينطق ، قلب الداهية

يستوعب الحقّ ، والباطل :

- نحن يا أمّ مصعب أهل يجمعنا الخبز والملح . لا الروّاس ، ولا ابن

المسعود ، أو آل العمران ، فضلاً عن الآخرين يجرؤون على إيذاء أحد

منكم . نحن أهل .

- أينما ذهبنا أتعرض للتحرشات . أسمع كلامهن الجارح ، فألزم

الصمت . تهديد ، ووعيد بالذبح ، والسّلخ . ورمي بالفسق والفجور .

- مجرد كلام . كلام فارغ لا يقدر ولا يؤخر . اسمعي جيداً . هؤلاء

التثرارات لا يذبحن فرخ دجاج ، ولا تواتيهن الجرأة على أن يرين قطرة

دم .

تأفقت ، بوجه محتقن عاد إليه الهدوء نوعاً ما :

- أتقبلين ، يا ابنة الولي أن يسمي العمران كلبه (مصعب) ، وبيت

النّعمة كلبتهم (جميلة) .

كانت الداهية تقاطع . لولا الحياء والرّزانة المعهودان عنها ،

لأتّسعت ابتسامتها ، ولولا الحزم والرفض القاطع ، لكان يمكن أن

تطلق ملكة الليل على القطط والكلاب أسماء رجال السياسة ممن
تكرههم :

- ما لهؤلاء الأمّيات والسياسة! ما لهن وعبد لناصر، وعبد السلام
أو ملكة بريطانيا، هل يعرفن القومية والشيوعية؟ الله وكيلك كل هذا
كلام فارغ.

- عقلك يا أمّ عبد، يا داهية، يزن جبلاً، وفهمك حار فيه
الغريب، والقريب.

- وأنا أقول لك: إنّ هؤلاء طويلات اللسان كثيرات الكلام،
سلاحهنّ الكلام وحده، لكن حين يجدّ الجدّ، فالأصول تقول لا.
ومرّت فترة صمت، كادت تطول:

- كان المرحوم زوجك، يا أمّ عبد، خيرة الرجال، وسيّد شطّ
العرب، أكثر من مائة ألف خلفه. كل أهالي شطّ العرب، لكنّها إرادة
الله دعته إليه قبل أن يرى هذه المهازل.
- طوبى للموتى فمن مات استراح.

- من يدري. إنّها حكمة يجهل العبد سرّها (وحين بان الانسراح
على وجهها تماماً، تابعت) الملوك لهم احترامهم، يا ابنة الوليّ، والملك
ابن عمّك ينتمي للشجرة الطاهرة، في مصر لم يقتل عبدالناصر الملك
فاروق، بل وضعه في باخرة وودّعه إلى حيث أرض الله الواسعة،

وكان الأحرى بهؤلاء ألا يقتلوا الملك وعائلته ، ويتركوهم ليسيروا في أرض الله الواسعة.

ليس كل ما تقولينه يا أم مصعب باطلاً. الغالي قتل لأنه انفرد ذات يوم في البستان ، بين النخيل ، مع حبيبة القلب. الملكة الحاضرة الغائبة كانت في يوم ما تهيم بالأحلام ، ملكة النخل ، والفراش ، والزهور ، تجول أينما شاءت ، تجول ، وتلعب ، أينما رغبت. تتمايل كبطّة على قنطرة الحوريّة ، إلى أن تحقق المكتوب. كانت مثل حمدة صاحبة الجمل البربري ، غائبة حاضرة ، لبست لكلّ حال لبوسها. تحفّت. تسللت. تبحت خلفها كلاب البساتين الغربية ، وعرفتها من رائحتها على الرّغم من تغيير اسمها الذي أدركته الحاجة الكبيرة وحدها ولا أكثر من لمسة يد بعد أن قطعت المسافات الطويلة والتقت ، أو قبله على الجبين. حينذاك تجلّت المشاهد الغامضة الواضحة لعينيها... الأمس.. اليوم.. بعد لحظات قبل دقائق وبانتظار أعوام أخرى.. حمامة فرّت لصوت طلقة. دم تدفق مثلما رأيته من قبل ، وأراه الآن شاخصاً أمامي ، بألف شكل ، وصورة. هكذا تنقلب الحال فجأة ، فتلبس الفتيات لباس الرجال. ينمن في الخنادق. يظفن بالشوارع. أخبار تنذر كلّ يوم بسوء. جراح. دم. ما ذنب الملك وقد حمل القرآن على رأسه ، فأمطر بالرصاص. مثلما بدت الأمور غريبة للداهية الطفلة ، بدا كلّ شيء مألوفاً ، وغريباً في الآن نفسه. دم. صوت الولي : ألق سلاحك. احمل أختك ، ومن الغريب

المألوف أن تحبّ القتيل ، والقاتل : الأخت والزّوج. الملك ، والزّعيم.
أمّ مصعب على حق... كيف نحب القاتل والقتيل؟ الملك الطفل حمل
القرآن على رأسه ، فأحبيناه هو وقاتله ! والدّاهية أحبّت عبد ، والباشا
والحاجة كلّ ذلك ، والوليّ صامت لا يتكلّم. لأنّه ساوى بين القاتل
والمقتول وقال ذات يوم أحبّوا بعضكم بعضاً؟ والغريب في هذه الرقعة
الصغيرة الكبيرة ، وفي اللحظة التي كسر خنجره تهافتت كالمطر..
كالغبار.. آلاف الخناجر والسيوف تحزّ الرقاب.

إيه أيها الغالي.. كانت ابتك قبل أن تهبّ بغداد ، تجلس في باحة
الدار ، جنب المذيع الكبير ، هي والحاجة ، وربّما معها الخادمة ، وآية
ضيقة أخرى. أمّ مصعب قبل انفجار العدا ، واختلاف الأهواء. أين
نحن من أيام زمان. الله أكبر... الله فوق المعتدي. المذيع كلّ يوم جمعة.
وقت الضحى. والعصر. وقت نضج التّسيم ، وسكرة الطير ، والماء
يلعلع بالصوت الشّجيّ ، ولشدّة ما ذرفت الدّموع ، أنا وضيفاتي ، وقد
تكون أمّ مصعب معهنّ ، كأنّ تحت الأنغام الشّجية بركاناً. عنفاً.
ضجيجاً. ما زالت الدّاهية على العهد تحتفظ بصحون الشّاي المزينة
بصورة الملك ، أمّا صورة الزّعيم ، فقد أنزلتها ، وركنتها في مكان ما
على أمل أن تتحقّق الظّنون ، وتصدق الإشاعة ، فيرجع صاحب
الصّورة في يوم ما ، فنحن في كلّ شهر نتطّلع إلى زيارة البائع الجوّال ،
وهو يرينا صنوفاً جديدة من بضاعته ، ويهمس لمن يثق به :

- إنها من معمل الزعيم الذي افتتحه الشهر الماضي في عبادان.

مهما يكن ، فقد قطعت زيارتها لأم مصعب الشك باليقين ،
وأشاعت في النفس طمأنينة مفقودة منذ زمان. فكم من امرأة زارت قبل
الداهية ، أم مصعب ، تستطلع الأخبار. نسين الماضي ، وطول اللسان.
التحرش. الاستفزاز. التهديد. القتل. السحل. في الظاهر تجاوزت أم
مصعب عن كل ما حدث. استقبلت كل زائرة ببشاشة ، وترحاب ، ولم
تبال أن تقسم أنها لا تعرف أي شيء عن الطريق ، أي أرض يقطع ،
وبأي بستان يعبر. عهود الرشوة ، والفساد انتهت ، لا رشوة ، ولا جاه
في عهد الرئيس المؤمن ، وأبو مصعب ، رغم مساوئه ، فهو رجل
صادق ، لم يسع إلى ضرر أي إنسان ، كلما ارتقى في وظيفة ومنتصب
ازداد تواضعاً ، حتى كادت الداهية تظنه يتصنع التواضع. عضو
معروف في الاتحاد الاشتراكي. رافق عبدالسلام في إحدى الزيارات إلى
القاهرة ، هذا الرجل يقسم لها برأس عيد الناصر أن الطريق لن يمر فوق
الضريح ، ثم لم نخاف ؟ أمن أجل بضعة أمتار ستعوّضنا الحكومة عنها.
العالم كله يتطور إلا نحن. الدنيا تسير إلى الإمام ، فلم نراوح نحن في
مكاننا؟ وتقيم الدنيا من أجل شيء فيه مصلحة للجميع..

تريد الحكومة لبرلين وأوروبا أن ترانا ، وأن نرى الدنيا إلى الصين.
نهر جاسم مثل الغرفة المغلقة بحاجة إلى شبّاك ، رثة مع الدرب تدخل

الكهرباء البيوت. تليفزيونات. ثلاجات. هذه أدوات يا أمّ عبد يا داهية لم تعد كمالية. تصوّري السيّارة كانت غير ضرورية، فهل نستطيع أن نستغني عنها اليوم؟ مكواة الملابس. الثلاجة. ما ذنبنا نشترى قالب الثلج من الدّعيجي، وبالكاد يكفيننا بضع ساعات من النهار. أوكد لك يا ربحانة الولي أنّ كلّ الأمور تجري إلى خير، فغداً تستريح نهر جاسم في مكانها والعالم كلّه يأتي إليها.

ذلك الكلام الحلو الجميل، لا أعذب منه إلا القول في أنّ الضريح سوف يظلّ مكانه، إذن من يزفّ الخبر لأبيها الولي، هي بالذات من يكلمه بعد قليل، وهتف بها هاجس، بعد أن غادرت بيت أمّ مصعب مباشرة: يا داهية الموتى الصالحون يعرفون البشارة، لكن يلذّ لهم أن يسمعوها من أفواه الأحياء، لتعمر صدورنا بالمسك والعنبر وتمتلي بذكر الله. كانت تميل نحو المنعطف، باتجاه المفرق، وحالما عبرت النهر الأعمى، تبينت شيئاً ما، تعجّلت في خطاها، وإذا أصبح الطريق في متناول نظرها، تأكّدت من شكوكها. في عزّ النهار. ماذا يجري؟

لم يكن الباب مغلقاً. حركة ما. شيء يلفت النظر. من يجرؤ على فتح الباب، والتسلّل؟ إنها في كل يوم تجد النّذور، والنقود مرمية خلف الباب. مكان آمن. وحرّم مصان. شطّ العرب كلّها قالت كلمتها بحقّ غراب. طير لا يعقل، ولا يفهم، لحظة ترك البساتين، والخيرات

كلّها، وخطّ على سنبلة نبتت مصادفة جنب الضّريح. يبس في الحال.
عاقبه الله.. فمن أين يأتي اللصوص؟ وصلت تلهث كلبوة مهتاجة، ثمّ
دفعت مصراع الباب، ويدها ترتعش.

- من هناك؟

الغضب في لحظة واحدة يتلاشى. الهياج. انبهار. ضوء الخارج يغزو
الضّريح. معالم القبر والدّكة. عشرات القطع المتناثرة على الأرض.
تطفو المفاجأة وحدها، والدّهشة:

عبد. حسن. كاظم. الشمعة. القرآن. علبة الكبريت. الثلاثة
يواجهون الدّاهية، غير أنّ حسن تدارك الموقف. اندفع من دون أن
يتلجلج:

- اتفقنا يا خالة أن نقرأ الفاتحة، ونؤدّي نذرنا للولي.

الموقف يجبر الفيل على أن يتصنّع الجذّ:

- لماذا ينذر الكبار وحدهم أمّا الصغار فلا.

الغضب. الهياج. انقلبا إلى أكثر من علامة استفهام:

- وماذا نذرتم؟

عبد مندفعاً تشجعه جرأة حسن، والفيل:

- نطلب النّجاح، والدّعاء، عند جدّي، والنّذر طعام عاشوراء.

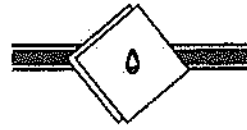
في هذه اللحظة، تجاهلت حسناً، والفيل، والتفتت إلى ابنها
مؤتبة:

- لا اعتراض على دخول القبر، بل حيازة المفتاح بغير علمي.
- الجوّ الرائق أعاد للفيل الطمأنينة، فعاد إلى المزاح هذه المرّة:
- لم لا نقوم نحن الصغار بقراءة الفاتحة، وأداء النذور؟
- يمكن. لكن عندما تكبر، فتتعلم ألا تبول، وأنت واقف.
- عبد وحسن بيولان، وهما واقفان (ثمّ بضحكة) يستطيع كلّ منّا أن يرسم على الأرض ببولته شكل حصان أو شجرة!
- وهي تنظر إليهم بصرامة هادئة:
- أهذا كلّ ما تعلّمتموه في المدرسة؟ (محدّرة) عليكم أن تكونوا نظيفين حين تلمسون القرآن، وتزورون مقامات الأولياء.
- لزم عبد الصّمت.
- ألا تمنعينا؟
- شرط أن تكونوا نظيفين.
- علّق الفيل:
- المكان للجميع مجّاناً!

وانتهت إلى أنّ الوقت يكاد يتأخّر، ولعلّ أهل حسن، والفيل

يقلقون عليهما، فهتفت تحت الثلاثة :

- كفى كلاماً فارغاً، هياً معي !



كانت هي المرة الأولى التي يكذب فيها عبد على الداهية، قبل،
كان هناك كذب أبيض يندرج ضمن المشاكسات التي يشفع له فيها
توسط الحاجة. لا يدري لم فعل ذلك. الخوف. المفاجأة. ولعلها إشارة
تحذير. كان ذلك كافياً إلى الحد الذي جعل عبد وحسن يتوقفان عن أية
محاولة فيما بعد، أما ذهن الفيل، فقد انصرف هذه المرة إلى كبد الوز،
وفق هذا التصور يظل بستان أم عبدالرحيم هدفاً وقت الظهيرة حتى
تهجع الطيور على الجرف. الأسرة الوحيدة التي تربي الوز مع سرب
الدجاج، والخضيري، ولم يكن من الصعب على الفيل أن يجلب معي
خروف مما يلقيه إلى النفايات محلّ الجزارة في الدعيجي. شيء ما يحقق
الأمل. الحظّ السعيد يستيقظ بعد سبات ونسيان، فيستأثر به وحده.
رفيقاه خافا. جينا. أمه تقول عنه في محافل تجمعها بالنساء: إنه عندما
كان يجبو قبض على صوص، ومزقه بليطة. كان ذلك قبل أن يذبح
الحسين. وجه كوجه الكلب. شعر مثل شعر الخنزير. أبرص أعور يحزّ

الرؤوس. الشمر فقط يقدر على أن يقتحم الظلام المليء بالأرواح
الغريبة في الوقت الذي ترتجف فيه القلوب هلعاً. كلّ الجنّ، والأشباح،
اعتادت على سماع اسمه، من جلسات أمّه الشهرية. الفيل وحده ملك
الغاب الذي يغلب الأسد. ابن الداهية ذبح دجاجة، وهو بعمر سبع
سنين، فأين هو أو الآخر حسن منه؟ طيب أعرض عليكما فكرة!

- من يستطيع أن يمشي في الظلام وسط البستان، أو لا.. أقول لكما

جبل عريضة. أيّ بستان كان، بستاننا نحن بستان الباشا!

- يمكن يمكن، لكن (يحكّ رأسه)، ويؤيد حسن بعد تلجلج:

- ولماذا نخرج؟ ما الداعي؟

- أنا متأكد من أنك ستبول على نفسك من الخوف!

- لم أفعلها في الفراش، وأنا صغير، فكيف أفعلها الآن؟!

سيتولّى الأمر وحده. لا خير فيهما. وهو متأكد من أن الخوف
يعيقهما. ظهراً. وبينما الأهالي هاجعون في منازلهم، خرج إلى المكان
المقصود. الهدوء والصمت، ورجلاه تلتهمان الدروب بين النخيل إلى
حيث أجمة الحلفاء. يده تقبض على الكيس المليء بالمصران. ظلّ
يتربص بين الأجمة والجرف. وعلى مرمى من بصره يمتدّ المشهد
العريض لبستان آل عبدالرحيم. شجرة التوت الضخمة يمكن أن تغطي
عليه. السواقى يستطيع أن يتدرّج إلى إحداها. نهاية البستان من جانب

النهر الأعمى يكثر الشوك والعاقول، فيعيقانه. كل ذلك لا يعنيه بقدر ما يعرف حركات الكلب الذي غالباً ما يضطجع بالقرب من البط تحت ظل نخلة. تلك العقبة الوحيدة التي تعيقه. وإذا ما بقي الوضع على حاله، فإن الوصول إلى حافة النهر يكون أشبه بالمحال. عيناه لا تغريان عنه. المهم كيف يلتفت إلى الساقية الضيقة. الوقت يجري، وبعد ساعتين يخرج أهل البيت إلى أعمالهم، فيملؤون البستان. فكرة ما توقدت في ذهنه، حين رأى الكلب يرفع رأسه، ويفتح شذقيه متثائباً، ثم ينهض، ويتمطى. يغادر مكانه إلى المنزل. الفرصة خانت. نشوة، التفأ معها متخفياً بالخلفاء إلى الجرف، وانساب كمن يدب على أربع ملتصقاً بالساقية. الليل وصل إلى ركبته، وقرصته برودة الماء. التفت رافعاً رأسه بحذر نحو الباب، ومدّ يده داخل الكيس. أخرج المصران الملفوف، وراح يزحف على ركبته. يكاد يكون على بعد خطوات من هدفه. أنفاسه تتلاحق. لحظات.. رمى المصران، متحاشياً أن لا يحدث أية ضجة تفضحه. كان ذكر الأوز يرفع رأسه، ويتأمل المصران، فتصدر عنه نفخات كالأفاعي، ثم يتهادى كالمفتخر، ويميل برأسه، ليهوي بمنقاره، فيبتلع طرف المصران القريب منه. يده ترتجفي، وعيناه تجومان نحو العتبة حيث الكلب الذي شغل في تلك اللحظة بقرص خبز. الذكر يبتلع، وهو يرخي، ويرخي. دقائق ثقيلة إلى أن توتر الطرف الآخر من المعى، عندئذ بدأ يسحب، يسحب، ونظراته تجول في

المكان: عيناه لا ترتفعان عن الكلب. لحظات قليلة تفصله عن أمنيته.
أيام قليلة، ويصبح السعد بين يديه. كمن عثر على خاتم سليمان.
النقود تسيل في جيوبه. أسئلة الامتحان يعرف سرّها، المال، النقود.
الذهب. عندئذٍ يصبح أهمّ رجل في العالم. كلّ شيء يقدر عليه. إنه
يملك مفتاح السرّ. يشدّ على المصران، وهو اجسه تتوزّع بين الحلم،
والكلب، وحشرة الطير الذي ابتلع ثلاثة أمتار من معي الخروف.
كان يسحب، والذكر ينسلّ معه، ولمجرد أن انساب إلى الجرف، قبض
على عنقه، وعبر من الساقية إلى الضفة، ثمّ توّارى في أعماق البردي
الكثيف، ويده تقبض على الغنيمة، وقد أنسته المفاجأة أيّ ألم في
ذراعه، أو آية خدوش سببتها الأشواك، والأحجار في ساقيه، وركبتيه.
كأنه كان يقبض على العالم كلّه...

الدنيا كلها...

ملك يديه...

في غضون ذلك تأكّد من أنه وصل إلى برّ الامان، فالتقط أنفاسه،
وانهمك في عمله. أخرج سكيناً، وبدأ يعالج الأحشاء. رمى الكبد،
والسكّين داخل الجراب، بينما ترك الجثة في مكانها، وقفل راجعاً.
عندما وصل. واستقرّت قدماه على مامن من كلّ شبهة أدرك أنّ ذكر
الأوز لم يكن صيداً سهلاً. فقد ترك خدوشاً على ساعده، في الوقت

نفسه ، اكتشف قدرته على القيام بأعمال كبيرة يعجز عنها من هم في سنه فضلاً عن الكبار. كل شيء بأوانه ، وساعته ، حتى يحين موعد الذهاب إلى المقبرة. بقي يعالج الكبد سبعة أيام مثلما قالت داعية الجن ، خطوة بخطوة ، وأقل غلط في الحسابات يُفسد الخطوة ، فيضيع كل الجهد هدرًا. عمل أصعب بكثير من إقناع عبد وحسن في التحضير للاسم الأعظم أو المشي في البستان خلال الليل.

أيها المسكينان.. ستريان كيف أغزو العالم وحدي. سبعة أيام فقط إلى أن تجف الكبد. القَطَط والفئران ، والطيور الجائعة. علبه مغلقة ، وبين لحظة وأخرى تتحسّن نظراته ذلك المكان الأمين ، وخلال مدة الانتظار ، سمع عن جريمته السابقة ، وتفصيلاتها ، بروايات مختلفة ، فأمر عبدالرحيم عشرت مصادفة ضحى اليوم التالي على بقايا الوزّ المفقود. اكتشفت غيابه حالما عاد سرب الدجاج والطيور إلى البيت ساعة الغروب. وفي العتمة خرج عبدالرحيم يفتش داخل الحقل مهتدياً بضوء القانوس. كل الجهود ضاعت سدى.

وفي ضحى اليوم التالي وجدت البقايا داخل الساقية. هكذا روت أم عبدالرحيم الحكاية. أشكال مختلفة للتأويلات : لعله ثعلب انفرد بالسرب الأمر الذي ترك انطباعاً سلبياً عند الأهالي عن تكاثر الثعالب في البرّ ، ومداهمتها الهساتين والزرائب. ذلك يعني مشكلة جديدة ،

وربما هو ذكر السلاحف، اغتتم غفلة، ونهش الأوز، ثم سحله إلى الساقية. كان الفيل يسخر من حكاية الثعلب، وذكر السلاحف، لتضارب الأقوال. ليقولوا ما يشاؤون. ثعلب. ذئب. غول. هو كل هذه الأشياء. وحده يدرك جليّة الأمر، فبعد أيام قليلة يحصل على بغيته. معجزة ينفرد بها وحده. أذناه لا يغيب عنهما حرف، وعيناه تتابعان:

تملكين العالم كله. تدخلين على الحكام، والملوك، بغير إذن. يسيل الذهب أنهاراً بين يديك. تجعلين زوجك خادماً مطيعاً لك. تعيشين مثل الأميرة، فإذا ما أردت أن تسيري، فلا يراك أحد، فلك ما تشائين. لكن يجب أن تعمل التعويذة بدقة، فيدقنها صاحب الشأن وحده ليلاً في مقبرة، وأي خطأ لا يفتفر. الجن لا يسامح في تعويذة ملك الجن والإيس سليمان.

كان يتظاهر بالنوم. الظلام المنتظر. المحطة الأخيرة جبل عريزة، ثم ماذا، ألم يكن له أخت ترقد هناك. كم مرة لعب على الجبل وقت النهار؟ الجن يعرفونه، وأهل القرية يقول بعض منهم: ليس ذاك بجن، بل الفجريات اللاتي اتخذن من هذا المكان في الليل ملعباً لسحرهن، وشعوذتهن، وهو لا يخاف من الجن، فكيف بالنور. ضوء القمر، يفسد السحر، ولا بد من ظلام تام، السعالي تلك العجائز القبيحات اللاتي لهن شعر منفوش يصل إلى الركبتين، وأنوف طويلة، وأسنان

كالمناشير، وأظافر حادة طولها بالأمتار، لا يؤذينه. أكدت لأمه مروضة الجن، وقد سمعها من وراء الباب. أم المساحي المرأة ذات القدمين الحادتين القاطعتين، قد يحمن حوله، صارخات، غاضبات، مستهزئات، فلأقلّ لفتة ثمن، أما ضعيف القلب، الجبان، فيركبته حتى يطلّ الصباح، أو يرجع ناقصاً أحد الأجزاء: أنفاً، أذناً، أو إحدى العينين. الأشكال التي يعرفها في النهار قد تنقلب عليه في الظلمة إذا توجّست منه خيفة، وها هو منذ الصباح يرى قزماً بساق، وعملاقاً بعين، وامرأة برجلي معزى، ويشخص أمامه وجه ذو عينين كالتوقع، ولم يكن أمامه إلا أن يحفظ الأشكال، فيصادقها حتى لا يخونه قلبه.

في الظهر التمس عهداً من المقبرة. تجول هناك. لمس التراب بيديه. كل شيء ساكن، هادئ تحت الشمس. القبور ذاتها كانت تنتشي بالنسيم الصافي، والنور، وتضيق بالحياة والبشر. حين يصل إلى حافة المقبرة، يتوغّل خطوة عند الجهة المقابلة للبساتين، فيسهل عليه الإفلات من خطر ما. يدفن الكبد المسحور، ويظلّ ساعات يؤذي طقوساً وعاماً من مروضة الجن صديقة أمه، ثم يهرع عائداً إلى المنزل، ويندس في فراشه، كأن شيئاً لم يكن.

والعالم كله محصور بين يديه.

الدنيا تلك التي لا حدّ لها.

والخوف لما ينزل إلى قلبه بعد.

خطا حذراً خارج المكان. كان أخوه الأصغر يغطّ بنوم عميق.
لا حركة أو صوت إلا صرير من بُعد، أو عواءً خافت. أسقط صقالة
الباب. دفع المصراع بهدوء، للوهلة الأولى فترّ واطمأن إلى الكيس.
الكلب أيضاً يتبعه حتماً. ابتسم. وعادت إليه الثقة، بوجود الكلب.
وكما لو قطع طريق العالم كله، استدار مع المنعطف، أذناه ترهفان
السمع: نقيق ضفادع. نعيب. أزيز وردان. صرير، وما لبث فجأة أن
التفّ به الطريق ممتداً إلى الفسحة الخالية من النخيل، والشجر وسط
البرية. الظلام يقوده، فيبدو كلّ مظهر مما يعرفه نهراً مرتفعاً للأعلى.
النخيل عن بعد، وملامح الضريح، وأشكال قريبة من الصخور.
أجمات. أشواك. حرقة في ساقه اليمنى، وخذش. وتوقف عن السير
يخبط العتمة بيديه، كأنه يصارع تيار ماء هبّ بوجهه فجأة، فهتف
بهمس:

- روي.. روي. أين أنت؟

لكنه لم يسمع أيّ صوت. كان يخبط في الظلمة، ويخاطب الكلب
الذي انسحب قبل لحظات، شأنه في النهار عندما يتبعه إلى مسافة، ثم
يعود إلى البستان.

- روي. أين أنت؟

ومع وقفته توقفت الظلمة ذاتها. رأى وجهاً مختلفاً عن الوجوه، بعيداً عن التصوّر والوصف، ويدين تنزلان من كتفين عاليتين، ثمّ عن بعد تهبط نحو وجهه. أكثر من يد. أغصان تتحجّر، عيون عائمة في الهواء. ماء واسع يتحرّك إليه، أما السّماء، فراحت تهبط في عينيه بنجومها الذابطة الخاوية. لم يشعر إلا، وهو يقف عند حافة المقبرة، ويتوغّل قليلاً عند أقرب قبر يصادفه. هو المكان ذاته الذي حدّده ظهر اليوم. كانت الرؤى تتوالى. تندفق، وأنفاسه، تلهث في إثرها، وبينما هو يهيل التراب على الحفرة الصغيرة، وإذا بنور شاحب يومض، ثم، يخفت... ظنه حشرة تلمع، لكنّ عينيه، وشكوكه، خائته. في تلك اللحظة مباشرة تحرك شيء ما. صوت تلجلج في أذنيه. أهو الكلب عاد ثانية؟

- روي أهذا أنت؟ -

وما كاد ينتهي من عبارته حتى يبدّ ضوء خافت لا يعرف من أين تدفق بعض ملامح الظلام، فدارت الدنيا بعينيه، وتوالت الأشكال الغريبة. لم يرها من قبل. كلّ صور الجن حفظها عن ظهر قلب، وكاد يراها كلّ يوم. أما هذه... كلّ جسده مشلول. متورّم. عاجز عن الحركة. أسنان بارزة طويلة. شعر مجدول ليس بذئ نهاية. أظافر أطول من السيوف. ذات الأسنان الغول كشرت بوجهه. تلتهمه بلقمة واحدة، في

حين صدرت عن الطرف الشمالي قهقهة لصوت أجشّ، وعلى الضوء الخافت المتقطع كان يرى كلّ الصور واضحة. عن يمينه جثة بالكفن. قربه تقف القبيحة ذات الأسنان الطويلة. في اليسار مخلوق عارٍ، يلتفّ شعره حول جسده. يدان ترسمان في الهواء إشارات مبهمّة. كان المشهد يتفكك، وتحلل إلى أشكال حادّة: ذات الأظافر الطويلة تجري كأرنب تطارده كلاب، وذو الشعر الطويل يخطو متشاقلاً. زعيق محموم من جميع الصور. زعيق، وصراخ. الضوء يخبو لحظات، ثمّ يلهب. ركض من ناحية، ودبيب من جهة أخرى، والمخلوقات تتوالى، وتتكاثر، تتوالد. أمامه ساعة بكاملها. ساعة بحجم الدهر، وأثقل من الزمن كله. ذات الأظافر الطويلة اقتربت منه، فتبيّن أن بيدها سيخاً، وسكيناً، وكان مسخ يقف خلفها، ويمدّ نحو وجهه شعلة نار، ليخيم سكون، وتجمّم الظلمة لحظات، فينفتق بعدها الضوء الخافت:

. كنا ننتظرك!

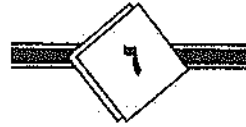
. أتأكل معنا؟

نطق صوت أجشّ من جهة ما، وكلّ الذي يعرفه الفيل أنّ الماء
تصيب من جبهته، وغطّى جسده كله:

. عليك أن تأكل معنا!

وزعقت صاحبة الأسنان:

أنت أنقذتني بقدمك هذه الليلة، ولولاك لقتلوني مثل هذه
(وأشارت) انظر إليها لذلك لا بد من أن تأكل معي. لا بد من ذلك.
وأشارت إلى الجثة الملفوفة بالكفن، عندئذ نسي الكلام، وانتابه
قشعريرة نفضت الماء عن جسده. لحظتها كان كل شيء يتجمد فيه.
عيناه، شعره، رأسه، وفمه يعجز عن أن يطلق صرخة تشق الظلام،
ما عدا ساقيه اللتين كانتا تجريان به باتجاه الساحة، ثم يعطف من حيث
لا يدري إلى البيت، وما أن دلف إلى غرفته، واستلقى على سريره،
من غير أن ينتبه لما حوله، حتى تزحزح قليلاً ما الثقل عن شفتيه،
عندها أطلق زعقة حادة كسرت سكون الليل، فاستفاق لها كل من في
البيت.



انصرفت ثلاثة أشهر، فنطق الطريق عن نفسه، وسقطت كل
التخرصات والأقوال، وزالت الشكوك، والهواجس، فكان البشر
يرتسم على وجوههم عمرت بالسعادة، بينما لاحت على وجوه آخرين
حيرة، وقتام.
الحكومة نفسها قدمت.

والوحش على الأبواب.

ذلك الفأل النحس بدأ يتململ.

شيء غريب، يضطرون أن يتبعوه إلى حيث يشاء، وإلى حيث لا يعلمون، وكانت الأيام تجري، فيحسّون بثقلها عليهم، ففي يوم مشمس نهاية الصيف، حضرت لجنة عن البلدية يرافقها مهندسون، وعمّال، فتمّ مسح البساتين، ثمّ شخصت الإشارات الحمراء على النخيل، والشجر الذي يطاح به، عندئذٍ تنفست الداهية الصعداء، وانزاح عن صدرها الإحساس ببعض الخوف، مع ذلك، أدركت أن الحظّ وحده، وقاها كارثة الطريق التي كانت يمكن أن تمسّ الضريح، فعلى خطّ واحد توازت بساتين الباشا، والمكبس، والضريح، مع أملاك عبدالعليم، وهو وفق رأي الكثيرين، لا بدّ أن يكون قد سلّط كلّ نفوذ له على اللجنة، والمهندسين، ليرسموا الطريق باتجاه آخر لا يضرّ مصالحه، عبر الشمال، في أراضي الجلبي، وابن المسعود.

هذا هو الذي اقتنعت به تماماً.

وكان لا بدّ أن يكون هناك لفظ ما يمسّ الداهية نفسها، ولو لفترة

قصيرة!

فقد كثر القول حول عبدالعليم، ونفوذه. قيل: تعاهد هو

والداهية على أن يدفعها بالطريق نحو الشمال، فنجت أملاك كلّ منهما.

كم دفعت له؟ الله أعلم، وربما، وليس يبيد أن تتطور العلاقة بينهما إلى معانٍ وأهداف أبعد، فتطرد المراقب ابن الرواس، وتدفع بإدارة أملاكها إلى أبي مصعب.

الأحلام والآمال - وفق الأقوال - طافت بها أيضاً حول مشاريع بعيدة. مشروع في مصر، فالرجل مؤهل خلال هذه الظروف، لمنصب مهم ينتظره في العاصمة، ثم إن صورته المعلقة في غرفة الاستقبال التي تجمعها بعد الناصر، وعبدالسلام تشهد بذلك، والداهية أعرضت عن الزواج طويلاً، ثم رضيت بالباشا مبعوث نهر جاسم إلى القصر الملكي، وحلمها المنتظر في ارتقاء كرسي الوزارة. ولعل بعض المتضررين اتخذوا موقف الداهية اللين من عائلة أبي مصعب، زمن المد الشيوعي، وإبقائها على العلاقة معهم متعلقة بكون الضريح يقبل المؤمن، والكافر، ولا يقطع الصلة بأي كان، لعلهم اتخذوا من ذلك حجة لحملتهم الجديدة التي سلطوا نارها بالأساس على عبدالعليم، وشمل شررها الداهية. هكذا ثار المتضررون، ثم قبلوا الواقع على مضض.

الحق كان ابن المسعود أكثر عرضة للضرر من غيره، حيث نخرت السوسة أرضه، فشقت البستان إلى نصفين، ولم تحنه الكلمات حين أسلمه الحظ للنحس، فسب، وزعق، وشتم الداهية، وذكر أمام

الملا، أنه ينوي التقدم بشكوى إلى رئيس الجمهورية بسبب ما لحقه من ظلم. قال ذلك على الرغم من أنه يعلم سلفاً خسارة أية دعوى يشيرها، ثم كظم غيظه، وقبل كالأخرين بالأمر الواقع، ليلتفت فجأة إلى مرض ابنه... فيدرك أية مصيبة هو فيها، ويسأل نفسه، كمن كان في غيبوبة طويلة: أهو السحر أم عقاب من الله؟ الطريق لم يشق الأرض، ويشوه البستان، بل التف على رقبة ابنه الذي تغيرت كل ملامحه: وجهه انقلب، وبانت عليه ملامح الشيخوخة. الشفة السفلى ارتخت. في وقت واحد اختلطت الأمور. الغضب على الداهية. الغضب على صاحب النفوذ عبدالعليم، بل كاد الطريق ينسى لولا إشارات حمراء ارتسمت على جذوع النخيل، مذكرة الناس بالقادم الجديد، أما الإشاعات فقد تناثرت حوله هذه المرة: منهم من ذكر أن جد المسعود أصيب بالجنون، وهام على وجهه بالمقابر، وأن عم أبيه ليلة مصرع الملك غازي، دفعه هاجس ما إلى الخروج ليلاً، بالضبط مثلما فعل الفيل، فركبه طنظل حتى مطلع الفجر، وكانت الجرأة تواتي بعض النساء، فيقلن: إن الصبي ضحية لإحدى تجارب أمه في السحر، وهناك من يذكر أن التطاول على الولي هو السبب، فما كان على الغضب ساعتها أن يجرف المسعود ليقول: إن الأحياء أحق بالأرض ممن ماتوا ولا نفع فيهم. أمام تلك الهواجس تعلق الأب ببصيص من

الأمل. لام نفسه على كل ما بدر منه بحقّ الداهية، والتطاول على الضريح، وصاحبه الوليّ ذي المعجزات الكثيرة الظاهرة للعيان في أكثر من مشهد ومقام خاصّة أيام الفيضان، وعلى عهد المستر (دوسن). مهما يكن، فما كان عليه أن يصل إلى هذا الحدّ، وإن سمع الآخرين ورأهم يتناولون، وما هم، بعد مرض ابنه، يقصدون الضريح، ويسألون الداهية، العفو، والصفح، فلم تعرض عن أي منهم، أو تردّ أي اعتذار!

كان يجلس قبالتها، وغيناه لا تجرؤان إلى النظر بعينيها. خجل. وندم. لا شيء في رأسه سوى قبول العذر، وطلب الشفاء:

- لا يهمني كلام الآخرين يا ابن المسعود، بل ماذا قلت أنت بالذات؟

أيّ عذر؟ صعبة هي لحظات المواجهة، بل ما عساه أن يقول:

- يا ابنة الوليّ، يا داهية، قطع الله لسان الذي يمسك بسوء.

- الحمد لله على أية خسارة وريح، ما دام العرض بسلام.

فردّ، ولما تزل عيناه تنبشان في الأرض:

- يا ابنة الوليّ الشيطان في لحظة ما يمكن أن يدخل أيّ رأس.

وبعد صمت ثار التأييب:

- ألم تطعن الضريح وأنت تعرف كرامة صاحبه؟ ألم يصل إليّ الشرر، ومنك أنت أول الخائضين في الكلام؟

من الأفضل له أن يلوذ بالصمت، فواصلت بحماس:

- أترى أنني صاحبة الأمر على الحكومة؟ أليست هي المسؤولة عمّا حدث؟ لو كان بيد المالكين أمر لغيروا الطريق على هواهم. الزمن يجري يا ابن المسعود، ولسنا في أيام زمان. ولّى عهد غازي، ونوري السعيد، وإلا لالتفّ طريق نهر جاسم مثل الأفعى، كما حدث لطريق أبي الخصيب.

- يا ابنة الولي أنت ذات علم وحلم. لم يخطئ أبداً من سمّاك الداهية، ولكنه الغضب يدفع الإنسان إلى قول ما لا يقال، وفعل ما لا يفعل، والعمو تقوى.

- لو كان في قلبي غلّ تجاهكم، لما سألتك أن يركب ابنك في العربة

هو وحسن مع عبد.

قالت عبارتها، وبودّها منذ أول يوم، لو دعت حسن وحده، لأنها لم تكن لثرتاح من الأساس للفيل، كونه مفرطاً في السفاهة، فربما يلتقط عبد بعض حركاته، يزيدّها برماً ما يذاع حول جلسات مغلقة لنساء المسعود في تحضير الجنّ، لكن صعب عليها أن تدع عبد يستقلّ العربة وحده كلّ يوم، أو أن تدعو حسن، وتجاهل ابن المسعود:

- أنت أهل للفضل.

باحترار أقرب إلى النفور، وهي أبعد من أن تنسى آية ذكرى:

- دعنا الآن من أيّ قيل وقال. انس الماضي وحدثني كيف حدث

الأمر؟

كمن يشخص من كابوس:

- تلك الليلة المشؤومة استيقنا على صرخة. زعيق حاد، فهرعنا إلى

مكان نومه، فوقعت أعيننا عليه، وهو في حال يرثى لها، هكذا فجأة،

تغير شكله، وكان جسده مبللاً، كما لو خرج من بركة ماء.

كانت تهزّ رأسها حتى خيل إليه أنها تسرح في قصة بعيدة، ومن

خلال الصمت سألت:

- هكذا من دون مقدمات؟

- العجيب هكذا هجم المرض فجأة، والأعجب أنا وجدنا باب

البيت مفتوحاً، على الرغم من أنني أغلقت المتراس بيدي.

- غريب؟ أشك في شخص ما؟ لص؟ أو...

- أبداً فالكلب كان يربض عند العتبة.

- كلّ ما أظنه أنه حاول التسلل من البيت، أو أراه كان يسير في

نومه مثلما يسير النائم، ففتح الباب لكنّ أعصابه لم تحتمل الظلمة،

وسواد الليل ، فصرخ من الرعب ، والخوف.

قال كأنه وجد العلاج الناجع الذي يريجه ، وربما كان يبحث عنه
قبل لقائه الحالي بالداهية :

- أنا أرى ذلك يا ابنه الولي ، على الرغم من أن مرض السير في
النوم لم يداهمه من قبل.

تقريع . لوم . عتاب . تأنيب :

- يا بن المسعود ما كان عليكم أن تشجعوه ، وتنصتوا لأقواله حتى
تتطور حالته إلى ما هي عليه (صمتت ، ثم تابعت) لِمَ لم تردعوه؟ (لم
تدعه يقاطع ، وواصلت) مراراً وتكراراً تحدث للصبيان والمعلمين في
المدرسة ، عن شجاعته ، ومقدرته على السير في الظلام ، والنوم في
المقبرة ، وأنتم تسمعون ، وتغضون النظر حتى كاد يفسد ابني عبد ،
وحسن العمران.

- كنا نعدّ كلامه من باب المزاح.

- لا أحد مثلي كان يحبّ المزاح. انتم تعرفونني قبل وفاة الأوبة ،
لكنّ المزاح إذا خرج عن حدّه أصبح سفاهة لا يقبلها العقل والأخلاق.
- يا ابنة الولي ، أنت نفسك ، قلت لنس ما فات ، وها أنا أعترف
أني أخطأت.

فتطلعت إليه بنظرة ثابتة :

- ما هو مطلبك؟

- السماح أولاً.

- المسامح هو ذو العزة والجلال.

- ثم تأذنين لي بربط عبد بضعة أيام في الضريح لعلّ الولي ببركته

يأخذ بيده، فيشفى بإذن الله.

وهي تهزّ رأسها كأنها ترثي له أو تتحسّر:

- لك ذلك يا ابن المسعود.

الحقّ إنّ الداهية ارتاحت إلى زيارة ابن المسعود، فقد أصبح الرجل

عبرة تلو كها الألسن، تحدّث الصغير والكبير عن جنون الفيل، وخصّوا

بالثناء الداهية التي سارت مع العائلة إلى الضريح لتربط المعتوه هناك،

وتدعو له بالشفاء، وكانت تعلن خلال أيّ لقاء لها بمن تقابله في

طريقها أنها سمحت كلّ الذين أسأؤوا إليها ولأبيها الولي، وكلّ من

نهشوا لحمها بالباطل، سمحتهم من كلّ قلبها، والمسامح هو الله.



على أنّ كل شيء سار على ما يرام.

وقد أخذ الخبر القديم يتجسّد للرؤيا، ويتضح للعيان.

تضيف ، لما سبق ، راوية نهر جاسم :

كالديناصورات القديمة تحركت الرافعات ، ذات اليمين والشمال .
الجارفات ذات العجلات الحديد المدوّرة سوّت الأرض ، ثم أقام
العمّال الجسور على الأنهار ، ولكثرة ما تساقط من النخل من أجل
فتح الطريق فقد تنعم بلبّه الأبيض الشهيّ القريب والبعيد ، والصغير
والكبير ، وبالغت الأخبار في أنّ الجمّار غطّى أسواق البصرة ، وبيع
بسعر التراب ليبقى طعمه على الألسن بضعة أيام . فتبيّن أهل نهر جاسم
بعدها ، وقد انفتحت قريتهم على التّومة أنّ الحكومة اكتفت بشقّ
الطريق ، فقط ، ولا تنوي تعبيده . كانت الدّاهية أسعد الناس بالوضع
الراهن : لم يعد الغالي عبد يقطع طريق القنطرة إلى مفرق البرّ قبل أن
تقلّه من هناك العربة إلى المدرسة ، بل أصبح بإمكان الحوّذي أن يتوغّل
إلى الجسر عند النهر الأعمى ، والذي أشاع الهدوء في نفسها ، وزادها
انشراحاً أكثر من أيّ أمر هو بقاء الطريق من دون تعبيد ، فالنبوءة من
عهد حمدة والنسر ، والجمل البربري ، افتتحت عهداً عن الحرب
بالطريق ، وربما ، في وقت متأخر ، وردت إشارة إلى القبر الواضح في
نهاية أحلامها ذات لحظة سرقتها غفوة ، داخل الضريح ، قرأت الشيخ
يحدثها بالخبر ذاته ، فاستفاقت على رائحة زفت محروق . على الأقلّ
المظاهر الحاضرة ثشي بخير إلى حدّ ما ، كأنّ النبوءة تحاشت أن تلتفّ

حول نهايتها، فتقلب في وقت مبكر إلى صورتها القاسية الأولى، فأشفقت الأقدار من أن تجتاح الدرب بحسها الصارخ. لقد أمن الناس نبوءة الحرب مع إيران. واستبشروا لتحسن العلاقات بين البلدين، فأمنوا فحيح تلك الأفعى التي انبسطت بين البستان بجلدها الترابي الداكن، من غير ما حلة جديدة. في هذه الحالة استند ذهن الداهية إلى طريق آخر ينبثق في آخر الزمان غير هذا الذي ألفه الناس بعد بضعة شهور، بل كاد ذكره ينسى أمام العارض الجديد، وهو جنون الفيل. كان الانطباع العام يتلخص في أن القرية دفعت ضريبة الدرب. ما من حدث يأتي من الخارج، وما من جديد يحل إلا وله ثمن، ولا غرابة في أن تكون عائلة المسعود وفق البرهان الجلي الظاهر للعيان هي الضحية، لأن الرجل أبا الضحية كان أكثر حدة، وطول لسان في حديثه عن الداهية والولي، وهو أول من اتهمها باستمالة أبي مصعب، ثم إن العائلة نفسها مؤهلة بالموروث، وليس غريباً على أحد أبنائها مرض مثل الجنون.

هكذا سارت الأمور وفق هوى الجميع.

الكل راض إلى حد ما.

والكل تنفس الصعداء، وإن كان هناك توجس ما عند البعض ممن

لم يأمنوا الزمن، وإن بدا في أحسن حالاته.

نهاية المطاف رافق الانتهاء من الطريق ، عند الحدود ، لخط عن
زيارة رئيس الجمهورية إلى البصرة. كأنّ الطريق أخرج الناحية كلها من
نسيان موغل في القدم. كان عبدالعليم نفسه يروّج للخبر، ويذيع في
الناس أن الرئيس المؤمن ، أقدم على أعمال كثيرة لم يسبقه إليها أحد
من قبل ، ويحكي عن التأميم ، وتفقده القرى المنسية ، والمناطق النائية ،
وبعد أيام ، وبينما التلاميذ في الصفوف إذ دخل عليهم مدير المدرسة ،
ليذكر الخبر، وجهود الإدارة ، والتلاميذ ، لتبدو مدرسة الدعيجي
بمظهر لائق ، وطلب من كلّ تلميذ أن يعتني بهندامه ، ويلبس أحسن ما
عنده ، فيقع اختيار الإدارة على أحسن ولد أو صبية يقدم للرئيس طاقة
ورد.

كان عبد - شان التلاميذ الآخرين - يودّ لو ينصرم الوقت ويحين
اليوم الموعود ، فيرى ذلك الرجل الكبير الذي يملك زمام كل شيء في
البلد. إنها المرة الأولى التي يزور فيها رئيس الدولة القرية ، هكذا يقول
المعلم. ترى ما شكله؟ كيف يكون؟ وهل يشبه الصورة التي يراها في
المدرسة ، وعلى جدران الدوائر الحكومية؟ حين ترّجل من العربية ،
وعبر درب المكبس الضيق ، مال باتجاه المراقب ، فقد اعتاد بعد شق
الطريق أن يهبط من العربية ويتوجه إلى المكبس قبل البيت ، فيداعب
المراقب ، ويأنس إلى نكاته ، وقد خلا له الجو في غياب الداهية :

- حان الآن موعد نشرة الأخبار.

حرك المراقب شفثيه، دافعاً بهما إلى الأمام، وقلب طقم أسنانه الذي ركبته قبل أسبوع، ثم مدّ الفك السفلي على طرف لسانه، وابتلعه ثانية، وهتف مؤكداً:

- هنا لندن، هيئة الإذاعة البريطانية. بغداد العاصمة العراقية. قام الرئيس العراقي عبدالسلام عارف بزيارة إلى نهر جاسم وضواحيها، حيث استقبله هناك السيد عبد النمر، وإلى جانبه مدير المدرسة. فقهقه عبد وقال:

- سوف أدير المؤشر على موجة أخرى.

- ما زلنا نواصل الأخبار من واشنطن. نهر جاسم. ذكرت وكالات الأنباء أن السيد عبد النمر فارس الصف استقبل هو ومدير المدرسة السيد رئيس الجمهورية، هذا وقد تبين للعيان أن رئيس الجمهورية مثل بقية خلق الله له عينان، وأنف، وأذنان، وشفثان، ومن غير ذيل. فقهقه عبد، وهزّ كتفيه، فغاصت فيهما رقبته:

- هذا وقد كان في استقبال السيد الرئيس سيدة نهر جاسم الأولى ذات المحروق الذي لا يسمى...

قطع عبارته دخول الداهية. كانت قادمة من الضريح حيث حلت

هناك الفيل من رباطه :

- بعد غد يصل رئيس الجمهورية، فلماذا لا تربطينه في الضريح

بدلاً من ابن المسعود؟!

قال ذلك المراقب، ولعلها لا تقصد السخرية والهزاء، بقدر ما تعبّر

عن سخطها:

- هذا مصاب بداء الكلب، ولا ينفع معه أيّ علاج حتى لو ربطناه

في الكعبة!

واندفع عبد يحثّ أمه:

- داهية. المدير يقول البسوا أحسن ما عندكم.

لم تكن الداهية لساورها أيّ شك في أن اختيار الإدارة، سوف

يقع على جميلة بنت عبدالعليم، لذلك لم تكن لترغب أن يدخل ابنها

في منافسة مع ابنة صديقتها، بغضّ النظر عن ذلك، والأهمّ أنها لم

تكن لترغب في أن يؤدّي عبد الدور خوفاً عليه من العين، فالغالي أنيق

دائماً. مرتب الهندام، والحاجة تتأكد كلّ يوم من حبات الملح في جيبيه،

لكنه يبدو ملحاً في بعض الأحيان:

- مالها ملايسك. ستلبس مثل كل يوم. (لكن لا تنفع معه إلا

الحدّة) ستلبس ملايسك التي ترتديها كلّ يوم، وكفى كلاماً فارغاً.

كان الصبي يحلم باليوم الجديد.

وقد بدت نهر جاسم نَضِرَةً، ذلك اليوم، كأطفال المدرسة. وجه
غضّ ينفض عنه رتابة الأيام العادية. مشهد غير عاديّ تجدد به القرية
شبابها. على الأقلّ نحن نذكر العالم. نعرف بغداد، والموصل. موسكو.
واشنطن. فليعرفنا العالم. لعلّ كثيراً من الأمور تبدو لا طعم لها، لكنها
تنقلب إلى مزحة حلوة. القرية، وحملها العريض بدأ من عهد الترك،
وبعدئذٍ طموحات الباشا، وقالوا كان الزعيم، قبل الثورة يمرّ مع
الجيش من هنا، وراء طريق البر، وجبل عريزة، وتقسم الداهية أنه بعد
الانقلاب المشؤوم عام ١٩٦٣ مرّ بالقرية في طريقه إلى إيران. لم تكن
هي أو غيرها، ليصدّقوا أن الزعيم قتل، لكن رغم الحسرة على ما
فات فهو يوم غير عاديّ.

صباح آخر.

نهر جاسم كخلية نحل.

التلاميذ يصطفّون على جانبي الطريق يلوّحون بالأعلام، وصور
الرئيس. الفلاحون. الملاك. سيارات الشرطة، والأمن، تروح، وتغدو.
عمّال البلدية في حركة متواصلة، وبين فترة وأخرى ترش الطريق
شاحنة الماء حتى لا يثور التراب أثناء مرور الموكب. النسوة تأهين
لإطلاق الزغاريد، وبعضهنّ تعجلن فزغردن قبل فوات الأوان.
الوجهاء أحضروا ذبائحهم من الخرفان، أمّا عبدالعليم الذي كان ينتظر

الرئيس والمتصرف في مقرّ اللواء، فلم يكتف بتزيين واجهة منزله بصور عارف وناصر، والعلمين المصري والعراقي، بل أحضر بغيراً وربطه عند مدخل القرية، أمام المدرسة، فيكون أول من ينحر ضحيته عند قدمي الرئيس. للمرة الأولى تقع أنظار التلاميذ الصغار على بغير حقيقي بشحمه ولحمه، بغير مثل جمل حمدة التي خطفها نسر وفق رواية نهر جاسم الأولى: جمل حمد البربري الذي يأكل عصيدة وينفري. في تلك اللحظة، والأغنية تملأ ذهنه، كأنه يضع رأسه على فخذ الحاجة، ويتابع الصوت الشجي، انتبه إلى البدوي الواقف أمام البعير، وقد همس، وأشار إليه بيديه، فأخذ البعير يهبط، ويبرك على الأرض. العيون كلّها معلقة باتجاه باب المدرسة حيث الحيوان الضخم. الصبيات الست التلميذات بقين في مكانهنّ يحطن جميلة بنت عبدالعليم التي بدت بجملتها المدرسية الجديدة، وتسريحة شعرها، وفي يدها إضمامة الورد، أشبه بدمية شقراء زاهية الألوان، في حين غادر الأولاد أماكنهم ليروا البعير عن قرب.

- أصغر من الفيل.

فيرد حسن:

- لكنّ رقبته أطول.

- والأذنان؟

- هل تستطيع أن ترسمه؟

- ليطلق عليك الآخرون كلمة البعير مثلما حدث للفيل.

- لم أر بعيراً من قبل.

- أمي الحاجة الكبيرة يمكن أن تكون رأيت جمل حمدة البربري!

- ولعل جدتي أيضاً.

حرك البعير مشفره، فظهرت بعض أسنانه، فبدأ كما لو كان
يضحك. الحركة لفتت نظر الصغار، فراحوا يقلّدونه ضاحكين بصوت
صاخب النبرات:

- اضحك.. اضحك.

حسن يتوقف عن القهقهة فجأة:

- اضحك يا غبي بعد ساعتين يأتي الرئيس، فيذبحونك.

زمن يطول بهما. رغبة تتلجلج في ذهنه أن يرى ذلك الحيوان
الضخم يذبح عند قدمي الرئيس. كيف تتقدّم نحوه جميلة بنت
عبدالعليم، فتحنني، وتقدّم إضمامة ورد. الوقت طويل، فمتى يأتي
الرئيس. لم يذبح خروفاً بعد. دجاجة، وما أكثر الدجاج في بيت
الداهية! حسن مثله ذبح دجاجاً. هكذا. ضع قدمك على رجليها. قل
باسم الله ثم حزّ الرأس، لكنه وقد طابت له اللعبة، وحلا بعينيه

المشهد، رفع الجثة في الهواء، رفست برجليها، وقد تطاير الدم منها
على ثياب المراقب، والداهية. الأم الكبيرة صرخت:
- العتاب على الكبار الذين قالوا لك اذبحها.

يأتي صوت ابن الروّاس فيما بعد:

- دعينا يا داهية نعلم أبناءنا منذ طفولتهم على الشجاعة! بطل

عبد! نمر!

- لماذا كلما أردنا ذبح دجاجة ذهبت بها ملكة الليل إلى المكبس
ليذبحها أحد الرجال هناك. أنا رجل البيت، والله سأذبح كلّ الدجاج،
وخرّوف العيد أيضاً.

وإذ زجرته الداهية ساخرة هتف بها ملوّحاً بالسكينة تقطر دماً:

- أنا ابن النمر وجدي الولي!!

لكن آخر ما كان يخطر بباله البعير ذو السنّام العالي. مخلوق
غريب، ومفاجأة للصغار والكبار أيضاً. كان عبد وحسن يتحدثان عن
الدجاج، وأول عهدهما بالذبح، حين برز، تلك اللحظة، الفيل. في
البدء اندفع، مهرولاً خلف الصف، وعندما أصبح على بعد
خطوات، تناقلت خطواته، وعيناه تحملقان في المخلوق الغريب. كلما
اقترب خطوة أخذته دهشة، فمدّ عنقه حتى كاد ينخلع، ثم تجرّأ،

واندفع نافثاً الهواء من منخرية. كان من عادة الأهالي ألا يجزوا
المجانين عن شيء خشية من عقابيتهم، فصعد على ظهر البعير، لاكزاً
خاضرته برجله. كان يصفق جذلاً، وراح يهتف بكلمات مبهمة،
تقلت مع اللعاب السائل أسفل شفته:
- آش. إيس. إيس. آش. إيس.

كلماته أخذت منحى آخر في الساعات القادمة، فأولها الأهالي
حسب هواهم، قبل أن يلحق لعابه، ويترجل من على ظهر البعير،
لينطلق بكل الاتجاهات إلى حيث لا يدري أحد أو حسبما يدعي أهل
القرية: إنك لا تحتاج أن تسأل أين هو لأنك يمكن أن تجده في كل
مكان. لحظتها كان عبد يسأل حسن باهتمام:
- أترأه فعلها؟

- الفيل يمكن أن يفعل أي شيء!

- الحمد لله أن الداهية جاءت في اللحظة المناسبة وإلا لكنا مثله.

هز حسن رأسه، ولم ينطق بأية كلمة، كأنه ينصاع للهدوء
الدخيل الذي حلّ في غير وقته. كانت الضجة قد هدأت تماماً. ولا أحد
يريد أن يصدق ذلك السكون العميق، والصمت المطبق اللذين خنقا
خلال لحظات كل الصخب الذي زاده حدة حضور المعتوه، كأنما كل
الواقفين انقلبوا، فمسخوا بأنامل ساحرة شريرة إلى تماثيل حجرية.

سكون تذكره القرية عن زمن مضى. يوم صمت كل شيء حتى الهواء.
الطيور ذاتها خرست. الحيوانات.. ثم هبّ شيء فضيع. أقوى من كل شيء.
جرف أمامه التراب، والماء، والناس، والغنم. غضب يشبه
طوفان نوح.
فجأة...

والصمت يطبق بجدته المفاجأة...
والهدوء غير المألوف يخيم على الواقفين المنتظرين...
الأطفال أنفسهم لم تصدر عنهم أية أصوات...

وكان كل الأحاسيس اقتربت من شيء مجهول، فسكتت عن
الحركة، ولاذت بالسكون وحده هاربة من شيء ما مخيف حتى يعلن
عن نفسه المجهول. وسط ذلك الترقب، ولم يكن هناك إنذار ما يسبق
الحدث، مما ذهل له الجميع، لأن الأحداث الكبيرة تدرك وقائعها في
بغداد. منها تأتي. هي التي تخلقها، فترويها الألوية والقرى، أما الخبر
الجديد فله طعم آخر، ووجهة قريبة المنال... وأما تلك الحشود، فإنها
انفضت ساعة شوهد مدير المدرسة يأمر التلاميذ بالانصراف إلى
بيوتهم، وربما كانت هناك مبالغة على ألسن النساء حين قلن إن زوجة
عبدالعليم سقطت مغشياً عليها حال ورود الخبر المشؤوم... وهناك
بلاشك أكثر من امرأة زغردت مدعيات أنهن لم يسمعن الخبر بعد،

ويتلهّفن لرؤية الرئيس !!
للأسف !! للأسف !!
قالها الجميع صادقين أو كاذبين.
هكذا انفجر السكون.
ولعلها المفاجأة الموعودة أو غير المعهودة.
مات الرئيس ...
قتل بحادث طائرة ...
سكون آخر ...

وبعد دقائق لن يبدو من المألوف أن تظلّ القرى منتظرة على
الشارع الترابي، وفي المظهر تبدو الخيبة، والمرارة، والأسف، أما
أعماق النفوس فلها حساب آخر لا تبديه الظواهر. كان الحادث يتسع
فوق الشفاه. عبد وحسن، والتلاميذ، تخيلوا أنّ الجسم المعدني يهوي
مثلما يسقط حجر في الماء. رغم ذلك يظلّ الأسف يحتلّ جانباً من
النفوس. كان يمكن أن يحدث كلّ شيء بعد أن يصل الرئيس إلى نهر
جاسم. أمانٍ واسعة عريضة اختارتها القرية لنفسها: الصغار حلموا
برؤية الرئيس، والقرية ظنّت أنها سوف تكبر، وتصبح ناحية، يعكس
وجهها عبدالعليم. لقد خشيت الطريق، وحين أصبح حقيقة، وجد

الناس أن شيئاً أفضل من لا شيء، فأية صورة رسمتها لأيامها نهر جاسم: يكون لها مدير، فتسيّد على قرى تتبعها، إذ تكثر نفوسها في يوم ما ليس ببعيد تكون قضاءً، ذلك الوقت يصبح عبد وحسن، وتلاميذ المدرسة أجداداً. الناس يتكاثرون، والزمن يتقدم، والمعلم بطريقته يجلب كثيراً من الأشياء البعيدة والغريبة الغائبة عن العيون، فيكاد يتحسّسها الصغار بأيديهم، أمّا الكبار ممن وعوا الحياة قبل (دوسن) والملك، فإنهم إذ راهنوا على عبدالعليم، يقسمون أنّ أجدادهم الأوائل سكنوا هذا المكان يوم كانت حمدة وجملها البربري، فأى مكان يوغل في القدم مثلنا، مهما يكن من أمر، فإنّ عبدالعليم منا وابننا، وإن اختلفنا معه، لكنه يريد لنا أن نكون متبوعين لا تابعين، وكم اختلف بعضنا أيام زمان مع الباشا، ووددنا لو فاز ببغداد قبل أن ينطق القدر، ويكشف الزمن عن وجهته، والآن ظهر الطريق، ولم يحدث أيّ مكروه، فلم لا تكون نهر جاسم ناحية؟! وربما كان ابن الروّاس من القلائل الذين لم يبالوا بالتغيير المرتقب.

ماذا يعني أن نصبح ناحية؟ يساعده على التهكم صوت يصدره من فكّيه الصناعيتين، فيما يشبه عطفة مخنوقة. نكبر. ويكون لنا مدير. أهذا كلّ شيء؟ الأفضل أن تكون نهر جاسم صغيرة، وجميلة، فليس كل كبير فيه الخير. الحمار كبير، والغزال صغير، والأدهى من كل ذلك

أن نهر جاسم هبت كلها واقفة على جانبي الطريق لاستقبال الرئيس
باستثناء الحاجة التي ظلت في مكانها مع تأملاتها وتسييحها،
والمراقب، وكانت الداهية تصحب ملكة الليل، وتذهب مع الناس
إكراماً لأمّ مصعب، وهي واثقة تماماً، كالأخرين، بأنّ عبدالعليم
سوف يمارس نفوذه أثناء حديثه مع الرئيس. هذا أفضل. ليكن في نهر
جاسم شيوعيّ، وقوميّ، وملكويّ، وو.. فالزمان لا أمان له، والأيام
غدارة حتى إذا دار الدهر دورته وغلب حزب ما على الآخرين، وجدنا
من يدفع البلاء عمّن غلبوا من أهلنا. عبدالعليم الذي جرّحناه،
وهددناه، وأطلقنا عليه من الشتائم ما لم نقله بحق اليهود والنصارى،
يكشف الآن عن معدنه الطيب، ويرفع رأس نهر جاسم أمام الرئيس
يريد أن نصبح كباراً. نسي كلّ شيء. مثل الباشا. صاحب قلب كبير.

والحق إن الداهية لم يساورها القلق بعد أن هدأت الأحوال، ولم
يظهر شؤم الطريق المفترض، فلم تتصل التبوّة بذروتها، بل رأت في
تحول القرية إلى ناحية زيادة لمكانة الضريح. سوف يأتي أهل القرى
التابعة لتقديم معاملاتهم، ومراجعة سجلّ نفوسهم، وتجنيدهم،
وتقديم شكواهم، عندها يشخص لهم الطريق في غدوهم،
ورواحهم، فأية منزلة تتلج القلب وتحيي الذكر أكثر من أن يكثروا
الضريح؟!

كانت تحدّث ملكة الليل حين أبصرت المعتوه ينتفض فجأة أمام
مقام أبيها الوليّ، ويهرول صوب الدعيجي. لم تكذب قلبها ساعة
الصفاء.

وهرعت ملكة الليل، على نداء ما في الخارج، ثمّ عادت لتعلن
عن وصول المراقب الذي قدم وإمارات الغبطة والانشراح ترتسم على
وجهه، قال يستبق الخبر قبل أن يجلس:

- والله أنا والحاجة بطلان، فنحن الوحيدان لم نقف مع الواقفين،
ولم نخرج مع الخارجين. أليس كذلك يا حاجة؟
احتجّت الداهية:

- كفى الآن حديثاً عن بطولاتك، وأخبرنا هل من جديد؟
- كلّ ما عرفته أن الرئيس قتل في قرية اسمها النشوة للأسف
الشديد.

فرغ صبر ملكة الليل، فتعجّلت الاعتراض:
- قبل قليل كنت لا تحبّ أن تراه، وتفخر بتأخرك عن الركب،
والآن تتأسف.

- أنت آخر من يفهم.

- نورنا يا أستاذ فهمه!

فاجأته حدة لسانها على الرغم من حذره الشديد:

- أنا آسف على شيء واحد، هو أنه قتل في قرية أخرى، لو قتل في قريتنا أفضل.

الذاهية مستنكرة:

- جزاك الله خيراً، أتريد أن تجلب لنا تهمة!!

- شبهة، وعار. نهر جاسم لا تقتل ضيوفها. (قالت ذلك ملكة الليل).

- الآن سجل التاريخ اسم (قرية النشوة) حيث قتل الرئيس، وعادت نهر جاسم إلى النسيان.

في هذه اللحظة، ضخم عبد صوته، ونفخ خديّه، وأخذ في الكلام من دون أن يرفع عينيه عن الورقة:

- هنا لندن. وردنا حالاً هذا الخبر. موجز النشرة. في قرية نهر جاسم اغتال أحد الأهالي ويدعى الروّاس المراقب رئيس الجمهورية...
- عال. لتأت التهمة من عندك. حمّتنا من رجلينا.

الذاهية بحماس:

- أنت الذي رغبت في ذلك.

- حسناً سأعترف، ولا حاجة إلى التعذيب يا سيادة المحقق (بدأ

يلوك فكّه الصناعي) لم أكن وحدي كان معي غير عبد ملكة الليل.

ساخرة:

- والله لو كنت مكان المرحوم لقمّت بتأميم أسنانك الصناعية بدلاً
من تأميم السينالكو، ولكن استغنى عن لقب الحاج مشن! وبطل
السينالكو..!

- عال، الآن وقد فهمت معنى التأميم تستطيعين أن تسجلي في
الاتحاد الاشتراكي، فتستدعيك أم مصعب لحفل استقبال الرئيس.

- كفى الله الشر. تلك امرأة احترقت قبله ذات يوم!

أثارت عبارتها فقهته، وتركت ابتسامة على وجه الداهية. كاد
عبد يعلّق بعبارة لولا خوفه من أمه التي قالت:

- وأين هو الأتحاد الاشتراكي، وماذا فعل؟

- على أساس أن يفعل في المستقبل (بتهمك منصرفاً إلى ملكة الليل)
لفرض أن عند ملكة الليل بيتين، وبقرتين، ودجاجتين، وجارها فقير
لا يملك شيئاً، في هذه الحالة، يستطيع أن يأخذ منك بقرة، وبيتاً،
ودجاجة. هل اقتنعت لتتضمي إليهم؟!

لم تخف السخرية انفعالها:

- لعنهم الله، هل هناك أغلى من العرض، والشرف، والمال!

- سلم فمك يا ابنة الأصول.

كانت تلك عبارة الحاجة التي نطقت بعد صمت.

- هل سمعتن آخر نكتة؟

- قلبي نفسه أصبح نكتة تحت وطأة الأيام.

- دعينا يا داهية، ويا حاجة، من الأيام، فلن يرتاح الإنسان إلا في

القبر!

- يرتاح؟ منكر ونكير، وكلية الزمهرير التي تنهش الميت.

- خلاص يا ستي، المرحوم قبل أن تنهشه تلك الكلية زار الموصل

فخطب في أهلها قائلاً: يا أهل الموصل يا من موصلتم الاستعمار، وفي

الرمادي قال: يا من ذررتم الرماد في عين الاستعمار، وخلال زيارته

لكركوك قال: يا من كرككتم الاستعمار، وعن أهل القرنة: أنتم

جعلتم بنضالكم للاستعمار قروناً، المهم، لا علينا من كل هذا، ما

عساه أن يقول في أثناء زيارته لمناطق، التنومة، وأم الدجاج، وبيت

زعيير، ونهر جاسم، والدعيجي، والبوارين، والكباسي، وأم

الكلاب! كانت تكون مصيبة والله!

ملكة الليل نكتتم ابتسامتها:

- نكتة؟ أية نكتة هذه تنتهي بمصيبة؟

ولما نزل الداهية شبه معترضة :

- يا جماعة المثل يقول اذكروا محاسن موتاكم. لقد قلت دائماً إنّ الله يسامح عبدالسلام على كل أخطائه لكونه خلّصنا من الحرس القومي ، وأفعالهم السود ، ولو امتدّ به العمر لكان يمكن أن يقنعه عبدالعليم ، فتحوّل شطّ العرب إلى قضاء ، ونهر جاسم تصبح ناحية .
- يا داهية يا بنت الولي ، القوميون من نفس عجين البعثيين ، أما أن تصبح نهر جاسم ناحية ، فلا أظنّ أنّ لعبد العليم ذلك النفوذ ، أو سيتغير الحال إلى أحسن ، فنهر جاسم دائماً تتقلص ، وتكبر مثل المطاط .

الدهشة ، والاحتجاج :

- لماذا؟ كم عدد نفوس شطّ العرب؟

صمت يطبق فجأة حيث انتهت تلاوة من القرآن ، توقع الحضور أن يذاع خبر جديد ، ثم بدأت تلاوة جديدة ، فعاد الرؤاس إلى الحديث :

- يا ستي نفوسنا محدود مائة ألف .

- بقدر أبي الخصيب ، والقرنة ، والزبير ، لماذا هذه أفضية ، وشطّ العرب ناحية ، ثم لا تنس الجامعة الطويلة العريضة التي جذبت إلى التتومة عدداً من العمال والموظفين من خارج البصرة .

بلغ الحماس بملكة الليل ذروته :

- والله أنا متأكدة أن عبدالعليم بمقدوره أن يفعلها مع الرئيس الجديد.

- يا ملكة الليل بأذنيّ هاتين سمعتك تقولين لو كان يحمل اسماً آخر لأطلقته على أحد الكلاب.

- نعم ولكن الحق يقال!

- كفى نقاراً، كأنكما ديكا مصارعة (أردفت بعد لحظة صمت) من

تتوقع أن يكون الرئيس الجديد؟

- عبد الرحمن البراز أو العقيليّ.

- يا ساتر استر من العقيليّ.

- المثل يقول: المبتلّ لا يخاف المطر.

أخيراً يبدو أن عبد فرغ من رسمه، فلوّح بالدفترا أمام العيون،

وقد اندفع يثرثر:

- بعير. انظروا، إنه البعير البربريّ.

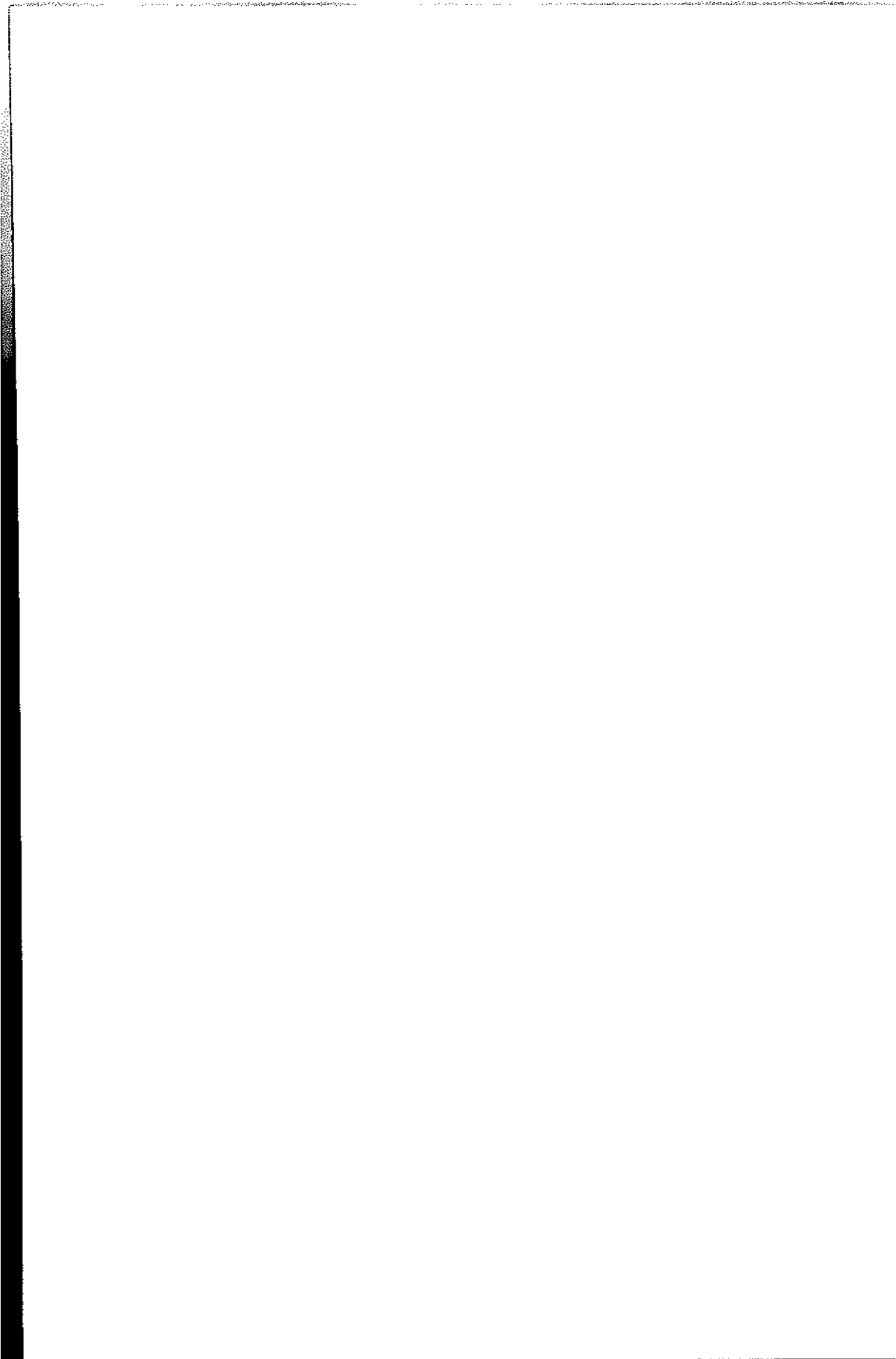
تلك اللحظة، توقف المدياع عن بث التلاوة، ثم انطلقت

موسيقى عسكرية، فزجرت الداهية ابنها:

- كفى ثرثرة ودعنا نسمع الخبر.

وساد صمت قصير، قبل أن ينطلق المذيع، ليقرأ بلهجة باكية
تفاصيل البيان الحكومي الصادر حول مصرع الرئيس. كان الجميع
ينصتون باهتمام إلى القصة، أما عبد فقد عاد إلى دفتريه، وراح يضيف
بعض الرتوش إلى البعير.





سفر الثالث

الشبكة

لم تكن بعيني الداهية تلك هي قريتها نهر جاسم التي صغرت
وكبرت بوقت واحد، فأَيّ صبح هو الذي حملته على ظهرها قنطرة
الخورية في ساعات الصباح الأولى؟

كان كل شيء هادئاً وساكناً، ومن السكون والهدوء ما يبعث
الريبة والشك في النفس. هكذا حدثها قلبها كلما رأت هدوءاً غير
مألوف شبيه الوجه بالكفن! ومن نافلة القول أن تضيف الراوية: في
مثل ذلك اليوم عند قنطرة الخورية، وقفت مبهورة الأنفاس، كما لو
أنها تتوغل في كابوس لا عهد لها به، ومن حولها الدقائق تسري
كالعقارب، ليدور الحديث بعدئذٍ عن شبكة للتجسس، وأول خسارة
تعتري أملاك الداهية الواسعة العريضة، وإذ تعود الأشياء كما هي،
وحيثما دارت، فلا مناص من أن يجري القدر كالسيف، وكل ذلك

يحدث ، والطريق لما يشقّ بعد.

كانت ترمق الصورة المعلقة على جدار المكبس ، وكان طعم الأشياء يتلاشى ، يذوب مع الأيام. الماء تغير والتراب. لم يقلت أيّ مخلوق من الرّيبة والخوف. كلّما ذهب حقة رحل معها خير كثير، وعمّ خوف جديد.

أين هي أيام نوري السعيد ، والملك ، وعبدالكريم قاسم ، وأين هو عهد عارف ، وها هي تبصرو وجه السلحفاة ، فلم يكذب ابن الروّاس في وصفه الذي أطلقه على الرئيس الحالي. برحيل الملك اختفت أشياء ، ولما نزل إلى اليوم تختفي ، حتى الموت نفسه أصبح أكثر حناناً. لقد جاء بالعذاب ولم يأت بالشقاء ، فللصورة حكاية منذ أن نطقت بعينها تلك الأفعى ، وقبل لحظات شغلت بمشهد يكبل كالقيد نظراتها بالدهشة ، فما أغرب هذه الدنيا التي تستوي فيها القرون والسنوات والدقائق. رمضان ١٩٦٣ هو نفسه تموز ١٩٦٨. موعد مع رجل السلطة ، وصوت سيارة تهدر.

- ها هو قادم ياداهية.

قال ابن الروّاس ، والداهية هذه المرة حذرة ، لقد تغير كل شيء ، الإنكليز سمّوها ذاهية ، لكنّ نظرتها ما عادت لتتفع ، واليوم تعجز عن فعل شيء يرضي الدولة. الرجل الضخم ذو النظرات الثاقبة الذي

تستقبله على مضض ، يعدّ من يسكت عدوّه. ليس هناك من يقف على
الحياد. المستقلّ كلام فارغ ، كان الناس بسطاء لا يقرؤون أو يكتبون.
أذلتهم الحكومات السابقة ، فخشوا السياسة والسلطة.

الآن ، بنت الحكومة المدارس. طبعت الكتب. أممت النفط ، فإمّا
أن نكون مع الدولة ، أو من أعدائها ، فاحفظ لسانك يا ابن الرؤاس
واصمت ، نهر جاسم عادت إلى الزمن الأول ، يوم تكلمت
الحيوانات ، والطيور ، وخلعت أجنحتها ورؤوسها ، ونامت مرتاحة ،
حتى ظهرت الخيانة ، فعاقبها الله بالحرس وثبات الأعضاء ، ثم عادت
كما كانت : تكلم كلّ طير وحيوان ، وصار لكلّ شيء جامد لسان
وشفتان ، فهل يأمن أحد لسانه ، وللحيطان آذان تشهد بها ، وشفاه
تنطق عنها بحضرة الشخص الذي رأته للمرة الأولى.

- إذن أنت الداهية. أنت ابنة صاحب الضريح ، ومالكة المكبس.

- وهل يسرّ الداهية أكثر من أن يزورها ممثل الدولة.

الرجل الأبيض ذو الوجه العريض والعينين الخضراوين يرتاح

للإطراء :

- يا داهية يا ابنة الولي ألا يحقّ لنا أن نفخر بالرجل الذي خلّصنا

من عهود الظلام فنضع صورته في كلّ مكان.

في كلّ مكان نعم ! وجه السلحفاة يقول ابن الرؤاس قبل أن

يصمت ، ويعتزل الحديث. الزعيم علقنا صورته من غير أن يرغمنا أحد، أحببناه، فرأيناه في كل مكان، وربما بالغ بعضنا فظن أنه شاهده في القمر، ولولا الحياء من أم مصعب لما وضعت الداهية على الدكة، في مكان يكاد يكون نائياً صورة صغيرة للمشير. لم تكن لتحب أن تعادي أحداً وإن كان الحكومة، وهي التي ذقت مرارة العدا، طفلة وصيبة، وفقدت الأخ والزوج. رحم الله أيام المشير، كانت التعاملات يتخذن من صورته مرتعاً للنكات، والسباب، ولا يتوقفن إلا حين يبصرن أم مصعب في زيارة خاطفة، فيصبح ذلك الأرعن، الحاقد الأعوج، الحاج سينالكو وتاجر العهر، والفساد، وهو (7UP) الذي انقلب بقدرة قادر إلى أن يصلي الجمعة من كثرة إيمانه يوم الخميس ليستبق الثواب، ذلك في حضور المحظور، والممنوع يصبح سيد العرب والفارس الذي خلصنا من حكم البعث إلى الأبد، وبقدرة قادر ينقلب الحال إلى واقع، فيأتي رجل الأمن بصورة الرئيس أبي الجميع المهيب، ولم يهن على ابن الرواس أن يضعها في المكان ذاته الذي كانت عنده صورة الزعيم، لسانه طلق إلى هذه الساعة، والهموم لا تعلق وجهه. ما زال يرى الحياة نكتة وإن ساورها خوف رهيب، لكنه حين قذف به في زنزانة الأمن سكت عن الفرح، لقد كنت يا ابن الرواس على حق يوم قلت للداهية، وأنت تطلق النكات فيضحك من في المجلس وتظل الداهية وحدها صامته، قلت: يا داهية لم تصومين عن الضحك؟ أنت

كنت مثلي ترين الدنيا نكتة تنتهي نهاية حزينة.

لا بدّ من النهاية الحزينة إن عاجلاً أو آجلاً، أما الفرق فأنت تراها ضحكاً طويلاً وأنا أراها نكتة كبيرة، لا تقدر على أن تفارق السخرية منها، فالقلوب إذا خلت من المرح أضحت خواء، ومرحنا نحن ليس عبثاً وإن خالطه لغو الحديث واختلط به الحلو والمرّ، وإلا فنحن بأحسن حال نسخر - يا أم عبد يا داهية - من أحداث جسام وأشخاص كبار تردد الإذاعات والصحف وقائعها وأسماءهم، فرحم الله الأموات والأحياء معاً، إذ الرحمة للحيّ والميت، هؤلاء الذين غرفوا من بحر نكاتك يا ابن الروّاس، ورحم الله إمام المسجد الذي كان يزجّ بنكات في خطبة الجمعة ينسبها إليك، فيأتي للصلاة خلفه بعض من سكان القرى البعيدة ممن يستهويهم الحديث عن الأوضاع الحالية، والسياسة، فكان ضريح الغالي يتنفّس بالرحمة على هؤلاء الزوّار، وهم يرون به، فيلقون عند بابه النذور، وعلى شفاههم آخر نكتة نُسبت إلى ابن الروّاس، قبل موت الإمام بأسبوع في ثالث يوم للانقلاب، ها هم يعودون! لكن كيف عادوا؟ ومتى سيرحلون. رحم الله عبدالسلام كنا نسميه مشن وسفن أب، أما هؤلاء فعصير صعب الهضم. الباء بعوض، والعين عثّ، والثاء.. المهم نترك هذا الكلام ربما ابن الروّاس لم يقل هذا الكلام، والانقلاب جديد ما زال يلمع لم نعرف خيره من شرّه

بعد، لكن معظم النكات قد لا تكون خرجت من شفثته، وأصبحت بحكم العادة تنسب إليه حتى تحين ساعة الحزن التي تبرؤ لنا مثل الشيطان من حيث لا نحتسب، ويحق لابن الروّاس أن يسأل وهو يتلاشى بصمته:

أهي المصادفة وحدها؟

أم الحظ وحده؟ أم الاثنان معاً؟

وهل ينفع الكلام حين يلمع العهد البعيد من بين الرمّاد، وتتململ شرارة السنين. من كان يصدّق أن ابنة دوسن تزور نهر جاسم قبل يومين من الانقلاب. طفلة صغيرة ضاعت على ملامحها الشمس بمرور السنين، ونسيها أهل القرية، مع ذكريات تلاشت جنيّة خطرت بين النخيل، غنت ورقصت، نبتت في مكان، وترعرعت بأخر، ورغم ذلك فمن رآها تكاد تأكل التراب وتضمّه بعينيها، فلا يشكّ في أنّ الشوق دفعها للقدوم، وليس الفضول. مثلما يهاجر السمك إلى مسقط رأسه جاءت إلى نهر جاسم الجنية الشقراء ذات الشعر الأصفر الحزير، وقد أبصرناه يخطر معها متهادياً كالديك. كالتاوس. آه لو دام الحلم طويلاً! وهل خالق هذه التي مثل الزبد والقيمر المصفى وخالق أم الروّاس واحد؟ بعدئذٍ حين لم يعد لثروة المراقب أي معنى مضحك، عرفنا القصة كاملة: كانت قد قدمت منذ أشهر موظفة في القنصلية

الإنكليزية بعبادان. الحنين أو الفضول أغراها إلى مكان الولادة،
وملعب الطفولة، فذهبت إلى بيت والدها حيث يسكن ابن الروّاس.
جلست بضع دقائق، وتوجّهت إلى المسبح الذي هجر منذ زمن وملاّته
الأشنيات والسلاحف. هناك جلست وبكت بحرقّة، ثم غابت مثلما
أطلّت مثل أية ساحرة تركب عصاها وتختفي عن الأنظار. صديقة ابن
الروّاس اللدود، ملكة الليل، داعبته، قائلة بلسانها السّليط :

- ما الذي يفعله الاستعمار عندك يا ابن الروّاس؟

فيردّ على كلامها ساخراً، قبل أن تجفّ النكته على شفّتك :

- أتظنين يا ملكة الليل أنّ الاستعمار يتركنا أم تظنّيني على هواك
مثل قطعة من قطع تلك اللعبة التي لو قتلها بصورة صحيحة لأهديتك
أي شيء ترغبين!

- حتى لو كان بعيراً على غرار بعير عبدالعليم!

- يا ساتر!

- هل رأيت أنت لست كفوّاً مثله لتقدم بعيراً هدية.

- حسناً لك ذلك، وإن كان رأيك في هكذا فأنت برأيي أفضل من

الرؤساء، سأهديك حتى لو كان أبو مصعب نفسه.

- سأقولها: سطرنج! سطرنج!

- عظيم ألم أقل لك إنك ستخسرين الرّهان!

والحق أنك يا ابن الروّاس خسرت الرهان حين أطلق للسانك العنان، فقد جاء هؤلاء هذه المرّة من غير طعم ولا لون، لا أحد يعرف هويتهم، مرّة مع الدّين، فغطّت الإذاعة كلّ المناسبات، ثم شئنا أم أيّنا اختفى الأذان من الإذاعة، مثلما لم يحلّ أحد مكان الإمام الراحل، فكان بعض الأهالي يذهبون يوم الجمعة للصلاة في الدعيجي أو التتومة. بعد كلّ هذا طالعنا كلمة جديدة. لا أذان. لا حديث في الدين. كلّ عهد يأتي يجرف معه لفظة نعتاد عليها مع الزمن وإن لم نفهمها. بعد انقلاب رمضان عام ١٩٦٣، فما عسى ابن الروّاس أن يقول عن كلمة علمانية، وكيف يفسّرها ملكة الليل، وليس هناك من يدري ما يجنّبه القدر للرجل، فمع وقوف الداهية عند قنطرة الحورية، وقبل اعتقاله المفاجئ نطقت الأزمات.

الجيش على الحدود..

أخبار عن اكتشاف شبكة للتجسس..

سلع تشح في السوق..

ولعلّ لسانه فلت بكلمة تزعج الحكومة وهم لا يعرفون تماماً نقاء سريره. ما أشقّ عليه أن يذهب إلى التتومة ليتبضع التموين الشهري، فيقال له هناك غابت السمينة اليوم، لكنّ الرز موجود، لا بدّ أن يفلت لسانه بكلمة غير مقصودة، وكلّ التأويلات جرت بعد أن ذهب معهم

ولم يعد في اليوم نفسه ، حتى أنّ ملكة الليل ظنت أنّ اعتقاله في البدء نكتة ، فعلقت ساخرة بطيبة قلب : سوف يستشيرونه كيف يوجهون ضربتهم إلى إيران ، وكيف يحرّرون فلسطين ، ويتخلصون من أزمة المعجون والسمنة ، إنه مثل الطماطم يصلح لكلّ شيء.

أما الداهية فلم تنظر إلى الأمر بمثل ذلك الارتياح. كانت تجد نفسها مثل نهر جاسم وسط فوضى غريبة عنها. وجدت أنها كقربتها تكبر وتصغر فلا تدري بنفسها. تمرّ بها أحداث فلا تحسّ لها طعماً أو لوناً. أمور أكبر من اعتقال المراقب الذي ظنّته في البداية مجرد استفسار عن العمال في المكبس والفلاحين بحكم موقع القرية على الحدود. كانت نهر جاسم تكبر، وكان هناك من يرحل عنها إلى التتومة أو العشار.

أصبحت الدعيجي قضاءً.. دخلت الكهرباء القرية. تلفزيونات ثلاثيات ، الجيل الجديد يعرف أبطال السينما ويتابع المسلسلات ، ويعتزّ بصور لاعبي كرة القدم ، بالضبط مثلما قال رجل الأمن الذي أحضر الصورة إلى المكبس ، واعتقل المراقب : سيتغيّر كلّ شيء ، وما أصعب أن تجد نفسها غريبة في هذا الإطار. لقد استدلت على هواجسها بالأفعى التي رأتها صباح ذلك اليوم ، وكانت تبحث في النبوءة التي دقت الأبواب قبل الأوان. عينا الداهية لا تحذعانها ، والحقيقة تشخص

أمامها بشكل دائرتين جاحظتين تثبتان النظرات الصّلبة القاسية عليها،
حيث وقفت مبهورة الأنفاس لا تتزعزع من مكانها. قنطرة الحورية
ناصعة كالبياض، رقيقة كالفراش، وادعة أليفة، شهدت ولادة نهر
جاسم الأولى، ومنذ ارتقت عليها حورية طاهرة عرفت الأمان،
والحبّ، والحزن، فكيف ارتقى عليها رسول العفريت، ونمت عندها
بذرة الشيطان، والعين قد تكذب، ولا يكذب البصر: تلك إذن أفعى
ذات بقع سوداء، رأسها للشمال، وذيلها باتجاه الشرق.

الدّاهية تعاند قلبها. الدهشة ترتسم على ملامحها حتى لتكاد تأكل
وجهها. لا تخافي يا ابنة الولي إن ما مرّ بك أفسى وأمرّ. كان قلبك
حجراً، وأنت طفلة، فما عسى أن يكون الخطب؟ أفعى تخرج في عز
الشتاء. المنظر الغريب رآته في كل مكان! يقال في مثل هذا اليوم
احترقت بغداد. القتال من بيت لبيت، والإذاعة تعلن عن مصرع
الزعيم، وخلال زيارتها السنوية لإيفاء التذور جلست قبالة الرجل ذي
الملايس البيضاء واللحية الغزيرة الكثة:

- هل الأحبة راضون؟

الصمت علامة الخير. تسأل ثانية:

- الشوق إليهم دفعني...

- حين يحنون إليك يطلبونك!

- متى؟

- لن يراهم أحد إلا مرة واحدة.

- والشوق؟

- إذا اشتاقوا إليك جاءوا إما عيانا أو في المنام.

- إذن ليست الأفعى السوداء منهم؟

- إن كان راودك خوف فهي ليست منهم.

- كيف يراودني الخوف وما رأيت في صغري أعظم!

- علام الإلحاح والأمر لا يخيفك؟

- لست وحدي في هذا العالم، وكلّ سؤالي متى تنجلي الغمّة عن

هذه الأمة؟

أشبه بالمعترض:

- لا تسألني عن شيء لا يعنى به العالم المخفيّ.

لكن...

والضحى يفصح عن أمر ما، يأتي اليقين من عالم اليقين الغائب.

إن كلّ هذه الشواهد لا تستحقّ الاهتمام، فلم تطع المدينة بطابعها؟

حواجز على الطرقات، حرس قومي. مفرزة عند أسد بابل. مسلّحون

يندفعون داخل مقهى قديم يقلّبونه رأساً على عقب بحثاً عن هاربين،

فيشيع خبر في نهر جاسم مباشرةً يعقب الأفعى السوداء التي جثمت فوق قنطرة الخورية، مفاد الخبر أن الأمن داهم المقهى بحثاً عن الزعيم المختفي الذي شرب الشاي، وغادر المكان قبل خمس دقائق من حضور المسلحين.

كلّ يوم تسري قصة في شطّ العرب. امرأة اغتصبت. بيت تهتك حرمة. قنينة في دبر سجين. غيون مقلوعة. صور كثيرة رجعت إلى عهد حمدة والعبد الزنجيّ بداية ظهور نهر جاسم. كانت الداهية تسأل من هؤلاء، كأنها رأتهم ذات يوم، وحين عرفتهم فيما بعد تذكرت الأفعى السوداء المرقطة. كادت ترجع من حيث أتت، ثم استعاذت بالله. أيام تنقشر فيها الأيدي والأطراف من البرد، فما معنى أن تخرج الأفاعي من جحورها، السؤال يرسم على شفيتها وما زاغ بصر أيّ منهما عن الأخرى، كأنهما غريمتان. وبغضّ النظر عن كلّ شيء. المظاهر المسلحة. الأفعى. الإشاعات عن الحرب. نجاة الزعيم، واختفائه. فقد دقّ الخطر أبواب نهر جاسم بعد عدّة أشهر.

ضحى أحد الأيام افتتح ملف البعير، حضرت مفرزة الأمن. جنود ينتشرون في البستان، ما كنا نظن أنهم يعودون، فهل رجعت أيام الحرس القسومي، وكان الله في عونك يا أبا مصعب. كانت النسور تحطف العذارى، والجن في أوقات ما يسرح ويمرح مع البشر بصور

آدمية ، وكانت الدماء تكاد تسيل من أهل القرية ، ألم يختم مصرع الغالي آخر الحروب ، ويمسح دمه ما قبله من عداوة بين آل الباشا وآل الحاج عباس ، ويجب مصرعه كل نزاع ، ويوم كانت الحروب تستعر بين الأهل ، والدماء تجري ، لم تعرف الحكومة إلى نهر جاسم طريقاً. ظلوا يتعاركون ، ويتصالحون ، يفتك بعضهم ببعض ، ليتناسوا فيما بعد العداة ، ورحم الله نوري السعيد والزعيم ، ومن قبلهم من الحكام ممن تجاهلوا الطريق الذي آذن بالمصائب ، وأولها وصول الأمن إلى القرية.

كانت الداهية أول من يتجرأ ، من بين الرجال والنساء ، فتزور بيت أبي مصعب. وجدت الأم والبنت تعيشان في عزلة. خشية الشبهة. ابتعد الأقارب ، ونأت المعارف ، لكن خطوة الداهية فتحت الباب أمام النساء الأخريات. لم تدفعهن هذه المرة الشماعة ، ولا الفضول. بدت أم مصعب تحتفظ بتوازنها ، وهي تستقبل كل زائرة بجملتها المعتادة :

- لا أدري أيتها الحبيبة ماذا فعل أبو مصعب حتى يحدث له ما

حدث!

- يمكن أن يكون الأمر مجرد اشتباه.

- لكن ألم تعرفوا مكانه إلى الآن؟

لا أدري!

- سيخرج بإذن الله!

الذّاهية وحدها تعرف كلّ شيء، فهي التي رأّت ما لم يره أحد، فلا فرق في الزمن. رمضان هو تموز، وقد عادوا في البدء من دون وجوه، حتى وقعت الضربة في الرّأس، ومن كان على جهل أدرك أن هناك شيئاً ما، نطق عنه حال عبدالعليم الذي رجع من المعتقل بعد أسبوع بشكل آخر. شبح. هيكل. وجه أصفر. سحنة حزينة. كان متحفظاً في كلامه، كأنما يزن عباراته بميزان، والرجل الوحيد الذي لم يزره هو ابن الروّاس، إذ ردّ على اعتراض الذّاهية قائلاً بتهكم:

- حين انقلب القوميون على البعثيين وأرسلوهم إلى السجن استقبالهم الشيوعيون وهم يغنون: سبحان الذي جمعنا بغير ميعاد، وهاهم الشيوعيون بصفتهم خميرة يستقبلون القوميين بالترحاب ذاته، وذاكرتي تعي يا داهية اليوم الذي ذهب فيه عبدالعليم إلى الحدود مع رجال الأمن ليعود بشاحنات من السياسيين البارزين الذين سلمهم الشاه إلى انقلابي رمضان!

- مهما يكن من أمر يا ابن الروّاس فإن أبا مصعب ابن نهر جاسم.
- ساعحك الله يا داهية! ألم يقاتل أهل نهر جاسم بعضهم بعضاً في الأيام السالفة قبل أن يختم أي نزاع صلح آل النمر وبيت الحاج عباس! نحن فاسدون من البيضة أساساً.

ليس جديداً ذلك على الذّاهية، لكن الضربة، هذه المرّة تأتي من

الدولة، فكيف نقدر على أن نقف بوجه المخابرات، وهاهم يصلون إلى أجمة الخنازير المهجورة ومحشرون أنفسهم بين المستنقعات، فتصغر كالحلزون، وتكبر نهر جاسم خلال شهور وسنوات، ولا أحد يعرف ما يجبّؤه له القدر. كانت الداهية تنطق عن حكمة إذ زجرت ابن الرواس، فقبل أن يصمت، أذى بسخريته السيد عبدالعليم:

- ما دامت المصيبة في بيت جارك، فاحسبها في بيتك.

ذلك ما كانت تخشاه، فبعد سنة على اعتقال عبدالعليم، تعرّضت تركة المرحوم الباشا لهزة، واضطرّ المراقب نفسه، بعد فترة، لأن يلتزم الصمت. كانت الداهية تهّم أن تطرح أمامه موضوعاً عن شراء سيارة أثاره الغالي، فسكتت عنه فترة ثم أقرت صوابه. ذلك الوقت كان عبد الغالي في الثالثة عشرة من عمره. صبي، مراهق، مدلل، ابن باشا، ذو طموح يفوق الحدّ ينظر إلى نفسه، والآخرين، فيجد فروقاً كثيرة. هم الأغنياء. والدته من ذوات الأملاك، وربما شجّعه حسن من غير أن يتعمّد على أن يرى الآخرين أقلّ منه. كانا لا يفترقان طوال اليوم اللهم إلا في الجمع والعطل ينهضان مع الفجر ينتظران على الطريق مرور أية سيارة إلى التنومة حيث المدرسة المتوسطة، ولم تكن هناك من وسيلة في أثناء المطر إلا الزورق، وربما بدا للصبي أن يفكر بطموحات أكبر من سنّه، ومن حسن حظه أن حسن اجتاز معه المرحلة الابتدائية وانتقل إلى

المتوسطة، وإلا لأحاطت به الوحدة وسط مجتمع غريب يبدو فيه تبدل
الدوام بين فترة الصباح والظهر من أثقل الأمور التي يكرهها الاثنان،
حتى قال حسن ذات يوم عن حسن نية:

- حين كنا في الابتدائية كانت هناك عربة تقلنا إلى المدرسة، تستوقفه
العبارة. لحظتها ذهنه مشغول بسيارة فارهة يقودها ابن الرواس، ومجرد
أن يبلغ الرشد يقودها بنفسه. كان لا يباشر الداهية بطلب، لا خوفاً من
أن ترده، بل اعتاد أن يطرح كل مطالبه أمام الأم الكبيرة:

- يا أمي الحاجة نحن أغنياء، فهل من المنطقي أن يدخل ابن الحاجة
الكبيرة والداهية نجل النمر الباشا الزحام مع آخزين على حافلة قديمة
كل يوم ليصل إلى المدرسة!

- آل العطبي أغنياء. السيد عبدالعليم. آل عبدالعليم. آل فلان
الفلاني وفلان، مع ذلك يركبون سيارات الأجرة، ويدخلون الزحام
على الحافلات، يا ابني يا عبد اصبر حتى تبلغ سن الرشد، وتعفى إن
شاء الله من العسكرية، تستطيع حينئذ أن تتولى الإشراف على أموال
والدك، أما الآن فمازلت قاصراً والطريق لما يعبد بعد، فما نفع السيارة
إذا ما أمطرت السماء، وقد يظل الطين يعرقل السير عدة أيام.

- يا أمي الحاجة الطريق مثل قصة عنتره لن ينتهي، ولن تعبده الآن
أو في القريب البلدية، معنى هذا سوف لن نشترى سيارة إذا انتظرنا أن

يعبّد الطريق.

- ما من شيء إلا وله نهاية.

- إلا الطريق يا أمي الحاجة.

وبعد صمت وتأمل:

- وماذا عن عيون الناس؟ لماذا نلقت إلينا الأنظار؟

- أنت كلميها فقط.

- قل إن شاء الله.

والحق إن الداهية وجدت الصبي محقاً في طلبه. كأنها استفاقت من ماضٍ بعيدٍ فرض جذوره عليها وعلى الأغنياء الآخرين، فلم يتخلصوا منه لحدّ الآن. أيام الباشا والجلبي لم يكن هناك من طريق، فلجأ الأهالي إلى طريق البر أو الزوارق عند هطول المطر، ويبدو أن ذلك التقليد استمر، فأعرض الأغنياء عن أن يشتروا سيارات، ولم يتحرّج أي منهم أن يستقلّ الحافلة الخشبية أو سيارات الأجرة، متجاهلين أي انزعاج يسببه لهم زحام الطريق، مع ما يصحبه الفلاحون من سلال أو طيور في بعض الأحيان خلال رحلتهم إلى المدينة.

كانت الداهية تنبهه إلى إلحاح عبد، وطلبه الجديد المفاجئ. لقد فكرت بسيارة صالون للمكبس، بالوقت نفسه تنفع في نقل عبد إلى المدرسة. الخبر نفسه رسم الارتياح على ملامح ابن الرواس على الرغم

من أنه لم يقدر أية سيارة منذ أنهى الخدمة الإلزامية زمن الملك، لكن الحكمة التي نطقت بها الداهية أمام المراقب، وهي تحذره من أن يشمت بالسيد عبدالعليم، أكلت حلم الصبي، وطموح المستقبل، ففي الأسبوع الذي طلبت الداهية منه أن يتأهب لشراء سيارة، حضر أولئك الأشخاص أنفسهم، أو هم آخرون يحملون المهمة ذاتها. الضحى أو العصر، أو أي وقت آخر لا يهم. المهم الأبخار تنظر، والأفواه، وفي اللحظة ذاتها، لا تجرؤ على السؤال. المهم أنهم جاءوا، يستدعون ابن الرواس للذهاب معهم. في البداية كل شيء غامض مثلما تتيه نظرة حائرة في ضباب كثيف، ثم بعد حين، وعندما لم يرجع قبل أن تغرب الشمس، تبين للقاصي والداني الخبر اليقين. شيء ما مبهم تكشفه الأيام، وهناك حصة لنهر جاسم في القضية. الصخب ينفجر من جديد. الشمس تطلع في سماء بغداد ذات يوم بصفرتها الشاحبة. وتظهر لوحة غريبة. أيام زمان ولت، وولت معها ربيع الجواسيس حيث يسرحون ويمرحون، والرئيس ذو الوجه المسلحفة يطل من الشرفة يرد على صخب المتظاهرين:

- إعدام الجواسيس.

- الموت.

الحكومة أعلنت عن اكتشاف شبكة للتجسس في البصرة.

الشيوعيون يستبشرون للخبر. بارجة روسية كانت ترسو في شط العرب التقطت أجهزتها إشارات مشبوهة تصدر عن جهاز رادار مزروع في برج إحدى الكنائس بالعشائر. ربما يبدو الأمر أقرب إلى الواقع، بصيغته التي شاعت على ألسن الناس. أما ما يهّم نهر جاسم، والداهية بالذات، فهو أن أحد المتهمين في الشبكة المزعومة يهودي كانت عائلته تسكن في يوم ما نهر جاسم. وهو شريك الباشا المرحوم في مؤسسة النقل البحري. الحقّ لم ترد أية إشارة أو تلميح عن الباشا، أما ابن الروّاس فإنه استدعي بصفته شاهداً يعرف أدق التفاصيل عن المكبس والنقل البحري، وحياة الباشا وابن لاوي، وقد يكشف التحقيق معه أي ملف أو خبر قديم عفا عنه الزمن ربما ينفع الدولة. ومثلما سرت أقاويل عن عبدالعليم أيام اعتقاله، ذاعت تخرصات، وحكايات كثيرة عن ابن الروّاس، كان حلقة وصل بين اليهودي ابن لاوي وأعضاء الشبكة، ولكي يبعد عنه الشك ويطرده العيون، راح يغطي على عمله بالنكتة، والضحك، وحسب أهل الفطنة أن يشكوا فيه من قبل، وقد دفع الله ما كان أعظم. منذ اليوم الأول للثورة استهزأ بها، كان يقول كنا قبل الثورة نحفر طويلاً في الأرض. مائة متر. أكثر. ألف متر، حتى نجد النفط بالكاد، أما الآن فمجرد أن نضرب المعول بالأرض، وإذا بالنفط ينبجس من الأرض. خائن. جاسوس. بينما الجيش على الحدود في مواجهة قوات الشاه قدم خرائط تفيد العدو. نقيب في الموساد. غاب

ولا أحد يعرف له خبر. مظاهرات يشترك فيها شيوعيون تطالب بإعدام الخونة، ومع كل خبر وصيحة يهبط قلب أم الروّاس، فتلوذ بالداهية وتقول على سذاجتها:

- هؤلاء هم الذين كان يتألم لهم عام ١٩٦٣.

وليس بإمكانها أو الداهية، مهما أنفقت من مال، ولجأت إلى الوساطات، أن تعرف أين هو الضابط الذي حضر لصحبته مرّ بأم الروّاس وسألها الكف عن زيارة أية دائرة حكومية للسؤال، أو الحديث مع أي كان، وبدا أن المراقب بعيد عن الشمس والنور. التحذير منع زوجته من مجرد التفكير بزيارة فتاحي الفال أو السحرة، فأسلمت أمرها لله بانتظار المعجزة، وهي تسمع عن زوجها كلّ يوم حكايات أيسرها عقوبة الإعدام للجواسيس، أو نكتة لشامت عن بكتريا بطول السبابة نمت في رطوبة الزنزانة، وعشعشت بين أصابع رجله. وفي ظنها بعد كل ما قيل من إشاعات أنه نقل إلى سجن بيغداد ليكملوا التحقيق معه، لكنه على الرغم مما قيل، وعلى الرغم من قسوة الأقاويل، والحكايات المختلفة، لم يُعذّب. من حسن حظه أنه رأى كل شيء بعينه قبل أن ينبس بنت شفة. لقد أدرك معظم الأمور من دون أن يرف له جفن. ربما كان يرحل مع الجن والنسور، والعييد السود أشباه الجن، كل ساعة، بل كل لحظة. مر بحوض يلتهم الأحياء. يذوبون فيه.

غفا. وصحا على صرخات، وإذا بزمن حمدة والنسر يشخص إليه
عياناً من عهد قديم، يوم كان طفلاً صدق الحكاية، وتحيل وجوه
الجميع فيها، ثم أنكرها، وفي سره تشخص الوجوه من جديد،
حكايته يا نهر جاسم تفصح عن نفسها. جثت وحدها من غير
رؤوس، ورؤوس من غير جثت ترقص وتدمدم:

ما قلت لك ما قلت لك يحيتي ويقتلك..

يا خالنا يا خالنا كل السبب من أمنا..

أهنالك زمن آخر للعذاب غير زمن حمدة؟ وكنت أنام فأرى في
الأحلام النسر يعذب الرجال، ويقطع النساء. وعندما استفتقت وجدت
العبد ذا الشفتين الغليظتين يصرخ عارياً:

- منذ زمان لم أنكح أحداً! ماذا سيدي الضابط؟ هل تسمح لي

أرجوك! أقبل قدمك!

يا سيدي الضابط: البارحة كلها لم أمم. كان الرأس المقطوع الذي
ورثته عن الحكاية القديمة، يغني جولي، وسوف لن يُعمر العالم هذه
الساعة على حساب خراب دبيري، سأقول أي شيء شرط أن تأمر هذا
العملاق الأسود ذا الشفتين الغليظتين والمنخرين الشبيهين بمدخنة تجمع
فوقها السخام، أن ينصرف عني بقضيه الغريب، وما دامت الحكاية
قد وصلت إلى هذا الحد، فلست معنياً بتوافه الأمور. حياتنا قبل

١٧-٣٠ تموز كانت مركبة من غلط في غلط ، وها أنا أعترف عن نفسي ، وليسقط كارل ماركس ، والرئيس كينيدي ، وعشرة بن شدّاد ، ومحمد عبده ، وجمال الدين الأفغاني ، وهارون الرشيد ، والحجاج ، ومحمد الفاتح ، وسواهم ممن لا تحبه ، وعليّ أن أقول الحقيقة من دون أن تكون مؤخرتي هدفاً للخراب. لقد مات كل هؤلاء الذين ذكرتهم ، واختلف الناس إلى فرق ، وأحزاب ، فلم ينجو الجميع على حسابي أنا!

- أنا على استعداد يا سيدي الضابط.

صمت مطبق.

أين ذهب الضابط ، وفي أي مكان يختفي؟ العبد العاري. ربما هو حلم بغيض ، أو خرافة عشعشت في خياله ، وتعرّست عن أن تغادر إلى مكان آخر. لا يمكن أن يكذب عينيه ، وأذنيه. كيف اختفت الضجّة ، وتلاشى النور ، وأين ذهبت الشمس ، بل أين هو ابن الروّاس ، وعلى آية بقعة من هذه الأرض الشاسعة المترامية الأطراف يقف. عجيب أن تغيب الشمس فجأة ، والأعجب أن يحلّ ظلام مطبق ، ولا صوت ، ومن الممكن أن يتفق العالم على كل شيء ، إلا أن يحلّ ظلام تام. وأن تختفي الضجّة كلّها من الأرض بلحظة واحدة.

ومثلما اختفت الحياة ، وتجمّدت ، عادت فجأة هكذا ، من غير ما

مقدمات. النور الخافت توّجّج مثل خدّ مريضٍ بالسُّل، الحركة دبّت في مفاصل المكان. كم استمرّ الصمت؟ والظلام كم امتدّ؟ لحظة. ساعة. شهراً. أكثر. أقلّ، ومع ذلك، ما زال الآخرون يناون عن الكلام معه، وقبل الوجبات، يطوف به شخص، غير الأسود الشَّره، على أناس يعيشون الموت وهم أحياء، بأشكالٍ مختلفة، فتناهى نفسه عن الطعام، وكلّ ما رآه تكاد تضيق به غرفة معتمة أضيق من أنفاسه، فكيف حملته على راحتها حكاية قديمة طوال تلك العهود، وكيف عادوا من جديد، وابن الرؤاس على وشك أن يغادر المعتقل مغتصباً.

سلم لسانك يا ابنة الوليّ، وسلم من سمّاك داهية، لقد سخرنا منك يوم ترحّمت على عبدالسلام إذ خلّصنا منهم. الحاج (مشن - سينالكو) كلّ المشروبات يمكن أن يجلبها له المحقق شرط أن يكرعها من تحت، فقد اختفت النكتة وما زال طيفها يطلّ عليه في الغرفة المعتمة، وهناك نكات في الخارج تتكاثر كالأرانب وتروى عنه، وهي غريبة السحنة عليه، أما الحكاية التي سمعها كلّ جيل، بصيغتها التي لم تتغير طوال سنين، فإنّها تتجسّد الآن أمام عينيه. كان يشمت بالسيد عبدالعليم، وكانت ملكة الليل تطلق عليه كلمة شيوعيّ لأنك أحببت من دافعوا عن الزعيم بغضّ النظر عن أفكارهم، وعندما طرقت بابك الحسناء الشقراء (روزا) وعرفتك بنفسها تذكّرتّها. ابنة (المستر دوسن)

التي رحلت مع أبيها وكان عمرها ست سنوات. يا ترى كيف مرّت الأيام بتلك السرعة العجيبة. كاد الزمن يغفو والأجيال الجديدة تنسى، فإذا طفلة الأمس تعود، وهي فاتنة حسناء، تطرق بابك كالطيف... حلم... لحظة عابرة. أتراها حنّت إلى مسقط رأسها؟ استعمار. أنت استعمار. ليكن يا ملكة الليل، ها هو ابن الروّاس يرى ما لا تراه عين، فكيف يكون يسارياً وانكليزياً بالوقت نفسه؟

- يا سيدي الضابط من سوء حظي أنني اشتريت بيتا (المستردوسن) قبل أن يترك نهر جاسم. ويبدو أن ابنته التي وُلدت في البيت ذاته، وحصلت حسبما عرفت على وظيفة في عبادان، دفعها الفضول أو الحنين إلى مسقط رأسها، ومربع طفولتها، حيث قدمت إلى بيتنا، والله العظيم، يا سيدي الضابط، جلست عند المسيح، وبكت، ولا علم لي لم جاءت...

زجرة قاسية، ونظرة ساخطة:

- نحن نسأل ونستتج، وعليك أن تجيب فقط.

- أمرك.

- ليس من أجل هذه الحكاية دعوناك، فقد رجعت بك إلى تلك

القصة من أجل التذكير فقط، لكي تعرف أنا لسنا بغافلين عن كثير من الوقائع وإن تكن حدثت في غير عهدنا.

- أطل الله عهدكم فعليكم الأمر وعلينا السمع والطاعة.

النهاية حلت يا ابن الروّاس، ماذا لو وصل إليه تشبيهاً وجه
الرئيس بالسلحفاة؟ هل يكون أحد أولاد الحرام نقل إليه الخبر؟ أنا
أحمّل الخطأ وحدي. ابن الروّاس كان غيباً إلى حد ما حين ظهر هؤلاء
وادعين في بداية أمرهم، فجعلونا نتجرأ، ونطلق لأستتنا العنان،
وربما اختلفت مع الداهية، لكنني أتفق معها الآن حول نهاية النكتة.
ولعلّ النكات التي أطلقتها حرّفت لتعني أناساً آخرين لا أقصدهم،
والدليل على ذلك أنني اعتدّ كما اعتاد غيري أن نوّرخ للحوادث
المشهورة بتواريخ مختلفة تنشّط الذاكرة ولا ترهقها. جدّتي، وربياتها،
وأمي، والحاجة الكبيرة، والكثيرات أرّخن لحوادث نهر جاسم القديمة
بالخرافات، وأنا من طبعي أن أوّرخ للحوادث المشهورة بالمعاني
الغريبة، فعلى الرغم من حبي للزعيم، فياني سميت ثورة ١٤ تموز
بسنة الأرنب، إذ لقت نظري أذن الأرنب الطويلتان وأذن الزعيم، هذا
الحديث كان يمكن أن يقع في مصر، لأننا نسمع كثيراً عن الملوخية
بالأرنب، هناك حيث سمّيتها السنة الطويلة لطول وجه عبدالناصر.
وظهرت في الجزائر سنة الغراب، فوجه بن بلاّ أشبه بالغراب، أما سنة
القضيب، وما ذكر عن التأميم العظيم، فلا أحد يجرؤ على الطعن
فيه، وأقصد نفسي أنا، إذ لا سلطان لي على غيري، ثم ليست كلّ

النكات من صنعي ؛ قيل عن لساني أنّ لي قريباً في العشار، ليس قريباً بالضبط بل معارف دفعه الخجل ليلة زفافه أن يبحث عن حبوب مقوية للجنس ، لكنّ الغبي بدلاً من أن يلتهم حبة قبل دخوله على عروسه بساعات ، تناول الزجاجاة كاملة ، فانتصب قضيبه ولم يرتخ من ساعتها. ثلاثة أيام في المشفى قبل أن يتمكن الأطباء من إعادته إلى وضعه المألوف ، إلى هنا والخبر عاديّ يشير الضحك ، إذ قيل قديماً شرّ البلية ما يضحك ، فقد قيل إن ابن الروّاس شفع زيارته بنكتة ، وهو لا يدري كيف نسبت إليه. هذه ثاني حادثة عن العورة تخصّ أهل نهر جاسم ، وإذا كانت الحادثة التي اعترت أم مصعب حدثت في زمن القوميين ، فهل عجزت الثورة العظيمة التي تحدّت الاستعمار وصنعت المعجزات ، وأمّمت النفط عن أن تعالج مشكلة قضيب قريبنا أو معارفنا ، أما السلحفاة ، ووجهها ، فأقسم أنني أطلقتها على العهد الغارفيّ الذي انقلب عليكم. أنتم سميتموها ردة تشرين ، وأنا حرّ في اختيار التسمية ، أسميتها السلحفاة ، أو سنة البعير، إسألوا عبدالعليم أبا مصعب الذي استضفتموه عندكم بضعة أيام مثلي ، لكن كيف انتقلت تسمية السلحفاة من عبدالسلام إلى رئيسنا الحاليّ ، فأنا علّقت بيديّ هاتين صورته على الحائط. لعلّهم الشيوعيون ، أو بعض القوميين ، وربّما حسّادي ادّعوا أنني أغنيكم ، فلهم بلا شك القدرة

على التلاعب بالألفاظ، ويمكن أن تعرفوا الحقيقة بأساليبكم الخاصة، هذا إذا حملنا مشكلتي على حسن نية، أما إذا أولت عن سوء، فيمكن القول إنكم جدد في الحكم، ولا أعرف هويتكم فكيف أذكر بسوء من لا أعرفه؟

- سنسمع منك، إضافة إلى ذلك سوف تكتب كل شيء.

- أنا بأمرك يا سيدي.

- تذكر أنّ كل شيء تذكره ينفعك، وكل شيء تخفيه يدفعنا إلى

الريبة فيك.

- اللهم إلا النسيان!

صمت مرّة أخرى وسؤال مفاجئ:

- كم مرّة عليك في عملك بالمكبس؟

- عمر من عمر الفيضان الكبير.

أجل الملف سيفتح. ملف نهر جاسم كلها. أية سنة هي البداية. لا يهم، غير أنّ الشك يحوم في الصدر عن ساعة الختام. الباقون في القرية ومن هاجروا إلى عناوين مجهولة، ومعروفة. عمّن تريدني أن أتحدّث؟ الداهية صالحت عدوها اللدود الذي قضى عليكم. ملكة الليل تعترّ بجلدها الأسود، وتقرف من الأبيض لأنكم من البيض، وآل فلان وفلان فيهم الشيوعي والقومي والبعثي، والمتدين أيضاً، وإذا

لم يكفك يا سيدي ملف نهر جاسم فلي القدرة على أن أفصح لكم
ملفّ البصرة. البلد كله، من أعرفه، ومن لم أعرفه، وإلا فلم أكون أنا
رأس الحربة والضحية وحدي. العالم كله تحدّث عنكم بسوء. (صمت
قصير خلاله راحت عينا الضابط تجومان على وجهك، وفجأة يبرز
سؤال): ماذا تعرف عن ابن لاوي؟

- رأيت بعينيك ماذا يحدث للآخرين الذين مكنتنا الله منهم.

كلّ المعادلة انقلبت الآن، ولما يتجل الإبهام بعد:

- ياسيدي كلّ ما أعرفه أن المرحوم ابن النمر شريك ابن لاوي في
النقل البحري، ومن واجبي إدارة المكبس، اللهمّ إلا إذا كلّفني الباشا
ومن بعده حرمه بمراجعة الحسابات في شركة النقل البحري.
- تقصد أن الداهية لا تتصل مباشرة بك.

- أبداً والحق يقال، فهي تثق بي ثقة مطلقة، عشرة عمر، والمال

الحرام لا يعرف إلى فمي أيّ سبيل.

- حسناً (عينا الضابط تخفّ حدّتهما قليلاً، وتميلان إلى الألفة)

عال، وما هي انطباعاتك عن الباشا؟

بيت القصيد. الداء الذي من أجله استدعيت، وكاد لسانك يفلت

بأمور أخرى لو ثرثرت بها بعد أن مررت بمشهد الموت، لأوقعت

نفسك، ومن حولك بإشكال صعب، والحمد لله أنّ لسانك تريت إلى

هذه اللحظة :

- كل خير، لم أشك فيه قطّ، ولو ساورتني أية ريبة، فيما يخصّ الوطن لكنت أول من يخبر عنه، ويفارقه إلى حيث لا لقاء.

أسبوعاً كاملاً الأسئلة ذاتها تتكرّر. ينام. يصحو. يرى سائلاً يتلعّ الأحياء. يدخل زناناته، وبرفته حزمة أوراق. يكتب. المشاهد تسطع من زمن الجنّ والنسور، وخطف حمدة. ألم يقل له الضابط أن كل معلومة حتى وإن كانت تافهة يمكن أن تنفعنا. ثم إن السيد الضابط أكد له أنهم أحضروه بصفته شاهداً وليس متهماً، فرأى مشاهد العذاب، ولم يطله عقابها، وقبل أن يخرج حدّره الضابط من الكذب. مادام مخلصاً إلى هذه الدرجة للباشا، وحرمه، فالوطن أحقّ به، والذي لا يخون ربّ عمله لا يخون وطنه، فما على ابن الرّؤاس أن يترك عمله يا داهية يا بنت الولي، إفهمي بالإشارة، وإن كان لك صدر يحفظ السرّ، فاعلمي أنني سوف أصمت، وكأنك لم تسمعي أية همسة خفت بها صدري.

والواقع لم تترك الداهية عائلة المراقب فترة اعتقاله. كانت تزور أمّ الرّؤاس كلّ يوم، وأبدت استعدادها لأن تتحمّل أية نفقة، وتبعات، بالوقت نفسه اندفعت بشجاعتها المعهودة تتصدى لأية إشاعة تخصّ المراقب، بل كانت تدعوه في الضريح علناً بحضور الزائرات.

كان إطلاق سراح ابن الرّوَّاس مفاجأة للقريّة كلّها، لأنّ الحكم على المتّهمين لما يصدر بعد، وبدا لمن لم يمارس الإشاعة بحقّ المراقب أنّ حدثاً غريباً التفّ حول القريّة. المراقب ثاني شخص من أهل نهر جاسم يصبح قيد التحقيق مدّة طويلة لأمر سياسيّ. هناك أمور نجهلها وتعرفها بغداد، وحين دخل النّاس في تفصيلات الشّبكة معتمدين على الإذاعة، وتأييد الشّيوعيين، ازداد الوضع تعقيداً، فكثير منهم لم يصدّق الخبر، خاصة الجيل القديم من أتراب الدّاهية والحاجّة، على أنّ نجاة ابن الرّوَّاس كانت العلامة الأكثر سطوعاً في إثبات براءته من كلّ عيب ألحق به أثناء مكوثه في المعتقل، وخلال الليالي التالية، تابع أهل نهر جاسم، شأن كل العراقيين، محاكمات بغداد، وفي آخر ليلة من ليالي المحكمة، أذيع قرار الإتهام.

كانت الدّاهية أكثر المتضررين، فقد صادرت الحكومة أموال ابن لاوي، ليشمل الضرر شركة النقل البحريّ التي يملك الباشا ربيعها، وحسابات مالية أخرى من دون أن تفصل السّلطة أموال الشركاء، وليس ببعيد أن يخطر ببالها سعد النّمر شقيق الباشا الذي سطع نجمه بعد الإنقلاب، وأصبح في عداد أصحاب الملايين. ثمّ طردت الخاطر من ذهنها تماماً. كان سعد يزور القريّة لماماً بعد وفاة الباشا، وبمرور الأيام انقطعت زيارته تماماً، خاصّة عندما شاركه في التّجارة

مسؤولون حزبيون، وعسكريون، وصار المحافظ نديمه وصديقه، وفق ما يتهدى إلى سمع الداهية من أخبار. وعندما انتشرت حكاية الشبكة، وأوشك النقل البحري على الضياع لم تبدر منه أية محاولة للاتصال بالداهية، والتدخل لإنقاذ ما يمكن إنقاذه كان عليها أن تنسى الأمر تماماً، فالمسألة تتعلق بالتجسس، وأياد أجنبية تعمل لهدم الدولة، ولا غرابة أن ينأى ثعلب مراوغ مثله بنفسه عن الموضوع، وقد يتكرر للداهية ويسمعها ما لم يجرؤ أحد على النطق به. كانت كرامتها فوق أي اعتبار، ولا تريد أيضاً أن تسيء إلى الباشا الذي رفض أهله وخلع نفسه منهم.

وعلى الرغم من أن أصابع الإتهام لم توجه إلى الباشا، أو يذكر اسمه بسوء، إلا أن الداهية أعرضت عن رفع أية دعوى للاستئناف حول الفصل في قضية النقل البحري، خشية من أن تفتح عليها باباً يصعب إغلاقه، فخصمها في هذه الحالة الدولة ذاتها، ولا أحد له القدرة في مناطحة الحكومة التي تملك قروناً من حديد، وأمامها الموت الذي أبصره المراقب على بعد خطوات منه في المعتقل، يتوزع في البصرة وبغداد.

كان فجر ذلك اليوم يستوعب كسفينة نوح خلق الله المتجهين إلى ساحة صغيرة يحيطها سياج واطئ من قضبان حديدية. ذلك الصباح

وجد عبد وحسن المدرسة تغيّرت تماماً عمّا هي عليه كلّ يوم. شأن آخر، ووضع غريب. القسوة انمحت من وجه المدير. أشبه للطلاب بالصديق. المدرّسون كخليّة نحل، وحين اصطفّ الطلاب في السّاحة العامّة، واتّخذ كلّ مدرس موقعه أمام تلاميذه، تحدّث المدير مباشرة من دون مقدّمات:

منذ سنوات والجواسيس يعيشون فساداً في بلادنا، نشروا أسرارنا لإسرائيل، وتكاثروا تكاثر الصّراصير والذباب حتى كدنا نراهم في بيوتنا، واعتقدنا أنّهم مدسوسون بيننا، ومع إطلالة العهد الجديد انتهى عهدهم، ولكي يكون ذلك عبرة لذوي النّفوس الضّعيفة نراهم اليوم معلقين في ساحة أمّ البروم. قاطعت مجموعة كلامه بالهتاف، واجتاح الحماس حسن فهتف مع الهاتفين. على خلاف المعتاد أعجبت اللعبة التلاميذ، ثم نزلوا إلى الشارع. هناك عبر النهر، عند ساحة أمّ البروم، يرقد الموت بشكله الغريب. سوف يرويه عن كذب. موتى معلقون بالحبال، وحين سار الموكب، وابتعد عن المدرسة إلى النهر، زاد الحماس، وارتفعت الهتافات، في الزّحام ترك حسن عبد، وانضمّ لجماعة الهاتفين، لينطّ على الأكتاف، ويزعق بالهتاف حتى لاح لعيني عبد عرق رقبتة، يكاد وهو ينتفخ من الزّعيق، يفلت من جلده. وخلال المسيرة تسلل بعضهم، وكاد عبد يهّم بذلك، لكنّه تذكر تأكيد

الداهية في أن لا يبدي أيّ تصرف يلفت النظر، ثمّ إنّ والده صديق
اليهوديّ المعدوم وشريكه. مهما يكن فلا بدّ من المجارة:
.. ليت هذا يحدث كلّ يوم فنرتاح من الدّروس.

قال ذلك حسن حالما نزل من الأكتاف، وعاد يلتقط أنفاسه. حلم
واسع ينبسط أمام عينيّه. ماذا أخسر إذا إنضمت إلى الاتحاد الوطنيّ.
بعض الامتيازات.. سفرات.. رحلات. الأمر أشبه بنكتة يا عبد، ولن
نخاف من انقلاب جديد، فيحدث لنا مثلما كان مع السيّد عبدالعليم.
كلّ الناس يقولون جاء هؤلاء ليقبوا، ثمّ إنّ أيّ انقلاب جديد لا
يستطيع أن يزجّ الناس جميعاً في السّجون:
.. للمرّة الأولى أرى ميتاً حقيقياً بأمّ عينيّ.

على الشّطّ كانت الأجساد تتراقص مع الأمواج، كأنّ سورة المياه
الهائجة أضفت على النفوس مزيداً من الحماس، واختلط الهتاف
بصوت المحرّك، ثمّ بعد دقائق ابتلعت الضّفة الأخرى أمواج البشر
المتلاطمة من مختلف النواحي. نساء. أطفال. شيوخ. عمّال. موظفون.
طلاب. كأنّ البصرة تقيّأت كلّ أبنائها باتجاه ساحة أمّ البروم التي
اعتادت في يومها الهادئ المنبسط مع نهاية الظّلمة وإطلالة فجر يوم
جديد أن تلبس حلّة أخرى تطلّ بها على المدينة، فتفتح مطاعمها،
ودكاكينها، وعربات الباعة المتجولّين، فتنبسط أوانيتها، وقبورها،

وتجذب روائعها العمّال والجنود المبكرين ، فيتحلقون حول الصّحون وهم واقفون أمام العربات ، أو في المطاعم يلتهمون رؤوس الخراف المسلوقة ، وأرجلها ، ثمّ يغادرون السّاحة من دون صخب قبل حلول الموت في السّاحة بساعات. يحيا العراق. الموت للخونة. والعيون تتعلّق ، تلك اللحظة ، بالمشهد المثير الذي يمتدّ إلى الأعلى : جثث مزرقّة ، ملابس حمراء ، كانت عينا عبد تلتهمان الجبال ، والأعواد ، وتغيب أذناه عن الأصوات ، ثمّ تعود حواسّه الأخرى من إبحارها في صورة الموت المرسمة أمامه وسط الصّخب. ربّما هو صوت حسن أو أيّ متظاهر آخر قريب منه :

- مسلم مسيحيّ يهوديّ كوكتيل .

عاش العراق. يسقط الخونة. لم يجرؤ على أن يقترب من السّياج ، كما لو أنّه يخشى أن يلمس الجثث. وفي لحظة ما فكر أن ينسلّ ، لكنه خلال اللحظات الأولى تردد ، وخائته حواسّه ، وهي تذوب ، وتتلاشى مذهولة في الضّجيج والحماس ، أو خيّل إليه أن أحداً يراقبه حين يولي عن المكان. كان يتسلل ، فالتفت إلى الوراء كحصّ ، وفي عينيه صورة ذكرتها الدّاهية ، عن البصرة القديمة ، وحادثّة إعدام ، فيرى الأصوات أخفّ ، والعدد أقلّ عند السّاحة ذاتها التي تعلّق فيها على الأعواد ، ثلاث جثث اليوم. ولو لا أنّ الأذان كانت مشدودة إلى المذيع لما ذكرت

الدّاهية إعدام يهوديٍّ في أمّ البروم زمن الوصيِّ، فلم تقذف المدينة أحشاءها باتجاه أمّ البروم، كانت وادعة أليفة ألفة الحمام، ثمّ تذكرت، وأعرضت عن التفاصيل خشية من أن يفلت لسان عبد. ومما زادها انقباضاً أنّها كانت مع القمر وجهاً لوجه. هبّت من نومها، وكان الجوّ رائعاً، وصامتاً، والأغرب من ذلك هدوء الحيوانات في الحظيرة. الصّمت، وصفاء السّماء. قيل إنّ الخسوف يكون مدمراً إذا رافقت هالة القمر حمرة داكنة، ومن العجب أنّ النّاس لم يتذكروا الخسوف إذ الصّافية فهجره النّاس. ولعلها نسيت أن تذكر الأمر فيما بعد. كانت تخشى أن تُؤوّل كلماتها إلى معانٍ، وتُحمّل أكبر ممّا تستحق، فخالطها يقين أنّها عاشت بكلّ مشاعرها حلماً من أحلام اليقظة، فاستحوذ على مشاعرها إلى درجة أنّها ظنّته واقعاً، وإلا كيف تكون الآلام الطلق وصراخ المخاض، والطبيبة قريبة ابن لاوي تزرقيها الابرة فتسهل بإذن الله الولادة. لم تكن بالطبع لتعلم أنّ بعض الجثث سيعلق في أمّ البروم، وأنّ من بينها جثة ابن لاوي، حتى أبصرت أمامها عبد، والوقت لما يزل مبكراً عن نهاية الدّوام:

- ما الخبر هل هناك من شيء؟

- الدّروس ألغيت وعطلت المدرسة بسبب المشنوقين.

- هل أعلنوه يوم عطلة؟

- أنت غبية. ليس كل سنة اليوم فقط. (قال يجيب على سؤال ملكة الليل ، ويلتفت ثانية إلى الداهية): المدرسون رافقونا إلى ساحة أم البروم لتري المشنوقين بأعيننا.

الدهشة سرحت بها ، وراودها غيض ، لجمته ، لتساءل بنفور:

- أطفال ويصحبونكم إلى مثل هذه المشاهد.

- أطفال؟! يا داهية نحن رجال. أنا رجل البيت.

ملكة الليل تعترض ساخرة:

- العتب على المعلمين.

- مدرسون يا ملكة الليل. المعلمون في الابتدائية!

- ليكن الزفت نفسه ، هؤلاء عبيد مأمورون ، هل عدت مع

حسن؟

- لم تنته التظاهرات بعد وحسن اختفى غني وسط الحشد. (ثمّ

وهو يهزّ كتفيه) هي كلها ضايعة.

- كان من الأفضل أن تبقى.

كانت ذاكرة ملكة الليل تعود إلى مساء ما ، وهي صبية ، ذهبت مع

عبيد الباشا إلى طريق البرّ لتشاهد فيلما من سينما متجولة في سيارة:

- أين يبقى. هل هو فيلم؟ مرّة واحدة حضرت ذات ليلة سيارة
تجمل سينما متجوّلة، فهبت نهر جاسم كلها باتجاه الباحة في طريق
البرّ:

- عجيب أمرك يا داهية!

- كان عليه البقاء ما دام المدير والمعلمون هناك، فقد يفتقدونه،
ويدخل في سؤال وجواب.

قال بلامبالاة:

- بعض التلاميذ انسلوا في الطريق قبل أن نصل إلى أم البروم. (ثمّ
بوجه منقبض) لعبت نفسي من المشهد: واحد رأسه ملتصق بكتفه كأنه
ينظر إلى السّماء، وآخر كان منكّس الرأس كما لو أنّه ينظر إلى الأرض.
للمرّة الأولى أبصر الموت، ولم يكن - قبل اليوم - بإمكانه أن
يتصوّره، طفل مدلل، بصره يخطو باتجاه جثث مغلّقة وسط غابة من
حراب البنادق، وصراخ لا آخر له يطالب بالمزيد من الموت. وكان من
شأن الحاجة الكبيرة ألا تأكل حتى يأتي من المدرسة، وحين نادته وقت
الغداء، أجاب بوجه كالح:

- منذ رأيتهم صدّت نفسي عن الطّعام.

كانت تخشى عليه من أن تراوده الكوابيس والأحلام المخيفة خلال
رقاده بعد أن رأى المشنوقين في أم البروم، وقد نسيت كلّ منهما في

الأيام الأولى للحادث كل شيء ، لثراقبا أنفاسه تصعد وتهبط ، وهو مستسلم للنوم. ومع مرور الأيام أدركت آية خسارة أصابت أموال القاصر عبد ، مع ذلك لم يد عليها التأثير خشية من شماتة الأعداء ، وشفقة المحبين. كانت تحمد الله ، فأبي ضرر يمكن أن يعوض ، وأي جرح يمكن أن يندمل. التقود وسخ الدنيا تذهب وتجيء ، فلا بارك الله في مال لم يسعد صاحبه. ربما قابلت الآخرين بوجه يخلو من الملامح ، شأنها كلما خرجت من أزمة ، وليلة الجمعة التي أعقبت الشنق ، فتحت الضريح للزائرات ، كالمعتاد ، وفجأة ، وبينما هن يتحدثن ، إذ دخل الصبي المعتوه عالم البخور والخلوى والعطور. بحلق في الحاضرات بعينين ملتفتين ، وانتقل إلى مكان الشموع حيث العلبة المليئة بقطع الحلوى. دس واحدة في فمه ، وتمتم أثناء ما يلوك ، ثم خطا قبالة الداهية ، وحرك يديه يستعين بهما على الكلام :

- الهرب.. الهرب.

هتفت زائرة :

- أين ، فال الله ولا فألك.

- أتراه يقول الحرب أم الهرب؟

- الهرب.

- الحرب.

ردت الداهية كما لو كانت تشمت بعدو يترص بها :

- يا سبحان الله كلام المجانين ذو وجهين كأقوال الحكماء.

أما الحاجة الكبيرة، فقالت مع نفسها :

- كلاهما واحد إذا حدثت الحرب لا قدر الله هرب الناس !

كان المعتوه رسولاً لإحدى النبوءات قبل أن يطلق لساقيه العنان، فيضفي على الضريح بعض أجوائه، ويخرج إلى حيث لا يعرف أحد أية كلمة ينطق بها يمكن أن تثير تساؤلات عن المستقبل فيتسع التوجس في القلوب، وتشيع التأويلات. ألم تتحقق نبوءته عن البعير، والمشير، تلك النبوءة التي صدقت بعد ساعات، فتمتد الأحاديث منها إلى سعيه في الأرض، أين بيت؟ وكيف يقضي يومه؟ إلى أمه التي نادراً ما تزور الضريح، وتلتقي النساء، فهي لما تزل مشغولة بالسحر والشعوذة اللذين فاحت ریحهما بعد إصابة الابن بالجنون، وهناك صوت لزائرة يقول: إن الضريح طاهر يخشى السحرة وأشياعهم من اللجوء إليه، ومع كل ما قيل عن هلوسة المعتوه، وسابق نبوءته في العهد القومي، فإن النبوءة الجديدة ما زالت غضة، لم يحن وقتها. الحرب وإن ظهرت ملامحها بأكثر من معنى سواء خطاب الرئيس، واتهام إيران بتغذية شبكات التجسس، والتوتر على الحدود حيث يتقابل الجيشان، أم الحملات بين الأذاعتين، إلا أنها لم تزل بعيدة الاحتمال، ولعل

هلوسة المعتوه أكثر ما تخصص، باندفاعه غير المتوقع في الضريح إلى مجلس النساء، الداهية بعد خسارة النقل البحري. كلهن يدركن خسارتها، ويعرقن سكوتها، وتراجعها عن المطالبة بحقها، وإلا لم اختص المعتوه الضريح، ليعلم فيه عن نبوءته الجديدة. كانت تقول للحاجة بعد أن فرغ الضريح من الزائرات:

- قلبي يحدثني بأمر آخر قد يكون مصيبة مثل فيضان أو زلزال.

ربما كانت محقة، ولعل ذلك ما يخفف عنها بعض الشيء:

- الله أعلم وهو يضع حكمته في أضعف خلقه.

الزلزال. الفيضان. العواصف. الكوارث. كلها أخف من الحرب،

فلم نهم بالهرب، وليت لسان المعتوه لا يخلط بين الحاء، والهاء:

- نحن لا قبل لنا بمهاجمة الشاه. الشاه أمريكا. وهو يملك أشد

الأسلحة فتكاً، ومثلما هدده حكومات من قبل تهدده حكومتنا الآن.

(وبعد لحظة هدوء، وهي تهز رأسها) هل معقول يقسم الرئيس على

الانتقام علناً أمام الناس!

- مثل الذي يضرب في الهواء!!

بانزعاج أقرب إلى الغضب:

- لمي لسانك يا ملكة الليل وإلا أخربوك مثل ابن الرواس!

مع ذلك كانت مظاهر القرية كلها تتحول إلى ظاهرة مسلحة. في

المدرسة يتدرّب الطلائع والفتوة. اتّحاد الشّباب. مكتب الفلاحين. وسط هذه الأجواء لشدّ ما خشيت الدّاهية أن تنتقص إحدى النّساء عن عمد أو سهو غير مقصود سياسة الدّولة في أثناء جلسة الخميس، وقد ازداد تحفظها بعد قصّة الشبكة، فأخذت تغلق الباب بعض المرّات بحجّة التعب، وأعدار ما، وهي تدرك جيّداً أنّ الولي لا يتخلى عنها، وآته راض كلّ الرّضا عن عملها، ثمّ صمّمت مغتمة حلول الشّتاء والبرد أن تكون جلسة النّساء كل شهره مرّة بدلاً من الجلسة الأسبوعيّة التي تطلق عليها نساء القرية أمسيات الخميس. وكأنّها، على الرّغم من النّبوءة، تحاول أن تجد منفذاً تستريح عنده، في الوقت الذي بدأت فيه نهر جاسم تحاصر نفسها من جديد وتفقد ذاكرتها القديمة إلى درجة لم يعد أيّ أحد يلتفت إلى مصرع القمر في إحدى الليالي الصّافية حتّى خيل إليها أنّها عبرت حلماً إلى دنيا الواقع كأني حدث من الأحداث الكثيرة التي تختلط في الذهن.. إنّها كثيراً ما تحلم، فتسأل نفسها بعد يومين أو ثلاثة أين رأت ما رآته، فليس بالضرورة أن يكون القمر مذبوحاً في السّماء، لعلّها لحظة ما هوّمت في ذهنها، إلى أن أدركت الحقيقة من دون شائبة، وما هي بضعة أيّام تمر على يوم الشنق المشهود في أمّ البروم، وإذا بنذر أمّ مصعب يكشف عمّا التبس عليها بين الواقع والحلم. لقد أدّت نذرها في الضّريح ثمّ طلبت من الدّاهية أن تصحبها إلى البيت. هناك في غرفة الاستقبال التي خلت من الصوّر السّابقة

انبسطت أمامها السّماء، وانكشف الغطاء. طاهرة والله العظيم طاهرة.
وقطع الله لسان من يمسك بسوء، فحجب الغيب لا تنكشف إلا لحبيب
من أحبّاء الله أو وليّ من أوليائه:

- إمّا أن أكذب أو تخدعني عيناى أو هي هلوسة مرّت.

- حاشاك من كلّ ذلك.

من دون مقدّمات تزيح السرّ الجاثم على صدرها:

- ألم ترى ليلة الأربعاء شيئاً ما فى السّماء يا ابنة الوليّ؟

حيرة على شفّتي الداهية، وسؤال:

- خيراً ماذا جرى؟

- يبدو أنّي الوحيدة التي رأّت ما رأيت. (ونفثت الهواء، لتأوي

قليلاً إلى الصّمت) حلم أو هو خيال.

أدركت أنّ في الأمر شيئاً ما، فغاصت بعيني محدّثتها:

- في بعض ملامح يوم الأربعاء أن آدم طُرد فيه من الجنة، وفيه

حدث طوفان نوح العظيم.

ازدردت أم مصعب جرعة ماء، وتابعت:

- غادرت فراشي لقضاء حاجتي، وعندما تطلعت في السماء

الصافية، رأيته كالطير المذبوح ببركة دم. تطلعت فيه فراودني خوف.

استعدت بالله من الشيطان الرجيم، ثم رجعت ناسية أن أقضي

حاجتي، وكلّ ما حولي ساكن. الهواء الذي ضاقت به أنفاسي،
وسعف النخيل. الدجاج. الغنم. ليس هناك سوى مهمة خافتة من
كلب الحراسة.

هو هو الحلم ذاته، بل هو اليقين ذاته، لكن العجلة لا تدفع
الداهية لتفوح بسرّها:

- وأين كان أخي أبو مصعب في تلك الساعة؟

- في سابع نومة، وقد عز عليّ أن أنغص عليه نومه، وعندما أطل
الصباح، وفات الوقت ظننت أن أمر القمر سيشغل الناس، لكن أحداً
لم يذكر الواقعة، فعلمت أنني كنت أحلم حتى أدركت أحكام
الإعدام، فنذرت لضريح أبيك، حمداً لله على سلامة أبي مصعب
وإلا كان يمكن أن يلفقوا له فرية كالثي ألصقوها بمن نالهم أحكام
الإعدام.

بختام الحكاية تتابع لهاث أم مصعب وكأنها قدمت من مسافة
بعيدة، وليس بعد كل تلك الصراحة من داع للصمت:

- لم تكوني لتحلمي قط، فغيرك رآه أيضاً!

فهتفت الأخرى:

- تعنين أنك كذلك؟

- بالضبط. الحال ذاتها، والرؤيا نفسها. وجدته كالطير المذبوح

يستحم في بركة دم، وربما لم يشاهده أحد غيرنا نحن الإثنان، ولعل
غيرنا رآه فشلّ لسانه الخوف، ومحا الرعب الصورة من ذاكرته:
- في نفسي شوق لتأويله، فأنت ابنة ولي ترين ما لا يراه غيرك.
أغمضت عينيها لحظة دامت سنوات، فذاقت الحلو والمر، ونطقت
بالوجهين معاً:

- سمعت من أبي وهو يتحدث عن دولة القمر، والشمس. القمر
دولة الكفر، وما دمنا رأيناه محسوفاً، فإما تزول دولتهم أو تجري حرب
تسيل فيها الدماء. وجهها ينبئ عن قلق وانزعاج، وهي تقول:
- دعينا من هذا التأويل، فما أشد شوقي للوجه الآخر.

في تلك اللحظة ينسكب الشر في السماء، وينبسط الحلم واضحاً.
سوف يكون هناك دم. لكنه ليس الآن، بل في الزمن القادم البعيد بعد
السماء عن الأرض. وبين الترقب واللهفة كانت أم مصعب تنادي على
ابنتها جميلة لتجدد الضيافة إلى الخالة الداهية. ظلت طوال اليوم تفكر
بالوجه الآخر النقي للنبوءة. بعض الأمور قريبة منا وبعيدة عنا، وقد
نسناها لقربها الشديد، ألم تنس أشياء تخص عبد، ثم تتبه من غفلتها.
أين كانت الداهية كل تلك السنين عن الصبية الشقراء ذات القوام
الممشوق، والعينين الشهاولين، وفيها واحة أمان من الزمن، وأمها
أصبحت قريبة من القلب تفضي بأسرارها للداهية، فكانت إليها

الأقرب بعد الحاجة، وما رأته سواء أكان حليماً أم واقعاً، فإنه لا ينكشف إلا لطاهرة مطهرة، والله يعلم بظاهرة الداهية، ولو لم تكن أم مصعب كذلك لما طالعتهما صفحة السماء. في تلك اللحظة، وقد انسكب الشر على صفحة السماء، خطرت جميلة داخل الغرفة تحمل صينية الضيافة، ومن الحكمة أن تبصر الداهية بوجه جميلة نبوءة السماء بملاحمها الجديدة، وتغفل عن الأرض، فلعل المعتوه يقصد بكلمة (الهرب) العرب حيث يسمعون نتردد في التظاهرات، والإذاعة، وربما أبصر الطلائع والفتوة يمرون من الشارع حاملين بنادقهم، أو وقعت عيناه على الجيش الشعبي الرابض خلف طريق البردباباته ومدافعه، فلهج فمه بالحرب، أما نبوءة السماء، فإنها بعد أن أطلقت صورة جميلة، يمكن أن تصب بمجرى آخر. لم تتأخر في عرضها، ففي اليوم التالي زارت صديقتها الغالية أم مصعب. جلست في الموضع ذاته، وانبسطت أساريرها بالبشرى، فنطقت بعد الصلاة على النبي، وعيناها تتابعان جميلة، وهي تغادر الغرفة:

- ما شاء الله أصبحت امرأة كاملة.

- شاطرة معظم أعمال البيت تقوم بها عني.

- يا خسارة لو كان في نهر جاسم مدرسة ثانوية.

- الإبتدائية تكفي، فالمرأة أولاً وأخيراً لبيتها وأولادها.

- جمال وشرف وأخلاق. الله يسعد من تكون من نصيبه. والله هي ملكة من تكون كنتها جميلة.

قالت ذلك وقد اطمأنت إلى أن أم مصعب أدركت قصدها:

- كل شيء قسمة، ونصيب.

تجاوب من أم جميلة، فما أسعدك يا داهية، ومنية القلب أن يخلو الجوّ من منغصات، ويصفو الودّ كالنسيم العليل:

- هل لأبناء عمومته ميل إليها؟

- ذلك بيدي أولاً ثم بيد أبيها.

بغير ماتردّد، كأنما دفعته مجارة أم مصعب:

- ما رأيك في عبد؟

- أنتم سادة الناس وعبد ابن باشا وابن وليّ وأمه الداهية! فنهضت

إلى مضيقتها معانقة، وهي تقول:

- الآن انزاح ثقل عن صدري، وحلت الطمأنينة بعد الوسوس،

ويحقّ لك أن تسألني لم اختصتني أنا وأنت وحدنا السّماء بقمرها

الوحيد، مثلما أنت أم لبنت وحيدة، مثلما أنا أم لولد وجيد، فلم تدلّ

النبوءة على حرب، لم لا يكون عذراء جميلة فاتنة القوام، والحمرة

هي دم البكارة المسفوح ليلة الزفاف! اليقين يملؤها دهشة بين المصدّقة

والتأثرة:

- من غيرك يا داهية يستطيع أن يغير الشر إلى خير.
- إذن نتكل على الله ونقرأ الفاتحة إلى أن يكبر الصغيران.

هكذا اطمأن قلب الداهية ولو إلى حين... الشر انسكب في
السّماء، وخسارة النقل البحريّ، وإن كانت عظيمة، فإنّ الله عوض
عبد بدلاً منها عروساً جميلة، لتعد الخسارة مهراً للغالية، وأيّ مهر
يرخص لتلك العروس التي يمكن أن تعادل بوزنها ذهباً. لقد نفشت همماً
ثقيلاً عن صدرها وإلى حدّ ما سارت الأمور على ما يرام، فرأت كلّ
شيء هادئاً مطمئناً مثلها.

كان كلّ واحد يعيش ساعته، فيشغل بأيّ شيء يلهيه عن الماضي
والمستقبل خلال ساعات النهار، ينهك الفلاحون والمزارعون
بالأرض، ويقضي التلاميذ منتصف النهار في المدرسة، ثمّ ينصرفون
إلى التدريب، أو التجمّع في المقرّات، ولا يعودون إلا قبيل المغرب. وفي
المساء تشاهد العوائل مباريات المصارعة، وكرة القدم، إذ يظل أبطالها
مدار الحديث إلى النهار التالي، حتّى إذا طلعت، فجأة، جنازة لجنديّ
قتل في كردستان، انشغلت بها القرية يوماً أو بضعة أيام، وبعدها
لا شيء. وقد جذبت المصارعة عبد مثلما استهوت أترابه، أمّا الداهية
فكان يكفيها المذياع كبير الحجم، القديم الذي ورثته عن الباشا وعزّ
على المرأتين أن تستبدلاه بمذياع صغير الحجم حديث. الحاجة تذكر أن

الباشا ابتاع المذيع قبل أن يقتني والدها جهازاً يشبهه، ولولا عبد الغالي وإلحاحه على مشاهدة مباريات كرة القدم، ومتابعة المصارعة، ذلك الحدث الجديد الذي جاء به الإنقلاييون، لأجلت ابتياع التلفزيون إلى وقت آخر، وربما أعرضت عنه بالمرّة، لكنّ الداهية لا تنكر أنّ ذاكرة نهر جاسم اختلفت خلال السنوات القليلة الماضية، وذاكرتها بدأت تتغيّر أسرع من الزمن ذاته، أمّا مظهرها فقد بدا بشكل غير مألوف، ولم يبق من علامات الماضي سوى معالم محدّدة غير المذيع الأقدم والضريح، وربما الثياب السوداء، وإصرار المرأتين على التمسكّ بهما لآخر يوم في حياتهما، والحق، مع كلّ ما كانت تراه، وتشكّ به إلى درجة اليقين، فإنّها كانت تهمّ أن تلحق الزمن قبل أن يغادرها، وكأنّها تحاول أن تخسر كلّ شيء وتربح كلّ شيء في الوقت ذاته...

فلم تكّد تمضي سنتان حتى عادت بعض الهواجس تعشعش في القلب. سنة أو أكثر ببضعة أشهر، ويبلغ عبد السنّ التي تؤهّله للعسكريّة. لقد حافظت عليه حين قلبت النبوءة إلى فرح، وهي لا تشكّ في ذكائه، بإمكانه أن يستمر في الدراسة، ويجتاز البكالوريا إلى الجامعة. لو ظلت القوانين كما هي عليه، فيعفى من الجنديّة اليتيم لأمه أو الوحيد لأبويه، لما أعارت للأمر أية أهمية، لكنّ العهد الجديد بالغائه

القوانين السابقة جعل الأمر متشابهاً بنظر الداهية. سوف ينجح عبد، ويدخل الجامعة.. وماذا بعد الجندية؟ كيف تحتمل فراقه؟ ومن أين تأتي بالجلد؟ طوال الأعوام السابقة منعه من العنف. عارضت أن يدخل الطلائع والفتوة، فكاد يكون من بين أترابه الوحيد الذي لم يرتد البدلة الخاكية المرقطة أو ينضم إلى الإتحاد الوطني. كانت تشاهد الجثث القادمة من الشمال، فتزداد قلقاً.

أكثر من أربع سنوات انصرمت، كانت خلالها، ترعى حلمها الجديد الذي قطفته من سحنة القمر، فلم تغمض عيناها عنه لحظة واحدة. تبقى قضية العسكرية، وقد حان وقت القطاف، إما أن يكمل عبد الجامعة، فتزوجه، وهو طالب، ثم يأتي دوره، وذلك بلاء بعيد يمكن أن يتحقق في أية لحظة، وإما أن تجوز له على الإعفاء لسبب ما، ثم تزوجه، وما أكثر الأسباب الموجبة للتسريح من الجيش، إذا ما سالت النقود، وما أكثر أبناء الأغنياء الذين يسرحون بأمراض، وبإمكانها أن تصرف وتبذل بعدئذ، لا يهتمها سواء أتم عبد الدراسة أم لم يكمل، عنده المكبس، ووارد الأرض، وزوجة مثل جميلة، هكذا تقرأ كل يوم صحيفة القمر، والمشهد الذي تراءى لغير العارف شؤماً، لكنه ينطلق بعينها إلى ما تسعى نحوه الآن:

- اليوم إذ يأتي إليك عبد أخبريه أنني استشرتك في أمر زواجه،

واتفقنا أنا وأنت على جميلة بنت أبي مصعب.

الخبر أعاد إلى الحاجة بعضاً من ذاكرة مفقودة، استرخت تتوغل في

الماضي السّحيق وحده:

- هل يتفق ذلك قبل أن يأخذ الله أمانته.

- لك العمر الطويل (وأضافت) لا فائدة من أن يكمل المدرسة،

فقد تساوى في الوقت الحاضر خريج الجامعة والأمّي، كلاهما يذهب

إلى الجنديّة، ولا بد لعبد من أن يحصل على الإعفاء، فالأفضل له أن

ينصرف إلى أعماله وحساباته، وليس مثل الزواج أمر يؤدي إلى

الاستقرار.

وبدا أن الحاجة استعادت وعيها تماماً، ما دام عبد محور الحديث:

- لا بد من الإعفاء، وإلا فالله هو المعين، وما عليه في هذه الفترة

إلا أن يراقب بقلب مفتوح ليعرف طبيعة العمل ويزداد خبرة.

- العبد يسعى والله المعين.

وفي هذه اللحظة بالذات يخطر ببالها سعد التمر ثانية. وهي، وإن

كانت ترفض التنازل متشبثة بكبرياء أصيل، وحفظاً لعهد المرحوم

الغالي الذي ترفع عن أهله، ولعلّها محته أنه يحتقر سعداً، ويأنف من

التعامل معه، حتّى أنّ جهودها في الجمع بينهما لم تثمر إلاّ عن بضع

زيارات معظمها في بيت الباشا، غير أنّها هذه المرّة لن تنزل عن كبرياتها

لأمر يعينها أو لمصلحة يمكن تحمّل خسارتها. يمكن أن تقبل الدلّ والمرّ
والمنة من أجل عبد، مثل الدواء المرّ نتاوله ما دام فيه الشفاء، وللعمّ
علاقات كثيرة مع المسؤولين، وييده حلّ العقدة، وإذا كان بدا ميّلاً إلى
العزلة أيام الشبكة خوفاً على سمعته، ونفسه، سوى أنّها قضية بعيدة
عن السياسة، هذه المرّة، ولو لم يتخلّ ابن الرّوأس عن النكتة،
ويتعلّق بالتأمّل والسّرحان، لطلبت منه أن يسعى في الأمر من دون
اللجوء إلى العمّ سعد. مهما يكن من أمر فهي بحاجة إلى نصحه أو كلمة
منه، ولا تظنّه ييخل عليها بشيء، وإنّ كان قد استسلم للجدّ
والذهول قبل هجرته الأخيرة للصمت، فيطالعهها بطلبه المفاجئ:

- يا داهية يا بنت الولي. ليس من المعقول أن أوّدعكم صامتاً، ولن
أطلب منك أيّ شيء، سوى أن تقدّري الظروف. لقد خدمتكم وأنا في
أوج صباي، وها هو عبد أصبح رجلاً كاملاً ما شاء الله، فليتكفّل
بالمكيس، وبقية أعماله، أمّا أنا فلا يسعني إلا أن أجلس في البيت
وأرتاح.

لكل شيء نهاية. والجدّ يبين على وجهك ناشراً كشياب ملونة في
مأثم. كنت تلومني على هجران النكتة، وها أنت تأوي إلى الجد كما لو
كنت تلوذ بظل وارف في يوم ساخن. عمر طويل عرفته منذ اليوم
الأول بعد مصرع الغالي، ومن غيرك يستحق أن يحلّ مراقباً، وكتاباً

بعده؟ خبرة كاملة في العمل ، ودنيا تزهر بالنكات والسخرية ، حتى زوجتك اعتادت طريقتك بمرور الزمن بعد أن كانت تنزعج من سخريتك. جيل من الشباب تقمص روحك فبهرتهم طريقتك في الكلام ، قلدوك بغمزة حاجبيك ، وهزك كتفيك ، وغمزة الحاجبين ، ما أصعب الضحك يا ابن الرواس ، وماذا أقول ، غير أن أواسي نفسي :
- في هذه الأيام يصعب أن نعثر على الأمين الذي يخاف الله ، وأنا يا ابن الرواس في قلق. ماذا يمكن أن أفعل ، هل يستمرّ عبد في المدرسة ، وما فائدة الدراسة ، إذا كانت النتيجة أن يصبح جندياً ، ولا أظن حرب الشمال ، سوف يأتي عليها يوم تنتهي.

صمت يفصل بينهما لحظات ، ثم تواصل :

- أنا أمّ يا ابن الرواس أمّ.

كمن تخاطب صورة من حجر تسمع ولا تحس. كم بعثته باسم عائلة المرحوم الباشا لتعزية أйма عائلة مهاجرة عن نهر جاسم أصابتها الأيام بمكروه ، وحين يعود يصف بدقة طريقة الموت ، والقتل ، وهي اللحظات التي ينحاز فيها بعيداً عن النكتة ، والسخرية ، مثلما هو الآن في هذه الساعة ، ومنذ سنوات بعد أن غزا الجند قسماته ، وانتهى به المطاف بين المكبس والبيت ، وازناً كلامه بميزان ، تكفلت الداهية وحدها بالعناء ، فلم تخاطبه عن عبد ، والحرب ، وهو أصم لا يرى

ولا يسمع :

- ماذا قلت. فأنا الآن في حيرة من أمري !

- من الآن إلى أن ينهي عبد الجامعة مشوار طويل ، سنوات. عندئذ

لكل حادث حديث.

- هذا إذا نجح وعبر البكالوريا.

- عبد ذكي وليب ما شاء الله.

- لكن إذا تركت العمل فلن يأتي أحد غيرك ، وسيضطر عبد إلى

ترك الدراسة ، ولا مجال أمامي إلا أن أسعى له لكي يحصل على إعفاء.

صمت آخر لا يطول.

- وكيف لمن شارف السبعين أن يستمر.

- تعرف أنني لا أستغني عن مشورتك ، فمن تظنه ينفعني ؟

وهو يتطلع بعينها ، قبل أن يقول ببرود :

- أنت يا داهية مثل الذي يجري الماء من تحت رجليه ويشكو

الظما ، ثم تظنين أن ابن الرواس بيده كل شيء ويستطيع أن يفعل

المحال.

- لم أفهم قصدك بعد.

- نعم كانت لي معارف ، لكنني بعد أن خرجت من التحقيق...

قالت مقاطعة :

- الحمد لله صحيفتك بيضاء، فمن يجرؤ.

- لكنني كالتى تُتهم بعرضها باطلاً، وتشيع حكايتها في الناس،

فماذا تنفع براءتها فيما بعد.

لم يكلمها بهذه الحدة من قبل، أبداً، ولو بعد خروجه من المعتقل. وقد فاضت نفسه بكل ما تجيش به، أتراها لحظة الفراق التى لا تبقى ولا تدر؟

- أفهمت الآن قصدي؟ سعد النمر عم عبد، التاجر المعروف

صاحب الأموال والأملك والعقارات، ربيب المحافظ، وصديق مدير

التجديد، وله علاقات معروفة بمسؤولي الحزب، فما الذى يستطيع أن

يفعله ابن الرواس إذن؟ (و حين همّت بالكلام واصل متجاهلاً) يا

داهية أنا أفهم قصدك. يصعب عليك أن تتنازلي وتذهبي إليه، لأنه

سحب يده من قضية النقل البحري. جبان ثعلب. يحق لك أن تسميه ما

سئت. أنا وحدي تحمّلت أعباء التحقيق والسين والجيم، وخضعت

لاختبار لاناقة لي فيه ولاجمل...

-ومن أدراك أنهم لم يحققوا معه؟

- أنا أتكلّم عن نفسي. أخرس أطرش. أبكم. ولو لم أرد أن أستريح

وأحرّر من الشغل لما فتحت معك الموضوع، ولما تركتك تنزّلين عن

كبريائك لسعد النمر. لانتسى أنه يعرف مثلما يعرف القاصي والداني

أنك حاولت أن تقرّبي بينه وبين زوجك الباشا، لكنّ رتقا فتقه الزمن لم يكن بالإمكان إصلاحه بسهولة، وأظنّ سعداً سيذكر لك فضلك.

قالت بسخرية:

- أراه فعل ذلك في قضية النقل البحريّ.

- آخر ما أقوله لك إنسي النقل البحريّ، أمّا في غيرها فلا أظنّ

سعداً يتردّد.

لم يبق أمامها إلا أن تأخذ الأمر على عاتقها، وتباشر مشوارها الجديد، ففاتحت الحاجة الكبيرة التي دفعها الاهتمام بالأمر إلى أن تتحمل على آلام المفاصل، والروماتيزم، ومرض الضغط، وترافق عبد وأمه إلى البصرة، حيث يسكن سعد النمر. كانتا تراهنان على رابطة الدّم وحدها، قال النمر - كما يقول المرحوم الحاج عباس - ما هم إلا أجمة شوك، شاءت القدرة أن تنبت وسطها زهرة واحدة نقيّة هي الباشا. لثيم. جبان، ثعلب، أمّا عبد، فيبدو أنّه أعجب منذ اللقاء الأوّل بعمّه. كانت مناسبة قرّبه منه. رآه، وهو صغير، ورآه بعد ذلك، ولم تحتف الصّورة من ذاكرته، لقد وجدته في هذا اللقاء غير بعيد الملامح من هيئة المرحوم أبيه، إذ قال لأمه فيما بعد:

- لولا رشاقة أبي، ووسامته، والسّدارة على رأسه، لظننت عمّي

صاحب الصّورة!!

فردت بمكر:

- لن تجد في عشيرة النمر كلها شخصاً مثل أبيك الباشا.
وقالت الحاجة بصوت لاهث كمن يتسلق منحدرًا عاليًا:

- إذا كانت حاجتك عند الجرو سمّه كلب!

ومن حسن الحظّ أنّ كل شيء سار على مايرام. سعد النمر استقبال عائلة شقيقه بما يليق بها، وأعربت زوجته وبناته - خاصة الكبرى طالبة الجامعة - عن فرحهنّ بالزيارة، والأهمّ أنّ العمّ استوعب الطلب، وأكد أنّ عبد بمثابة ابنه، وأبدى من الاهتمام ما بعث الراحة والإطمئنان في نفس الداهية، ولم يغفل أن يلمح من طرف خفيّ إلى أنّ الوضع ربّما يتطلّب بعض الهدايا الثمينة لمن بيدهم الأمر، وتساءل باهتمام:

- لكن لم لا يستمرّ عبد في الدراسة، ليكمل المرحلة الجامعية،

حينذاك نجدّ له في السعي للإعفاء عن طريق المعارف والأصدقاء.

وسارعت الداهية قبل أن يندفع عبد:

- ابن الرّؤاس سيترك العمل، ولعلّني لا أثق بأحد.

فأطرق لحظة ثمّ تساءل:

- هل هناك من شيء.

- الرّجل شارف على السبعين، وبدا يظهر عليه التعب (وأضافت

غير مقتنعة بما تذكره) بدأ ينسى ، وآفة الكبر النسيان.

فهزّ رأسه يؤكد اهتمامه:

- الواقع لا بدّ لعبد من أن يستلم عمله ، فيكتسب خبرة ، ويباشر

الإشراف على أمواله بنفسه.

سارع من دون أن يلتفت إلى الداهية:

- يا عمّي القوانين كل يوم تتغير ، وربما من يدري بعد سنوات لن

يسمح للمرضى وذوي العاهات بالحصول على الإعفاء.

كانت الداهية تحاذر من أن يشطّ عبد إلى السياسة التي يتحاشى

النمر الخوض فيها ، فيفسد كل شيء. الآن أفضل. قد تتغير القوانين ،

وقد يتغير أصحاب النمر أيضاً. المهم أن لا يشطّ لسانك يا عبد:

- عدا ذلك يا حاج إن أمواله في بيروت ، وتحتاج إلى متابعة ، وأظنّ

أنّ من الأفضل له أن يسافر ليطلع على كل شيء.

قال مؤكداً:

- أجل فأجواء بيروت بدت تتقلب ، والوضع هناك غير مريح ،

ولا بدّ من نقل آية ممتلكات إلى أماكن أخرى أكثر أمناً في أوروبا.

نهاية المطاف تحقق للداهية ما أرادت. عرض عبد على لجنة طبيّة

عسكرية أثبتت عجزه عن الالتحاق بالجيش لأمراض منها الكلى

وتضخم الطحال ، وفقر الدّم ، مع ذلك لم تتزعزع صورة النمر في

ذهنها. شيطان. جبان. لثيم، وعندما فاجأها عبد ذات يوم بأول تمرّد،
وهو يصرخ بوجهها:

- تذكّري لولا عمّي لما تخلّصت من الخدمة العسكريّة.

لعنت عمّه، وجميع آل النمر من دون استثناء. كانت كاللبوة
المهتاجة:

- لولا النّقود التي دفعناها رشاوى لما حرّك عمّك ساكناً. ملعون
أصلك يا ابن أجمة الشّوك!

عندئذ أدركت أنّها تعرّضت للريح والخسارة في وقت واحد، كما
هي عليه الحال في كلّ مرّة. رجحت عبد وخسرته في الآن نفسه!!
إذ لم يمض وقت طويل حتّى خرج عبد عن طوعها...

ذلك الوقت كانت عواطفه تنحى باتجاه ينأى بعيداً عمّا أرادت
الدّاهية. كان يهّمها بعد حيازة الإعفاء أن تعلن خطبته على جميلة بنت
السيد عبدالعليم، لكن يبدو أنّ كل الترتيبات بدأت تنقلب رأساً على
عقب. الزّمن يتلمّض من جديد، ويتربّص، وهي تدرك تماماً أنّ جميلة
لم تكن بعيدة عن عبد. ويوم عرضت الحاجة عليه الفكرة احمرّ وجهه
كالعذراء، ولاذ قليلاً بالصّمت. فليكن. إنّ القسمة تجري وفق رغبة
الدّاهية، وخياله يتعقب صور الماضي. هكذا تصبح جميلة محور
اهتمامه فجأة، ولعلّه يعثر في صور الماضي على شيء مثير غفلت عنه

عيناه منذ الطفولة ، فتهبّ رائحة لندبة انطبعت على زندها الصّغير
البضّ. أيّ لقاح هو الكوليرا أم الجدري. بالقرب من الشريعة تهادت
بزندها المكشوف ، فنقر ديك ذو ريش أحمر أثر الندبة ، فصرخت من
الألم ، وكنت أنت تركض خلفه تهتم بدبجه انتقاماً للصغيرة ، ناسياً كره
النسوة لأمها...

وماذا عن عهد المدرسة؟ صبية شقراء مدللة ، كادت تصافح رئيس
الجمهورية ذات يوم. ليس في حياتها ما يثيرك ، وكنت تراها كل يوم مع
خمسة تلميذات في المدرسة. بدت العائلة معزولة عن أسر نهر جاسم ،
ماعدًا أمك الداهية التي لم تبين لأم مصعب كرهها ، معلنة أن صاحب
الضريح لا يطرد أحداً من حضرته. ثم انقلبت القرية ، وغيرت الداهية
رأيها ، فتعلقت بآل عبدالعليم ، واختارت لعبد ابنتهم جميلة. ودفعه
الفضول إلى أن يتمعن خلال لحظات عابرة بوجهها وقامتها حين تقع
عيناه عليها. مجرد رغبة في أن يحتويها ، وربما تمادى ، وخرج عن حيائه ،
فلم يعد يحمر وجهه من لقائه العابر بها ، ثم تجرأ وسار خلفها. التقطت
عيناه الطريق حذراً من أن تقع عليه عينان ، وعندما خيم الظلام تسلل
من البيت كما هو الأمير العاشق الذي حكى عنه الحاجة. في الموعد
المتفق عليه وجد باب المنزل الخلفي مفتوحاً. بيده عظمة رماها لكلب
الدار ، فكفّ عن التباح. نقيق ضفادع. عواء عن بعد. صرير جندب.

أصوات تدفعه إلى داخل الغرفة حيث الأميرة جميلة تنتظره على السرير، فأخذها بين ذراعيه، وهوى بشفتيه على شفثيها...
خلال لحظات مرّت الرؤيا العابرة، فأنكشف له جسدها الأشقر البضّ، وصحا على أشعة الشمس تتسلل وحدها إلى جبينه. كلّ شيء كان يمكن أن يجري وفق تلك الصّورة التي تجلّت في حلم تلاشى من تلقاء نفسه، وقبل أيام فقط، فتحت له الدّاهية باباً آخر، آل النّمر. بدقائق تنقلب الأمور فيجد في نفسه القدرة على التّمرد، والوقوف بوجه الدّاهية:

- عبد عليك أن تزور السيّد عبدالعليم.

- ماذا؟ هل هناك مناسبة؟

- زيارة الجار لا تتطلب مناسبة، فنحن نعيش هنا في القرية كالعائلة الواحدة.

والأم الكبيرة تعقب:

- يا ولدي عبدالعليم جار وأخ. لم نرمته ضراً، وهو صاحب غيرة.

آه لو تعلمين يا أمي الحاجة، لا تتعجلي، فسأفتح لك قلبي، قبل الدّاهية، في الوقت المناسب، وللقلب حالات، يدل عليها الحال، ولو كنت شاعراً لقرأت لك قصيدة، فتكتشفين من تلقاء نفسك أنني أحب،

وأفعل ما يفعله بطل قصصك الأمير حين يتسلل إلى غرفة حبيبته ست
الحسن والدلال ، ولكني يا أمي الحاجة أزعل مع نفسي في النهاية ، فما
مرة إلا وبطل القصة العاشق ، يخرّ صريعاً بسكين غدر.

تلك الأيام كادت الداهية تعلن الخطبة غير منبالية بتمنع عبد ،
عادته بعض الخجل والتردد لتعلقه الشديد بها وتخوفه من حياة جديدة
لم يألفها من قبل. مذكرة إياه بين حين وآخر بآل عبدالعليم ، متخذة
من نقرة الديك لزند الصغيرة ذي الندبة الحمراء وحماس عبد الصغير
للانتقام منه علامة تدل منذ ذلك الوقت على المودة ، لولا أن حدث
أمر جديد أرغمها على أن تترث بعض الوقت ، ففي إحدى الليالي ،
شقت صرخة ما ، هدوء الليل ، ولم يمض وقت طويل حتى جاء الخبر
ينعى ابن الروّاس ، مات الرجل ، ومعه ماتت ضحكة القرية المؤجلة ،
قبل موعدها المحدد. وما عرف عنه أنه منذ ترك العمل في المكبس ، هجر
الكلام بالمرّة ، لا مع الغريب أو القريب ، ويبدو أنه هرب إلى الموت
حين ضاق ذرعاً بالصمت..

الليلة ذاتها قبل أن يغادر المنزل تمعن طويلاً بزوجته أم الروّاس ،
والأولاد. لم تطرف عينه قيد شعرة. وعلى شفثيه ظل الصمت يومض
كمرأة صقيلة تنطق من غير ما همس. دقائق بقي على هذه الحال ، ثم
غادر البيت وسط الظلمة موغلاً في البستان. كان يخبط في العتمة بين

النخيل، فيصمت كل ذي حي عن النطق: الضفادع تهجر النقيق.
الجنادب تكف عن الصرير. وتحرس الذئاب البعيدة، وكلاب البساتين،
وفي الطريق لم تجرؤ آية سيارة على المرور. صمت مطبق يمتد إلى أعماق
بعيدة ربما يلقي بظله على البصرة كلها، وإيران والخليج، ولو انتبه إليه
حينها أحد من الناس لظن أن عاصفة ما ستهب، وتطيح بأي شيء
يعترض سبيلها، لا شبيه لذلك الصمت، أخيراً تهادت من بعيد أغنية
كادت تنساها الذاكرة. أشبه بالتوايح الذي أطلقتها خادم سوداء في طري
المستر دوسن ذات يوم:

وادعتها والدمع من عيني يسيل

كالت الله وياك يا نعم الخليل

اذكر الماضي ولا تنس عهدنا

كان يغني أمام رؤوس أطفال تلمع كعيون القطط والتمور، ثم
تدور حوله تناغيه، وما كاد يختم أغنيته وتختفي العيون ذات البريق،
حتى عادت الضجة تحفر في الظلام من جديد. نقيق. عواء. صرير.
سيارة تمر عند الدرب. رصاص يئز من مكان ما. في البدء ارتسمت
البسمة على شفتي أم الرؤاس، وشكت، كما هو الحال عليه الأولاد
أيضاً. هل عاد إلى الكلام ثانية؟ فجأة ارتد كل شيء على نفسه. وخيم
الصمت بعد لحظات. وقتها خان أم الرؤاس الصبر، فانتزعت روحها

من الخوف، وتجرأت على الخروج. كانت تحمل فانوسها، وتشقّ البستان إلى منبع الأغنية الذي تهادى منه صوت زوجها قبل لحظات. وجدته جالساً على حافة المسبح، يتأمل في الأشنات، والطّحالب الخضراء. عيناه تحفران الماء كما نطق عنهما وعن وجهه ضوء المصباح، وحين وضعت يدها على كتفه، انكفاً فجأة على وجهه دون حراك، فكانت الصّرخة التي شقت الظلام، واكتفى بها الصّمت عن أية زويدة تخلفه!

مات ابن الرّوّاس! ولم يشك الرجل من علّة أو مرض، ولعلّ أحداً لا يصدّق أنّه من القلّة النّوادير في نهر جاسم الذين لم يزوروا الطيب طوال حياتهم، ولم يلقح لأيّ مرض سواء الجدري أم الكوليرا، ولا حتّى ألم الأسنان!، وقد عرف الجميع أنّه مات على حافة المسبح المهجور وعلى شفّتيه أغنية قديمة كادت تنسى! ومن يبغض، وأهل الخبث، وكثير منهم سمع به ولم يره، يقولون آخر عمره فكّر أن يصبح مغنياً فجرّب صوته قرب المسبح بدلاً من الحمام على اعتبار أنهما مكانان مناسبان للمطربين المبتدئين.

وبسبب الوفاة اضطرت الداهية إلى أن تؤجّل الخطبة بضعة أشهر، وكان عبد يشعر بالضيق لوقوفه في العزاء مع آل الرّوّاس. ما أثقل الأيام الثلاثة، وفكره يتشتت بين النواح والحزن إلى مكان آخر حيث يخفق

القلب، وتومض الأيام الحلوة بالفرح القادم، وحين آوى آخر ليلة إلى فراشه، ظل يطارد النوم، فيهرب عنه إلى جزيرة بعيدة قاحلة موحلة. هناك وجد المشنوقين الثلاثة والمجنون واقفاً يصرخ، وعلى صوته الحاد يتقاطر الناس من شوارع وجزر وأماكن بعيدة، رأى خلفه الطلاب، والمعلمين، والعمال، والموظفين. كل من هب ودب، يرددون كلمات الفيل، وبين النخيل في مكان خفي وسط السعفات يدلع ابن الرؤاس لسانه، ولا أحد يراه سوى عبد. في أقل من لمح البصر راح يبحث عن منية القلب. لعلها تكون بينهم. المعتوه زار العزاء ثلاث مرات واختفى. تناول طعامه بثواب ابن الرؤاس، وغادر من غير ما ضجة. ليعود ابن الداهية يبحث ثانية عن منية القلب. مر بالمعتوه، ووجوه تصرخ، وأوماً لابن الرؤاس بإصبعه فوجده غادر المكان، ولسانه وحده معلق بين الخوص الجارح.

كانت تنزوي في مكان ما بين الحشد. تنظر مثل الآخرين إلى مكان ما، وحالما لمسها دبت فيها الروح. تحركت الدماء عنيفة في أوردها. ناهدة. وهمست باسمه أيضاً. أخذته بين ذراعيها، وقبلته كاللبوة الشبيقة، فإذا بالمشهد الصاخب يصرخ ويزغرد بالآن نفسه. ظلا بين الزغاريد والصراخ يلتحمان حتى وصلا الذروة، وفي الصباح، وقد كادت الذاكرة تحونه حول الحلم، لولا بعض الأثر العالق في ثيابه،

لكن خجلاً راوده في أن يستحم، عندئذ انطلق كالعصفور الحبيس.
كان كمن يكتشف شيئاً جديداً، طوال تلك السنين غابت عن عينيه
ملامح كثيرة. ذهب مع أمه إلى التنومة والعشار، فبدت الدنيا من حوله
عادية، لاجدة فيها. المدرسة المتوسطة ذاتها. المدرسون الجدد. ربما بعثت
على الضجر لولا رفقة حسن له، وقضاؤهما الوقت بالثرثرة عن أمور
كثيرة أكبر من عقليهما وقدراتهما. تعبيد الطريق. الاتحاد الوطني.
مدرس الجغرافية، وحديثه عن تباين الأرض. البحار. الأنهار. الشعر
واللغة. الحساب، والذهن الشارد. وفي المنزل الكبير، بعد دوام المدرسة
كل شيء متوفر. تلفزيون. مذياع. تحف تعود إلى زمن الباشا جلبت من
لندن، وبيروت، والبحرين، فتاهت بهما الأمانى أمام أي زائر زهواً.
لكن لم تبدُ الأشياء في بيت سعد النمر رائعة تتلألأ صورها للعيون.
فجأة، هكذا من دون مقدمات، يعرف أن الأشياء تكون أكثر إشراقاً
بوجود ناهدة، والحياة، إن لم تكن كحلم جريء، مربية الليلة
الماضية، تفقد بريقها، وتصير إلى خواء. فأية ساعة مباركة ساقته إلى
بيت التمر في العشار. وأي حزن هذا الذي أعاقه بضعة أيام؟ كان
مصمماً على أن يلتقيها مهما كلف الثمن. يتفرد بها في مكان غير المنزل.
ما أشد الهوة بين الحلم والواقع يوم جلست جنبه، وانحسرت تنورتها
فوق ركبتيها إلى درجة أنه ارتبك، وكاد رأسه يميل للوهلة الأولى إلى

الجهة المقابلة. الإحراج لم يمنعه خلال دقائق من أن يختلس نظرات إلى ساقها اللامعتين، والبارحة، قبل ساعات، ارتمت بين ذراعيه. كل ما فيها ساحر. الحاجب. العطر. أحمر الشفتين. لا يا أمي الحاجة. أصباغ. قشرة خارجية وآه من بنات آخر زمن. ماذا تفعل الأصباغ بمن لا تملك ذرة من الجمال، وبين الحلم والواقع خيط رفيع إن لم يقطعه، خانه الوقت، وخسرت قلعة القلب ملكتها. آلاف العشاق تجمعوا فيه بلحظة واحدة. عنتره... قيس بن الملوح... روميو. وتراءت له الجامعة قلعة حصينة لا تقاوم ثورته الصاخبة. ترجل من السيارة، أمام الباب الرئيس، واستعان بالطلاب فدلوه على كلية العلوم. ثم دخل قسم الفيزياء...

- ناهذة النمر!! -

قالت إحدى الطالبات، وأشارت إلى الشارع الأوسط، وعقبت: - إنها على ما أظن في المقصف الآن. خطأ في الاتجاه نفسه. كان الهواء خفيفاً ناعماً يمر على عينيه فيدفعه إلى حلم لذيذ يتأرجح، كأوراق الأشجار الخضراء يحركها النسيم. هل تواتية الفرصة في اللحظة المناسبة، فيفضي إليها بكل ما يجول في قلبه، أم يتراجع آخر لحظة؟ توقف يستعيد دقات قلبه، ولم ينش لبعض الوسواس. بأي عذر يجيب؟ لو تراجع عن فكرته. وأية موانع يخشى، ودخوله الجامعة يوحي

إليه بأنه يقدر على أي شيء. ألم يكن جدّه الوليّ صانع المعجزات حياً وميتاً! وخاله عبد يقتحم الظلمات، ويركب الليل، وللألم الحاجة حديث تروي فيه عن مآثره الكثير، فيحتقن وجهها، ويتذبذب بين الابتسام والغمّ، وكأنّها عاشت تلك الوقائع، ولمستها بقلبها، وعينيها. وأبوه الباشا غزا بغداد، وأخاف داهية عصره نوري السعيد، فكيف تنقصه الشجاعة، وما قدر أن يدخل الجامعة ليسأل عن طالبة تدرس فيها وكلّ هؤلاء فيه، أمّا الحجل فلا بدّ من التحرر منه. ناهدة (أحبك) تلفت كاللصّ قبل أن يجتاز باب المقصف. كأنّ كلّ الطلاب يعرفونه تلميذاً في الثانوية. حالة ناشزة. يا بنت النمر انتظريني سنة، ثمّ انتقل معك، وحال اجتيازه الباب، وتلفته بحثاً عنها، كانت تنهض من كرسيها، وتخطو مرحبة به، وهول المفاجأة يرسم على ملامحها. وتغلّبت أخيراً على دهشتها، فقالت بضحكة مغناج:

- تعجّلت الدّخول إلى الجامعة؟

أكذب يا عبد. اكذب. ليس هناك غير الكذب. أنت تقف أمام مملكتك الرائعة. القوام المثير. تسريحة الشعر التي بدت مختلفة عن تسريحة أوّل لقاء.. العطر، والجسد البضّ نفسه كان بين يديك قبل ساعات: كنت في شغل هنا قرب الجامعة، فوجدت أنّها فرصة كي أمرّ لأسلم عليك.

تحس ارتباكك، وتشعر بالرغبة في عينيه، وقد تصدق حجته أو لا،
لكنها تعجب بصراحتك، وجرأته. فاتها أن تصدق المفاجأة حيث ظهر
بوجه آخر يوم الزيارة. كان مرتبكاً بحظرة الداهية يبحث في العيون عن
شيء ما، فإذا ما شعر بالضعف والهزيمة لاذ بالصمت أو انتظر المدد من
الداهية، ويظهر أنه انتبه إلى وضعه فلم ينطق إلا بصنع جمل، خالطها
اختلاس النظرات إليها. عبد آخر أمامها، طليق اللسان، يتغلب على
خجله، فتكاد تراه للمرة الأولى:

- معي نصف ساعة مدة الاستراحة فقط.

فيهمس بصوت يكاد يكون مسموعاً:

- خذي العمر كله!

مثل بالون تنفجر حرقه القلب، فيشعر العاشق بثقل يجيش في
صدره. الزيارة إلى الجامعة كشفت عن جرأته، ومقدرته على تنفيذ ما
يعزم عليه، من غير تردد، ومن دون ما فكرة سابقة، وأدرك من طرف
خفي أن ناهدة اهتمت به، وهي تسأله عن الجامعة، ولم يكن في باله
أنها تتفق معه بصدد الدراسة:

- أفكر بتعيين مراقب جديد يكون بأمانة المرحوم ابن الرواس،

ولعلي على الأغلب أعرض عن الدراسة، وأتولى مسؤولية العمل

بنفسي.

- ذلك أفضل ، فليس هناك من يهمله أمرك ومالك مثلك أنت ،
ومادمت حصلت على الإعفاء ، فالأفضل أن تنمي تجارتك (ماذا؟
أتراها تهتم به؟ ولكنه يختار وهي أمامه :
- عجيب وأنت نفسك طالبة جامعية !

- مجرد قضاء وقت. أين أذهب من الملل ، ولا مجال أمامي غير
الجامعة (وأكدت مرة أخرى) ثق إنه قضاء وقت ، ولو كان عندي شغل
مثلك ، لما أتعبت نفسي !

- أتعنين أنك لا تفرحين لنجاح أو تغتمين لرسوب؟

- أبداً لا. مثلك تماماً بعد أن حصلت على الإعفاء. (وصممت
لحظة) أخوأي جلال ، وحسن ، لهما نفس الرأي. سافرا إلى لندن
لدراسة الطب والهندسة ، وكان والدي متيقناً من أنهما بعد سنتين
سيتركان الجامعة ، وينصرفان إلى التجارة ، وفعلاً تحقق ظنه ، وهما
الآن من أصحاب الملايين.

كانت كانت تقرأ لوحة أفكاره. كان يلخص ماضيه ، والحاضر
والمستقبل بنصف ساعة ، أول السر في اختلاف آل النمر أو بالتحديد
بين عمه الذي هام بالتجارة ليحرك من ورائها من يشاء أن يحرك ،
ووالده الذي أراد أن يكون فلاحاً ورئيس دولة ، وامتدّ خياله ، وهو ما
زال في مقصف الجامعة. بعيداً إلى بيروت ، كما لو أنّ الطاولة الصغيرة

التي تفصله عن ناهدة، أشبه برقعة خضراء، تنقله إلى لبنان حيث أمواله، وللمرّة الأولى يفكر أن يصحب معه العمّ النّمر، فيستفيد من خبرته. ظمأ إلى الكلام، ونصف ساعة بدت العمر كله، وحين غادر الجامعة تيقن أنها أنست إليه، وانجذبت إلى حديثه، وللصورة تتجلى معان كثيرة، يدركها بعد اللقاء، وكانت تلك الصّور غائبة قبل لحظات عن عينيه: تلميذات بتنورات زرقاء، وقمصان بيض تنفر منها النّهود، وجوارب تغطّي السيّقان. طالبات الجامعة بأزيائهنّ الملوّنة، والمكياج، وتسريحات الشعر. أين كانت تلك المشاهد عن عينيه؟ وكيف لم يلتفت إليها؟ وها هو يرى ناهدة في كلّ الفتيات، مثلما يجد نفسه تتلجج في كلّ العشّاق، وهناك أكثر من احتمال يرجّح كفته: الغنى، والمستقبل المضمون، وذلك ما لمحت إليه ناهدة من طرف خفيّ.

سنوات طويلة في الجامعة ثمّ العسكريّة، بعدها التخرّج، والبحث عن وظيفة، ثمّ تأثيث بيت. كلّ شيء يسير لمصلحته، وقلب ناهدة... لا يمكن أن يتصوّر ذلك. هاجس واحد يثير قلقه فقط، هو خوفه من الدّاهية. لم تتغيّر لحدّ الآن، على الرّغم من أنّ نهر جاسم نفسها نفضت عنها غبار الماضي، وراحت تستحمّ بدنيا جديدة، فهل لديه الجرأة كي يواجهها؟ وقد صدقت هواجسه، فحالما رجع إلى البيت، استدلت على تغيّره المفاجئ، فشكّت بأمر ما يشغل باله. امرأة عجيبة

تقرأ الصّور والهواجس ! كان يرى الفرح مرتسماً على أيّ شيء :
الأشجار. الماء. الطيور. البرّ المترامي الأطراف. هو ذات الشّعور الذي
راود الأميرة ، في قصة روتها الأمّ الحاجة ، فنذرت حين أحبّت الأمير أن
تقبّل كل ما تقع عليه عيناها ، وما دامت أقسمت ، فقد وقع بصرها بعد
النّخيل ، والصّفصاف والماء ، على شجرة صبار ، فانغرز الشوك في
جسدها البضّ وشفتيها الرقيقتين ، وظلت تنزف ، فكان الشفق من
دمها ، حقاً نهر جاسم وسط الحلقة التي تربط ألمانيا واليابان والجامعة
محور العالم ، ما دامت ناهدة فيها :

- جعل الله كلّ أيامك سعيدة يا ولدي.

قالت ذلك ، ووضعت يدها في يديه ، ثمّ اقتادته إلى غرفة أمّه
الحاجة ، وواصلت :

- أمك مريضة وتريد أن ترى أطفالك ، جعل الله يومي قبل يومها.

- أطال الله عمركما !

- إنّها إرادة الله يا ولدي فهل تحقق أمنيتها؟

ودخلا على الحاجة التي ما زالت راقدة بسبب آلام الروماتيزم
والضّغط. زادتها إرهاباً وفاء ابن الرّوّاس ، فبدأ وجهها ذابلاً
كالزّعفران :

- ها هو أمامك كلميه.

قالت بصوت واه:

- عبد لن يردّ لي طلباً، وهو ابني قبل أن يكون ابنك (وراح صوتها ينحدر ببطء) أهمّ شيء تخلّصنا منه هو الجنديّة، والآن جاء دور الزّواج..!

تراقصت الفرصة أمامه، فاندفع بعفويّة:

- أنا عند الطلب.

تلاًلاً وجه الداهية بشراً:

- أرى أن يوطد عبد علاقته بالسيد عبدالعليم حتّى إذا انقضت

فترة الحداد على روح المرحوم الرّوّاس نكون قد انتهينا من الموضوع.

- والله لن نجد أفضل من بيت عبدالعليم، ولا زوجة لابننا عبد

أفضل من جميلة!

- أريد أن أعرف لماذا جميلة بالذات؟

الحاجة الكبيرة، وهي تعتدل في جلستها:

- بنت أصل. ذات شرف. وأهلها أغنياء مثلنا.

- أتريد أكثر من هذا؟

أقرب إلى السخرية:

- يا داهية ويا أمّي الحاجة: ماذا عن الفرج المحروق، ولؤم

عبدالعليم، والمصائب، وو...

- نحن أهل نتعارك اليوم، وتتصالح غداً، وكان ذلك زمان مضى
وانقضى، والعاقل لا ينبش الماضي.

الحاجة وهي تغالب حشجة في صدرها:

- يا ولدي المثل يقول حتى مصارين المعدة تتعارك مع بعضها.

أما الداهية، فأكدت هذه المرة بإصرار:

- ماذا تطلب أكثر من الشرف والغنى؟

قال على البديهة:

- مثل هذه الصفات متوفرة في بنات عمي (تعمد ألا يعين واحدة)

وهو أقرب إلينا على الأقل من أيّ غريب آخر.

- أعلم أن بعض الأقارب عقارب!

غير أن الحاجة لم تأخذ كلامه بمحمل سوء قط، فقالت بصوتها

المتهدج:

- بنت المدينة التي تربت على الوقاحة ولبس الملابس الضيقة

القصيرة هل يعجبها العيش معنا في نهر جاسم: ألا تسخر منا حين

نأكل بأيدينا...

الداهية تقاطع:

- ما لها نهر جاسم؟ خسئوا والله. لكن هل رأيت ملابس البنات

الفاضحة، اللهم سترك، المهم إن جميلة تربت بين أحضاننا نحن،

ونعرفها مثلما نعرف أنفسنا.

وأكدت الحاجة الغائبة الحاضرة حيث بدأت هواجسها تتبلور مثل

قطعة ملح فينطلق لسانها محتجاً:

- أغرتك أصباغ بنات عمك؟ ولو فعلت جميلة فعلهنّ لبدت ملكة

جمال بحق وحقيقي، تقول للشمس غيبي، وأنا في مملك!

- لا! قولي له يا حاجة: من تستحق غير جميلة أن يقع عليها

الاختيار لتقدم ورداً إلى رئيس الجمهورية.

ملكة القلب تكاد تتهاوى، فهل أدركت الداهية تبدل عبد من

قبل، وهي التي لا تخفى عليها خافية، فاخترت اليوم بالذات،

واتفقت مع الحاجة، لتقطعاً عليه الطريق. الداهية عنيدة تريد العالم

مقلوباً، لم تنأ عن الأقربين، وتبحث عن الأبعد، أليست كخلق الله؟

كان يخشى من ثورتها التي ربطت السفر إلى بيروت، وتحويل الأموال

والأملاك باسمه شرط الزواج بجميلة، كأن آل عبدالعليم الناصريين لم

يعودوا بوجه قديم مشوه وشكل قبيح نسجته القرية حولهم من خيالها

والواقع، وكانت الداهية مساهمة فيه من طرف خفي، وأكثر ما يخشاه

أن تلجأ إلى الدموع، فتظل تبكي ليل نهار إلى أن تلزم الفراش، وتفعل

مثلها أمه الحاجة. لم يصبر على هواجسه طويلاً، فمثلما يخشى انهيار

الداهية يخاف الليل الذي لا يعرف الرحمة. كانت ناهدة تنام ليلة أمس

مطمئنة بين ذراعيه ، ولعل عناد أمه يهدم مملكة القلب ، فكيف يستقبل الليل وفي صدره يتلجلج الكلام ، ولا أحد أقرب إليه من رفيق الطفولة
حسن :

- غداً لن آتي إلى المدرسة فحذار أن تذكر للداهية شيئاً عن غيابي.

- خيراً؟

- سأذهب لأقابل عمي.

- ساخراً:

- هل أنت مريض؟

- أيلوح على ملاحني شيء؟

- ظننتك جئت في مثل هذه الساعة تطلب مني أن أزودك باستمارة

للانضمام إلى الحزب ، وإذا بي أكتشف أنك تعزف على النغمة ذاتها،

سلامة عقلك!

الحب نكتة ، كما هي السياسة عند حسن. دخل الاتحاد الوطني

بنكتة يأمل من ورائها الحصول على امتيازات ، وهكذا الحب :

- دعنا الآن من السياسة والحزب. أتدري لمّ أذهب إلى عمي؟

ما زال متهمكماً:

- الحب هكذا فجأة؟!

- الحب لا يحتاج إلى تخطيط بل يهجم فجأة!

- حسناً ومن هي المحظية السعيدة.

- سأقول لك شرط أن توقف هذا المزاح السخيف. لقد جئت إليك

وعلى صدري جبل من الكلام، لعلّي أجد أذنًا صاغية عندك لا أن

أصمت أنا لتثرثرائك أنت.

- أعدك.

- ناهدة بنت عمّي.

متأملًا قليلاً:

- كلّ أهل نهر جاسم يعرفون أنّ الداهية بصدد خطبة جميلة!

بهزة من كفيه:

- لا أدري لم تصرّ الداهية على آل عبدالعليم؟

- وهل تعرف ناهدة بعواطفك؟

- ربّما، لقد ذهبت إلى الجامعة وقابلتها.

بعد صمت قصير:

- الشيء المحيّر لم اختارت أمك الأبعد، وابتعدت عن القريب؟

- سألت نفسي السؤال ذاته، ولم أجد جواباً، غير أنّ الداهية تريد

العالم مقلوباً، أو أنّها تُعنى بالدفاتر القديمة ولا تهتم بنسيان الماضي.

حسن بعد أن تأمل مرّة أخرى:

- لعلّ الداهية وضعت في اعتبارها أمرين، الفارق الاجتماعيّ

والدراسي.

قضية الدراسة ناهدة نفسها لا تعنى بها، وقد عرفت وجهة نظرها منها، أمّا الغنى، فنحن أغنياء أيضاً.
قد أكون أنا غنياً، وأنت، لكننا نظل فلاحين. لا تكابر يا عبد، بيت عمك انقطعت صلتهم بالقرية منذ عقود، وأصبحوا بعد ١٧ تموز بحكم علاقات عمك بالمسؤولين في عداد أصحاب الملايين، المهمّ قد لا يعدّ هذا عائقاً، بالنسبة لهم، غير أنّ الداهية تريد لك زوجة في متناول يدها وتظلّ هي صاحبة الوصاية والنفوذ.

كان يريد أن يستبق الليل ووساوسه، وفي كلام حسن بعض الغزاء وبعض اليأس، فلم يجد فيه الشفاء، وإن كان جبل من الشكوك والأوهام انزاح عن صدره ولو إلى حين، وفي اليوم التالي حيث أشرقت الشمس بعد ليل مليء بالحيرة والوساوس قصد مكتب عمّه في العشار، والحق أنّ التمر بدأ يألف عبد، ويأنس إليه، خاصة بعد أن توسّط له في مسألة الإعفاء، ولم يخب ظن الرجل في أنّ هناك أمراً ما:

- جئت أشكو إليك أمي يا عمي!

- إنّ للداهية عليك حقاً، فهي ذات عقل راجح، ولا تريد لك إلا

الخير.

والانفعال يلوح على وجهه:

- إنها تريد أن تنفذ عليّ إرادتها كما لو كنت صغيراً من قبل.

- مهما يكبر المرء يظلّ صغيراً بعيني أمّه وأبيه (وواصل بعد تأمل

قصير) تذكّر أنّها مارست عليك الوصاية بعد وفاة المرحوم والدك،

وربّما يصعب عليها الآن أن تتجرّد من كلّ حقوقها بهذه السرعة.

- لكن ماذا أفعل إزاء عنادها إذا أصرت أن لا سفر إلى بيروت قبل

أن يتمّ الإعلان عن خطبتي.

- في هذه الحالة أقول بكل صراحة أمك مخطئة. مسألة السفر لا بدّ

منها، بل لا يلزم تأخيرها إطلاقاً. جوّ بيروت بدأ يتلبّد، ومن الحماسة أن

تؤخر الداهية سفرك، أمّا إذا كنت تريد أن أتدبّر الأمر معها فلا مانع،

عندي شرط أن لا تعرف أنّك قصدتني.

- لهذا جئتك يا عمي.

ها هو النمر يعود. بعد تمرد طال زمنه، وعهد طويل ابتلع

حكومات وأحداثاً، تذكّر النمر أهله، وحاجته إليهم، مهما يكن يظلّ

أيّ منهما النمر الكبير أو الصغير، ابن العائلة العائد، أمّا الحاج عباس،

والحاجة رقيّة، والداهية، وغيرهم فيظنون غرباء عن العائلة:

- حسناً دعني بعض الوقت وسوف يتمّ لك ما تريد.

ولم يكن مخطئاً، فهو على يقين تام من أنّ عبد سوف ينفجر بوجه

الداهية. لقد انتبه إلى أنّ طبيعة عمله في الوكالة وشركاته الأخرى

جعلته يحتك بمستخدمين، وعمّال، وزبائن من فصيلة ابن أخيه،
يرمون ما عندهم دفعة واحدة بصراحة بلا لَفَّ أو دوران، وقد استتج،
وهو الكهل المخنك العارف الخبير بالناس من نظراتهم، أن للفتى رغبة
في إحدى بناته، وهو أمر يتفق مع هواه في أغلب الحالات، ويتجاوب
مع متطلّبات بنته الكبرى ناهدة. عبد قريب العائلة تتوفّر فيه القدرة على
فتح بيت والصراف والسّفَر، والغيش في أوروبا، وبغضّ النظر عن كثير
من العيوب التي ربّما لا يمكنه التخلّص منها على المدى البعيد، فإنّه،
والحقّ يقال، أثار إعجاب ناهدة، بجرأته اللافتة للنظر منذ فاجأها
باقتحامه عالم الجامعة، وهو معنى استشفه الأبّ من خلال تردد عبد
عليه في مكتبه بالعشار، وجهده في قطع الطريق على الداهية.

بعد بضعة أيّام تحققت نبوءة العمّ سعد النمر، إذ انفجر عبد بوجه
الداهية التي لم تكن مستعدّة من قبل لمثل هذا التمرد، لأنّه جاء من
أقرب الناس إليها: عبد السّهل الواضح، والداهية طول عهدها لم
تصطدم بأيّ شيء واضح، فحتّى وقت قريب ارتمت أمامها العقبات
المبهمة، فألفت الظلام، وعاشرت الغيوم، وأدركت عيناها العتمة،
ولاعبت السّحر وكيد السّاحر، ولو سألوا عنها الليل لعرفها بسواده،
وبرده، وضبابه، وكيف فهمته، وألفته. الماضي، والضباب، وماذا عن
الأيّام التي قضتها وحيدة بعد وفاة أبيها الوليّ، ولعلّ قاع النّهر وجذور

الأشجار المخفية أنس إليها، كانت تجهل الأشياء وجهلها بها يجعلها قريبة منها، فتدرك مغزاها، كالحرب التي عاصرتها وهي طفلة، والباشا الذي فهمته وهي بعيدة عنه! ثم تجهل القريب إليها ولا تفهم بضعة منها، فكيف صعب عليها وجه الماء، وانبلاج الصبح، وأول علامات إقرارها بالضعف تمرّد فلذة كبدها عليها. سوف يفوتها الوقت ما لم تلتفت إلى نفسها. كانت تلفّ حيثما يجري الزمن، وتدور مع الأحداث والوقائع، فجأة يطلع عبد، فتعجز عن أن تصدّه، والأسلم لها، بعد إنعام فكر، وتأمّل، إن أرادت أن تتقي ما تكرهه، هو أن تلين لوحيدها، ولو إلى حين، فتجاربه، وتعدّه، حتّى وإن كان ذلك ينال منها هي بالذات، لاشكّ سوف تنتشر إشاعات، وتقولات، يا لشماتة الأعداء، وهم يتشفّون منها بعزیزها عبد، فيقولون إنه ركلها حالما شبّ عن الطوق، ويا لجلها من أمّ مصعب، حقاً إنها لم تعلن الخطبة، لكنّ القاصي والداني يعرف بالأمر.

لقد حسبت، وهي تستعد لأيّ احتمال، أن السّحر أحاطها من كلّ جانب، فلا تنفي التهمة عن زوجة النمر وبناته، كذلك إصبع الاتهام يشير إلى سعي النمر العمّ في قلب عقل الفتى. منذ سنوات وهو يبحث عن شيء أضاعه، ظلّ يسطع في ذاكرته، ويحنّ إليه. في نهر جاسم التقتّه، وفي المكتب عنده بالعشار، وقرأت أفكاره. ربّما كان

يراهن على صعود نجم الباشا في بغداد، فتشمله امتيازات لا تتحقق
لغيره، ومن المحتمل أنه ظلّ يراهن على موت الباشا ليعود إليه كلّ
شيء، عندئذ يربح نهر جاسم كلّها. إنه الثأر القديم، والحلم الكامن
بعيون آل النمر صغيرهم وكبيرهم، تلك الرّغبة قرأتها في عينيه يوم
حدّثها عن بيروت والسّفر. لقاء غير غريب الملامح عليها، ولا تستبعد
أن تكون لعبد فيه يد دون أن يجرؤ على ذكر الحقيقة أمامها. ما دامت
لهم أموال في بيروت، فلا بدّ من السّفر، فما أشدّ شوقه ليكشف
أسراراً وخبايا ما كانت تُعرف. كلّ ذلك ليس جديداً على الدّاهية،
إنّما تلك الرّغبة التي تحبو فترة، ثمّ لا يجرؤ النمر على كتمانها فتلوح
بين عينيه لحظة أو تخطر كالحيال. مسحة على ثنيات جبينه المسافرة مع
السّنين. عودة النمر إلى آل النمر، فهنيئاً لك يا حاجّة رقية اعتكافك في
عالمك العلويّ حيث لاترين، ولاتسمعين، ولتسمع أيّها الباشا الغالي،
وأنت تحت التراب، أن أخاك، وأهلك الذين حاربتهم، وخرجت
عنهم، رأوك عائداً إليهم نادماً وطالباً الصّفح والغفران، لكن ورأسك
الغالي، سأمد اليهم يداً وأقطع عنهم يداً، فالدّاهية وحيدة، وحدها،
ويبد آل النمر سلاح لا تقدر أن تكسره.

رأت أسرار البيت تُنقل إلى العشار، وخفايا الأمور يقلّبها سعد بين
يديه، وسواء قبلت أم رفضت، سوف يسافر عاجلاً أم آجلاً الاثنان

معاً إلى بيروت، فيطلع العمّ على المخفيّ والمستور، وفيما يشبه الحلم
تذكرت أنّها أحياناً تطرف، فقد وقفت مع عبد، الأخ العاشق،
وقست على عبد الابن. دعت في الضريح، وسمعت أباهما ينصحها ألا
تدعو بالخير، والشر معاً، بل بالخير وحده، فأنساها الغضب، لتجد
بعدئذ أن أية دعوى لا بدّ أن يشملها عقابها، وكثيراً ما كانت تحمد الله
وتقنع بالחסائر، فكل مصيبة بالمال تهون.

هكذا تلجلجت أفكارها...

المهم أن يعود إليها الغالي لكي تجد نفسها وقد رجعت إلى الولي،
والأخ، والنمر الزوج!
عبد كل هؤلاء.

وفي مثل هذه الحال ما عليها إلا أن تطرق باب العشار مرة أخرى،
فينبسط أمامها الداكير بشكل غريب. العينان تغيان عن رؤية المألوف في
هذا المكان تشعر بالأمان، ومن حق الجن والملائكة أن تهجر البشر
المتلون المتبدل، وتسكن قبور الموتى، وكنت أيتها الداهية تدركين
خراب الأحياء، فقضيت العمر معظمه مع الضريح، لكن علامة
استفهام ارتسمت على ملامحها، قبل أكثر من عام يوم جاءت لتجديد
العهد رأت كل شيء كما ألفتها أول مرة. كل شيء انقلب رأساً على
عقب. كيف يتغير شارع السحر الذي تأوي إليه الأرواح والجن، حتى

كادت العينان تشكان في المحلات، والذاكرة تهرب من البياض، سمة
الدكاكين الأولى ومنصات الكتب المصفرة والغبار، إلى دكاكين تبيع
طحيناً، وحلويات، ولحماً، وقرطاسية. هل تسأل أحد المارة، أم أحد
الباعة. الحانوت الذي اعتادت على زيارته مغلق، وبعدهما ترددت،
صعدت الدكان الثالث، ثم طرقت الباب المجاور. مرّت لحظات، وإذا
بالشيخ ذي اللحية البيضاء، يطل بهيئته الوقور، وطلعت البهية، عرفته
على الرغم من تغير وجهه، كأنه كبر خلال عام واحد عشر سنوات،
فنطق بصوت منخفض، ولهجة جافة، تنبئ عن ضجر شديد، وتنكر
أي شيء:

- نعم هل من شيء؟

هول المفاجأة يجرفها. صدمة. وتساءل ماذا حل بالرجل:

- ألا تذكرني؟

ظلّ مصراً على جملة السابقة، وأضاف:

- يمكن أن تكوني قد أخطأت في العنوان..!

نسي أم تناسى، ولم كل هذا التغيير. زمان عجيب يرثنا في كل

يوم بدعة جديدة:

- الخطر يحيطني، والغالي مخدوع، وأعدائي يقاتلونني بالسحر

ليكون ابني في صفهم.

- وما يخصني أنا؟

- أنقذني.

- يبدو أن الكلام لا ينفع معك.

وصفق الباب خلفه تاركاً إيهاا للحيرة والتساؤل. ماذا حدث يا ترى؟ كيف انقلب العالم ولم تشعر به. كل معالم العشار خالما وطئت قدماها ضفة شط العرب بدأت لعينها بوجهها المألوف: السياج المقابل للمعبر. تمثال السياب. دائرة التمور. أسد بابل. جسر العشار... ما عدا ذلك الشارع. منذ أن فتحت الدنيا عينها، كان السحر يجري بوجهه القديم أسرع من الحصان والطائرة، وأقوى من القنابل. الدنيا حوله تجري كالماء، فما الذي حدث؟ وبينما هي في خضم أفكارها، وهو اجسها المضطربة، وإذا بعينين عرض الشارع تلتقيان عينها، وصوت هادئ ناعم يهتف مصلياً على النبي:

- أم عبد، الداهية!!!

كانت أم مصعب. الحظّ وحده ألقاها في طريقها، عندئذ اصفرّ وجه الداهية، وخامرتها أفكار سوداء في البداية دفعة واحدة. ماذا لو عرف أهل نهر جاسم، وانتشر الخبر، وأية صفة تخرج ابنة الوليّ صاحب الكرامات ذات العقل الرّاجح، والإيمان من أن تعرض عن ضريح أبيها وتلج باب السّجر، كما تسمعه من ازدراء لبنت المسعود

التي شاع أمرها، وصارت أمثلة للسّخرية والطّعن في سلامة العقل... صامته مذهولة... الصفرة تطبع وجهها، ولا تحسّ برجليها وهما تقودانها بجوار أمّ مصعب إلى حيث الأمان، في المقام ملاذ أهل العشار في الضيق، وحالما جلستا والتقطت الداهية أنفاسها، سارعت صاحبها إلى الكلام:

- أتدريين لقد منعوهم من ممارسة مهنتهم.

وهي تغالب حيرتها:

- الشّارع كلّه تغيّر.

- منذ متى زرت المكان آخر مرّة؟

ويبدو أنّ ارتباك الداهية تلاشى حيث أمنت إلى محدّثها:

- حرصي على عبد هو الذي يدفعني أن أجرع السمّ!

- وأنا يا داهية، والله يشهد، حرصي على أبي مصعب، خشية من

أن يلتفت إلى زوجته، وأولاده في الدّعيجي، فيسجّل كلّ ما يملك في

الدّعيجي، وأبي الخصيب باسمهم، والله يعلم كم تعبت حتى حصلت

على قطعة الملك والبستان في نهر جاسم...

وعادت الداهية إلى ما بدأت به أمّ مصعب:

- لكن لم تقولي لم منعوهم؟

فوضعت أمّ مصعب يدها على ركة جليستها تستعين بها على

الهمس ، وكأنها بدت قادمة من طريق بعيد ملتفة بعينها إلى زائرات
المقام المشغولات بالحديث :

- مادمت ستحفظين سرّي كما أحفظ سرّك ، فهذا أنا أقول الحقيقة
أمامك : لقد منعوهم لأنّ الحكومة أحست أن أهالي المسجونين
السياسيين ، والمخطوفين من الأمن والمخابرات (وأخذ صوتها يميل إلى
الهمس ، فكادت يدها تنطق عنها بدلاً من شفيتها) يتهافتون على
السّحرة ، ليكشفوا بسحرهم عن أماكن أبنائهم ، كنت سمعت بهذا
قبل أيام ، لكنني لم أتصوّر أن يغيروا الشّارع كله ، وهؤلاء الباعة
وأصحاب الدكاكين أظنهم من المخابرات (وأكدت) هناك بعض
السّحرة ، والسّاحر الذي أعرفه يستطيع أن يريك عدوك ، وأين هو
محبّك الغائب عن عينيك المجهول لك ، وقد وفى بوعدده لي ، وأراني -
أيام المحنة - أبا مصعب في إحدى الزّنانات ، فاطمأنّ قلبي إلى أنّه حيّ
يرزق.

بريق الأمل يشع من جديد في عينيها. القلق يكاد يتلاشى. ربّ
مصادفة خير من ألف ميعاد ، ولم تعد تفكر الآن بالفضيحة :

- يا ليت ، فأنت تدركين مدى حزني وغمّي. الولد مسحور!

- بالتأكيد!

- إنّها امرأة عمّه لاسمجها الله ، وليس بمقدوري أن ألقا إلى أبي ،

فالشر لا يطرده إلا الشرّ، ونفس أبي طويل، وأنا أريد أن أرتاح اليوم
قبل الغد.

- وإذا وعدتك بكلّ خير؟

- سوف أكون ممتنة لك ما حييت.

- إسمعي. لن أدع الخيط يفلت من يدي. أنا أختك أمّ مصعب.
سوف يرسل لي الرّجل قرييته، ابنة أخته كي تساعدنا في فكّ السحر،
وحالما تصل إليّ أبعث لك بالخبر!

ارتياح ما. وعلاقة تقوى كلّ يوم، أمّ مصعب لا يأتي منها إلا الخير
دائماً. كأنما شقيقتان لا تفترقان، وكان أهل نهر جاسم في عجب
شديد من أمر ذلك التّقارب، إذ المعقول أن يسود التّفور والكره بينهما
لانصراف عبد عن جميلة، ربّما عادت التّقولات من جديد على لسان
القدامى من جيل ما قبل الدّاهية في أنّ الحق عاد إلى نصابه برجوع النّمر
الصّغير إلى الأصل، كما تفترضه سنّة الحياة، وما وقوف النّمر مع
أخواله، وتركه أهله إلا حالة شاذة قد لا تتكرّر مرّة أخرى، وسوف
يصفّي نجله أملاكه في نهر جاسم ويرحل إلى أهل أبيه، عندئذ تتجلّى
شماتة آل النّمر بالدّاهية، فيعدّونها، وهي بينهم أشبه بالخدمة، أو أن
تقبل الأمر على مضض، وتفترق عن عبد مكثّفة بالمكبس المكتوب
باسمها، وتلازم ضريح أبيها الوليّ.

كان ذلك أشبه بحقيقة لا يختلف عليها اثنان.

وكانت الداهية تسمع من هنا وهناك، فتلوذ بالصمت والصبر

وصدرها يغلي...

وقد مضت بضعة أيام على لقاء العشار، حين جاءت أم مصعب لتذكر أن صاحبها أرسل قريته تتصل بهما، وعندما وقع بصر الداهية على امرأة في الخمسين من عمرها لها ملامح الرجل ذي اللحية البيضاء، والهيئة الرزنة، لا أحد يشك قط في أنها قريته. تلك اللحظات وجدت نفسها تعود إلى لعبة الأسماء. الداهية ابنة من؟ وعبد ما اسم أمه؟ منذ فتحت عينيها على الحياة سمعت الشيخ يدعوها ابنتي، ثم سموها الداهية. الشيخ أبوها وأمها، وعبد أخوها، وابنها، فما الذي تعنيه الأسماء بعدئذ لها. في هذا الزمن يجب أن تكون هناك أسماء، وحين سجل المرحوم المكبس لها كتب اسمها كما هو، أو مثلما يلفظه الناس. الداهية بنت جاسم، ومن قبل، وهي تحاول، أن تطلب ثأرها من قاتل أخيها لم يسألها أحد عن اسم أمها. في ذلك الوقت كانت الدنيا تشيخ ولا يشيخ السّاحر، وتعي الحياة بأسماء النساء، والسّحرة يجدون البديل لكل من لم تعرف أمها. كل سنة تزور صاحبها فتجده كما هو لا ينال منه الزمن، وفي آخر زيارة أنكرها، فوقع بصرها على شيخ متعب ذي سحنة جليلة ووجه مصفر كالشمس

الجائحة للمغيّب. فلتكن الأسماء إذن ما دام كلّ شيء قد تغيّر هذه
الأيام، وهناك أمّ ليس بمقدورها أن تنكر أحداً:
- الداهية اسمي، وأبي الولي السيد جاسم صاحب الضريح،
وأُمّي حواء!

- داهية بنت حواء إنوي ولا تترددي!!
- ها قد نويت.

وقبل ذهابها. لخطبة ناهدة بليلة واحدة فقط، وفيما هي مرهقة
بشتى الأفكار، وهي تستلقي في سريرها، وإذا بها تبصر النمر نفسه
يضع يده بيد عبد أخيها، ورقية على مقربة منهما. كانت ترضع عبد
الصغير. الزمان عاد إلى سيرته الأولى، فتساوت الدقائق، لم يعد
للأسماء من سبب. اسم الداهية واسم أمّها، في الحلم السحر والصحو
على حدّ سواء، وفي لحظة آتية لاريب فيها أبصرت حبلاً يلتف من
الأعلى على عنقها، ولا أحد من الأحبة يخطو فينجدها. راحت تجاهد
برقبته وعايناها تضمّان عبد إلى صدرها. بعد جهد أفلتت من الحبل،
وصحت على أنفاسها المتهدّجة، كأنما انتزعت نفسها من الموت،
فنهضت من مكانها وعايناها تتصفّحان الوجوه ليطمأن قلبها: الحاجة.
عبد. ملكة الليل. جميعهم يغطّون بنوم عميق، والسكينة ترفرف على
أنفاسهم، فحمدت الله، وفهمت أنّ حلمها لم يكن عبثاً، فازدادت

يقيناً بأنَّ عبد سوف يعود إليها، وإن مضت في مشروع الخطبة. لقد ضمته في عالم الرؤيا إلى صدرها، الأموات والأحياء شهدوا ببراءتها من آية جريمة. النمر غفر لها انتقامها لأجل أن تظلّ مع عبد، وهي بعد ذلك، والسحر في جيها لا تخشى من أي شيء، مادامت أبصرت زوجها وأخاها، أما الولي فهو الأقرب إليها، وسوف يسمعها وإن لم تقع عينها عليه.

صباح ذلك اليوم غادرت إلى العشار.

وكاد بيت سعد النمر لا يفتقر عن الترحاب. الأمّ والبنات بكامل زينتهنّ، وهندامهن مما لا عين رأت ولا أذن سمعت، كأنهن يتحدّين الداهية من خلال الترحاب والمبالغة، والحاج سعد النمر مغتبط لا يملّ من الثناء على الداهية، وأصلها الشريف. كانت تحسّ، من خلال كلمات الإطراء، مواضع الوجد في روحها. قدرها أنّها كالجمل يظلّ الحقد يغلي بعروقها إلى أن تحقّق ثأرها، فيا لغباء عبد حيث غرته المدينة، وسحرها، فخرج عن خطى أبيه، ولو يدري أن أمّه وخاله وجدّه لم يفرّوا إلى موضع آخر غير نهر جاسم. وحين ولّت الوسوس لحظة، واندثر الماضي، التفتت إلى النمر وزوجته، فنطقت:

- لو كنتم عائلة غريبة لقلت لكم إنّي بحثت عن الأصل والسّمعة، والشرف، وأنت يا حاج بمثابة أب لعبد، وابنتك مثل ابنتي، لكننا

يمكن أن نكتب كتاب الإثنين، ونؤجل الزواج بعض الوقت، لعلّ الحاجة تشفى، وحتى يتمكن عبد من السفر إلى بيروت، فيتابع أعماله ومصالحه.

وعندما ختمت عبارتها لاذت بذكرياتها من جديد، وواجهت كلّ طلبات أمّ العروس من غير ما نقاش ولا اعتراض. بيت في العشار. سيارة. مهر مؤجل... قابلت كلّ ذلك بابتسامة فاضت عين الرضا خشية من أن يعدّ آل النمر اعتراضها عجزاً ونقصاً فيها، وفجأة، وخلال لحظات بعد إعلان الخطبة، اكتشفت أنها لم تكن غاضبة على عبد من كلّ قلبها. كانت مجبرة على الفرح والحزن في خطبة الغالي. لا بد من الفرح، والحزن لأن الأيام اختارت غير التي تتفق مع هواها، وما تعرفه الداهية اليوم، وإن عظم، وفق هواجسها التي لا تخيب، أفضل مما لا تعرفه غداً، وإن كان ضرره أقل، لكنها تأكدت تماماً الآن، أن رغبة عبد في ناهدة لم تكن إلا نزوة تمرّ، وهذا ما أثلج صدرها، وأكدته في حديثها لأم مصعب أيضاً.

وبدا أن الثلاثة، على الرغم من كل شيء، يسابقون الزمن، ويتعجلون السفر، من كان يراهن نفسه، ويظن مجرد احتمال، والزمن على صدره، أن بيروت توشك أن تلتهب، في وقت بلغ فيه عبد النضج، وخرج من وصاية الداهية، وقت سبقت الأجواء القائمة

هو اجس الداهية ، وانطوى كل يوم يحمل خيراً جديداً، أهى المصادفة وحدها أم سوء الحظ؟ أم تراه سر لا يفهم أحد لغزه، فما أن انتهت حرب الشمال ، وتنفس الناس الصعداء، وفرح عبد بالإعفاء حتى لاحت في الأفق البعيد نذر جديدة لخراب العالم، وسط تلك الأجواء، وخلال الأسبوع الذي نوى فيه عبد السفر مع عمه سعد النمر، مباشرة، كشفت، هذه المرة بيروت عن وجهها الآخر.

فاضت أجواؤها بالخوف...

العالم كله سمع صوتها...

وانفجرت، وكادت الدنيا تَحترق معها...

وقد تلقى الثلاثة الصدمة بذهول. سعد النمر تغيرت ملامحه، وعبد يكاد يفهم ولا يفهم آية خسارة تنتظره، أما الداهية، فقد راقبت بعينها وقلبها وحدها، فعلى مقربة منها ترقد الحاجة رقية شبه مشلولة تهذي بخرافاتها، وحكايات أيام زمان، وعاد الفرح هذه المرة، لكن مع الشماتة والحزن. رقية إنى أرى ما لاترين. شوارع تحترق. ناس تموت. رصاص. قنص. بنوك تذوب وسط النيران. عصابات. مدافع. قذائف. سعد النمر سوف لن يفرح بخطبة ابنته، أما النيران فقد التهمت كل شيء، فما هناك من أسرار بعد تلوح لعينيها، ولا خصوصيات تربص لها سنين ليدركها. إنها الحرب التي تمنع الباشا أن يسافر العام القادم.

الماء الزلال. الرياض... الحداثق. العالم كله يشتم رائحتها عن بعد. في السنة القادمة سوف أصحبك يا داهية أنت، وعبد، والحاجة إلى بيروت. تريان المصايف ونسيم الجنة، ولمن يا حبة عيني نترك البيت إذا سافرنا كلنا؟ أريد العبيد والخدم، والحاجة التي اقترحت أن تبقى هي ترعى البيت، تجهل أخبار بيروت بالمرّة، ونهر جاسم تقول بأسف: كل ذلك يحدث بسبب الفسق والفجور، عقاب من الله للبنان التي صدرت كل المحرمات إلى العرب وقالت راوية الشؤم إن المدينة لن تصحو من سكرة الحياة إلا إذا صارت قاعاً صفصفاً يخيل لمن يراها أن عاليها سافلها والأسف على الشباب لاعلى المال والمتاع. المصير ذاته سوف تعثر عليه نهر جاسم وقرى ومدن أخرى، غير أن بيروت بكرت في قضم نفسها قبل كل البقاع، والباشا لا يعلم الغيب حين مدّ يده إلى عواصم كثيرة، فاحتضنت ذراعاها بيروت وحدها، فوثق بها من دون البقاع، ليودع في بنوكها حصّة كبيرة من أمواله، وها هي بيروت تكشف عن وجهها الآخر، فتحون الأموات قبل الأحياء، غدارة:

- الفساد. الفساد.

- الفسق والفجور.

- المغنيات يأتين من هناك. الرّاقصات. العري، والعياذ بالله.

الداهية تسمع بالموت ولا تراها بل تحسه في قلبها، تتطلع بوجه

عبد، فلا تجده يندى بالهمّ. كان غارقاً إلى أعلى هامته بالحبّ. لا يرى إلاّ ناهدة، ولا يسمع سوى صوتها. بالضبط كخاله أو واحد من هؤلاء الذين يقاتلون في بيروت ولا يرون ما حولهم وليس فيهم رجل كأبيها الوليّ، أمّا هي فرأت الأحداث تجري أسرع منها فلا تدركها إلاّ بعد حين. هكذا فاجأها عبد بخطبته ناهدة، وهكذا احترقت بيروت بين عشية وضحاها، فأين أنت ياداهية، كأنّ رجلك على الأرض ورأسك في السّماء. ومع كل ما حدث فلم تشك لحظة واحدة أنّ كلّ دعوة من دعواتها الغاضبة تُستجاب، فتجلب خسارة فادحة، وكلمة أبيها ترن في أذنها:

- لا تدعي بالشرّ يا داهية، فها هو كلّ شيء يحترق، والنار تسعى إلى الأذن ولا تراها العين.

وبغض النّظر عمّا حصل، ففي اليوم الذي بدأت النّار تأكل بيروت، فتسمع أنّاتها نهر جاسم، لم تعلن النبوءة عن نهاية العالم بعد. أخرجت الدّاهية ورقة السّحر من جيبها، ووضعتها في إحدى الزوايا، ثمّ ذهبت إلى ضريح والدها. كان يهّمها عبد، أمّا النّقود فتذهب وتجيء، وحين سألتها الغالية أمّ مصعب عن مضمون النّذر، أجابت أنّها رأت في منامها عبد راجعاً إليها من سفر بعيد، وأيّ سفر كان، ربّما لم تفهم قصدها أيّ من النسوة، إلاّ أمّ مصعب وحدها،

وعندما سألتها إحدى زائرات الضريح :

- هل الحرب القائمة في بيروت بداية لنهاية العالم؟

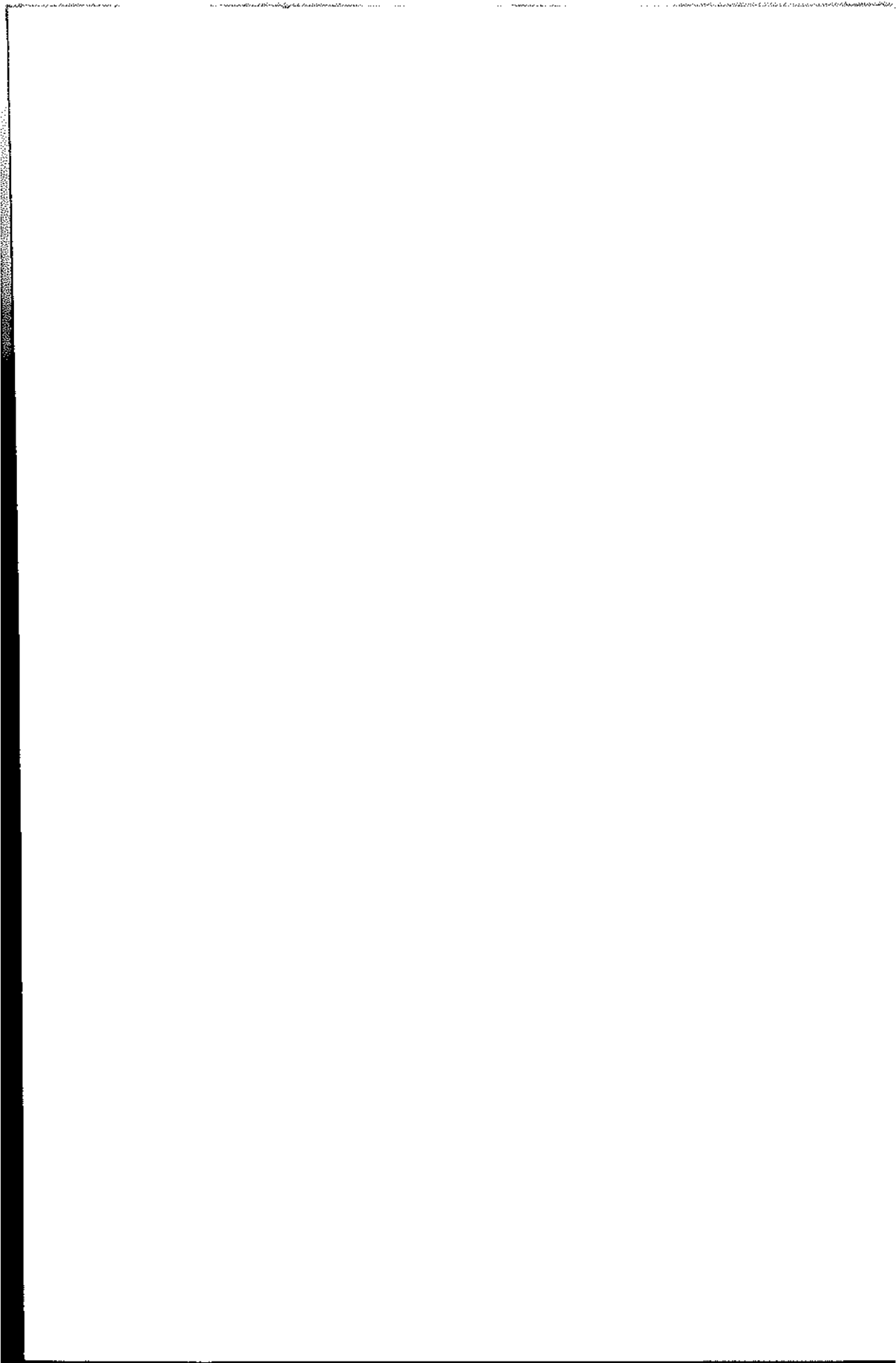
أجابت بعد صمت :

- أبداً لا ، فالنبوءة لم تشر إلى نهاية العالم.

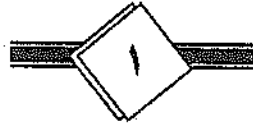
وهمت أن تضيف أن الطريق لم يعبد لحد الآن ، ثم أعرضت عن

ذلك.





بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ السَّفَرُ الرَّابِعُ الحرب



لم تكن الأرض لتثمر قطّ...
كلّما زرعوا نباتاً جفّ في الحال..
وللناس أن يجدوا من أنفسهم أيّ قربان..
وأضافت راوية نهر جاسم:

قبل أن يخطّ القدر كلمته، وقبل وفاتها، على صوت انفجارات
قويّة قادمة من نهج البرّ القديم صحت، وحين سألت: أهو الرّعد أم
شيء آخر، أجابها عبد: الوقت صحو والدنيا صيف يا أمي الحاجة،

وما هذه إلا انفجارات تقوم بها لجان البحث عن النفط في البر، عندئذ اعتدلت في جلستها، وبدأت تحكي، وقد ظن من رآها أنها تعافت تماماً. بدت متوردة الخدين، باسمه الثغر، كما لو أنها رجعت خمسين سنة إلى الوراء. ليس من عادتها أن تقص الحكايات إلا في الليل حين يضع عبد رأسه على الوسادة، أشارت إليه أن يجلس على حافة السرير، وينصت إليها، قالت: يا عبد، مهما كبرت فإنك تظل بعيني الداهية والحاجة صغيراً، ولأنك كذلك، فسوف أقص عليك لم لم يكن الزرع ليثمر. قيل هناك شيء ما تحت الأرض عجز أهل زمان عن أن يدركوه، يبدو هو النفط الكامن تحت التراب. كان يقتل الزرع. أليس كذلك، ولعلي حين ألتقي بهم أخبرهم..

- ماذا تقولين يا أمي؟

من قبل لم يكن لينعب غراب. الأفاعي والعقارب خلت من السموم، والعقول والأفكار لا تعرف الهموم، وتوقفت برهة تغالب ذاكرتها من بعيد فتواصل: في الزمن الأول ذاك، الحزن مجهول، والمرض مفقود. لا فيضان لا زلازل أو براكين. كانت الدنيا كما رأيتها بعيني هاتين نهاراً كلها. الليل غائب، وعند قنطرة الحورية هناك أطلت العيون، على الرغم من السعادة والفرح، على شيء ما، فالأرض عجزت عن أن تعطي الزرع، وعرف الناس فيما بعد أن يقدموا من

أنفسهم نذراً للأرض حتى تثمر وتعطي.

كان الزمن على شفتي الحاجة يمتد ويختلط ، ويمتزج بصور متباعدة ، متقاربة ، كما لو أنه ماء جامح يدور في دوامة عميقة ، هل هو الهذيان أم النسيان ، وقد دفعت تلك الفوضى عبد إلى أن يتابع الحكاية بذهن شارد ، بعض اللحظات ، لولا أن جاء صوت العامل ، من الخارج ، وهو يستدعيه ، ليفحص التلفون ، فقطع عليها الحكاية :

- ألا تنتظر لتسمع الحكاية؟

أجاب بذهن شارد:

- سأجرب التلفون وأعود.

ارتسمت الخيرة على شفتيها:

- تلفون؟ لدينا تلفون؟

- اليوم يكمل الخط يا أمي . سنصبح أول بيت في نهر جاسم كما

كنا أول من اشترى مذياعاً وتلفزيون.

- الله ! يبدو أنني تمت دهرأ كنومة أهل الكهف ، فجدت أمور لم

أعها.

- يا أمي صوت ناهدة هو أول صوت أسمع في التلفون وحالما

أنتهي أعود إليك.

- والحكاية ، ألا تريد أن تسمعها؟

يا للملمس الصوت وهو يداعب أذنيه، غابة ناعسة. عطر شفاف.
قوس قزح. والحلم الوردي يكبر، فيطغى على شكوكه التي برزت
فجأة من حيث لا يدري. أهو خيال أم مجرد هواجس؟ لعله شعر في
الأشهر القليلة الماضية ببرود من ناحيتها تجاهه، وكان الأجدر به أن
ينساق مع هواجسه فلها أيسر عذر في الدروس والامتحانات، حتى
عرض على الداهية فكرة التلفون، فرحبت بها، وحين أخبر ناهدة
بذلك ليستطيع أن يتصل بها وقتما يشاء، ابتسمت، وخيل إليه ساعتها
أن الخبر لم يفاجئها، أما أمه الحاجة فيبدو أنها نسيت تماماً، عرفت،
ونامت، ثم صحت ونسيت.

في اللحظة ذاتها امتد الحلم إلى بعد ثان. بعد الهاتف يمكن أن
يشترى سيارة، فيكون بيت النمر أول من يسبق البيوت، أما الداهية
فلما يزل العناد يركب رأسها. الدنيا تطوّرت وتبدّلت، وهي كما
الحاجة، باقية في سوادها لم تتغير، حتى أضحي لديه يقينا أنها قد لا
تخلع السواد في يوم عرسه، أو تبدله بالأزرق. كل ما تخشاه هو عيون
الناس والحسد، أو أن تفتح الدّولة عيونها على بيت النمر. دائماً تتبجّح
بالمدين: بغداد أحرقت النقل البحري. بيان رقم واحد.. بل نقذف بالحقّ
على الباطل فيتهاوى النقل البحري. وتشخص الجثث معلقة في الساحة
العامة. بيروت ضاعت فيها أموال كثيرة كان يمكن أن يرثها عبد.

وطهران الآن تململ، فيهرب الشاه، وتسقط مملكته. دين قديم في
عنق الداهية على الرغم من أن أبها أغمد سيفه، لكنّها هي الثارات في
النفوس، فماذا يحدث للعالم ونحن على بعد خطوات من الحدود، وقد
ظنت أول انفجار سمعته اليوم قيامة الحرب، أو رشقاً مفاجئاً
بالمدفعية، لولا أن عرفت القرية كلها بعد ساعات أنّها قنابل الباحثين
عن النفط في البرّ، أمّا أنت يا ناهدة فصوتك يأخذني إلى الحلم المشتهى
ليس بالماضي البعيد حيث تطويني حكايات الحاجة، ولا نعمة الاعتداد
والعناد حيث الداهية:

أنا عبد هل تسميعيني؟

خيبة أمل ومن حيث لا يدري، تنطبع على عيني الداهية ابتسامة
ماكرة يعجز أن يلمسها أي مخلوق. أن للملح المسحور أن يؤتي ثمرة
يانعاً وينطح السحر السحر. لا تعلم بسرّه معها سوى الزائرة التي
تمت عليه وأمّ مصعب، يا حبة عيني أمّ مصعب. وكانت الحاجة
الكبيرة في غيبوتها فلم تعد تسمع شيئاً.

هكذا ترشه في جيوبه وتثقب باطن ملبسه فتدسه في معظمها،
فترى وجهه متغيراً، إنّ كيدك يا ابنة التمر أنت وأهلك لضعيف، فها
هو عبد يدخل على أمّه الحاجة متغير الملامح. كانت على جلستها كأنّها
نتظّره منذ زمن. نامت فصحت، وتغيّرت أمور كثيرة خلال غيبتها

الطويلة. بيروت احترقت. هرب الشاه. وحين استفاقت ظننت النهار
ليلاً، والقنابل رعداً. كان الزمن يلتف معها إلى آية وُجهة تريد، فما
فائدة أن يشكو إليها بعض وساوس صدره:

- يا أمي اتفقنا أنا وإياها هذا اليوم على أن تظلّ في البيت. قلت لها
خطوط التلفون دخلت الدّعيجي وسوف نمدّ خطاً إلى بيتنا. من أجلها
هي، تعرفين الدّاهية وعنادها وخوفها من العين. ونظر الحكومة والرّيبة
والشكّ..

وللمرّة الأولى يشعر أنّه ينتقد الدّاهية بحضور أمّه الحاجة، فلا
تردعه أو تعترض على كلامه:

- يا أمي سوف أحدثها كل يوم، لكنني كنت أرغب أن أسمع
صوتها أثناء تجريب الهاتف.

وإذ طال صمت أمّه الحاجة، وطالت حرارة الحديث، مدّ يده
إليها. كان قد رأى ذلك الشيء الكريه ذات يوم، وهو صبيّ. وجهاً
لوجه رآه، غير أنّه لم يحتك به. وإذ لمس الجسد الرّابض أمامه، خائته في
أقلّ من لحظة شجاعته، فأطلق صيحة حادّة:

- يا داهية الله أكبر... الله أكبر..

- ماتت أمي الحاجة!

فانقلب البيت خلال لحظات إلى صورة أخرى.



بضعة أيام مرّت...

وكانّ رحيل الحاجة ترك سماته على الأحياء جميعها فلاحت بغير صورتها الأولى. ملكة الليل عانت من هزال بعد جسد ممتلئ، وقوام ممشوق، فبدت كالنعجة العجفاء، والداهية توغلت في الحزن إلى مدى لا يسبر غوره، فأصبح ديدنها سماع القراءات والابتهالات التي تبثها، طول اليوم، إذاعة الأهواز، فتندفع معها ببكاء ساخن، أمّا ملكة القلب وأميرة الحسن، فقد غيرت لهجتها، ولاح شيء غامض على جبين العمّ سعد. كان كلّ شيء يسير بطريق مبهم مثل حكاية تركتها المرحومة قبل رحيلها بدقائق. أهي الهواجس أم شيء آخر، أم الحزن يصبغ القلوب بالشك. حقاً بدأ تغير العالم مخيفاً. كان يحنّ إلى جلسة مع حسن وحديث عن الطفولة، والحب، وتلك الآمال العسيرة التي وجدوها ذات يوم سهلة المنال، غير أنّ ذلك يمكن أن يتحوّل إلى شيء مقيت حين يتذكر أنّ حسن نفسه أصبح على قربه الشديد منه بعيداً عنه، إذ لم يعد مشغولاً بشيء سوى الدعوة إلى الانضمام للحزب، والحديث عن منجزات السلطة، وزجّ الشعارات من دون مناسبة خلال أيّ حديث له مع الآخرين.

كان لا يدري ماذا يفعل بالضبط ، حين زاحمته الذكرى ، حتى همّ أن يخرج ، ربّما ليزور بيت عمّه على الرّغم من أنّ عمّه طلب منه أن يترك ناهدة بضعة أيام ، وأن لا يتصل بها وإن كان عن طريق الهاتف. وقد وجد العذر لهواجسه دون أن ينتبه إلى ابتسامة الدّاهية الخفيّة التي كمنّت وراء الدّموع ، معللاً خيته في أنّ ناهدة أصبحت مخطوبة ، وليس من المألوف أن يكثر من زيارته لها والحديث معها. وفي تلك اللحظة حيث الفرار إلى أيّ كان ، جاء صوت ملكة الليل يعلن عن وصول حسن الذي حالما دخل ، سأل مندهشاً :

- عجيب أمرك أنت جالس هنا والدنيا مقلوبة من حولك !

- الدنيا منذ خلقها الله مقلوبة.

- حقاً ألم تشاهد التلفزيون؟

- أنت تعرف نحن في عزاء والدّاهية لا تسمع إلا القرآن من الإذاعة.

- يا أخي الحاجة إلى رحمة الله والحَيّ أحق من الميت.

- كلّمها أنت بنفسك.

- دعنا من أمك الآن. ماذا عنك أنت؟ أخرج من عزلتك وأطل

على الدّنيا ولو قليلاً ، لتعرف ما يحدث أو ما حدث اليوم.

ودفعه الفضول ليعود إلى بدء الحديث :

- هل هناك من شيء؟

- الرئيس اعتزل وسلّم الرئاسة للرئيس صدّام حسين (مؤكداً)
المشهد يعاد بثه كلّ نصف ساعة.

سخرية مرّة لا يفصح عنها: جاء حسن يزفّ بشرى إلى بيت خيم
عليه الحزن، هكذا تغيّر العالم بعد وفاة الحاجّة. الداهية أرادت صبغه
بالسّواد. كلها لعبة ألوان، أسود... أخضر... أبيض... ومن قبل الداهية
حاول ماركس أن يصبغه باللون الأحمر. الغمّ سعد يطلب منه ألا
يتصل بناهدة بضعة أيام تطول إلى أشهر، والآن ينزل الرئيس عن
الحكم لآخر، فأيّ لون يحمله العالم في هذه الساعة، وقد آذن الخريف
بالانصراف بعد أن صبغ الدنّيا باللون الأصفر، وإزاء صمته يعقب
حسن:

- نحن بحاجة إلى رئيس شاب من الطبقة المسحوقة بحسّ بالآمنا.
شاب نشط يزور المدارس والمستشفيات والمعامل فيطلع على الداء.
أتعرف أنّ كلّ آامنا وهزائمنا السّابقة بدءاً من نكسة عام ١٩٤٨ جاءت
لأنّ الذين حكمونا لم يكونوا شباباً والحقّ إنّهم بحاجة إلى رعاية لا أن
يحكموا!

أصبحت منظرًا يا حسن يا ابن الفلاح:

- صحيح نسيت أن أسألك ما هو لون الحزب؟

سأل باستغراب:

- اللون؟ ما الذي ذكرك به؟

- مجرد خاطرة ربّما دفعني إليها هذا اللون الأسود الذي تعيشه

الداهية كلّ يوم.

- عليك أن تخرج من عزلتك مهما كلفك الأمر، لتنظر إلى هذا

العالم الواسع وكيف يجري على الأقلّ من حولك.

نعم يا داهية. كيف أفهم؟ أكثر من ثلاث سنوات مرّت على

الخطبة ولا أراك تلحين عليّ أو تبالين متى يتمّ الزّواج، ولم تسألي آل

التمر. ناهدة التي كانت لا ترغب في الجامعة أخذت تتعلل بإكمال

الدّراسة، فهل جاءت وفاة أمي الحاجة لتؤخّر الزّواج سنة أخرى،

كأنك تبحثين عن عذر يؤجّل الموضوع. الاستقرار وطرده الخوف، فمع

ناهدة ينسى العاشق، وفي ظلّ العمّ يجد الحماية من أعدائه وأصدقائه:

- والله فكرة حسنة، والله لا أفضل من الزّواج يسدّ الفراغ، ويملي

فرحة على البيت.

- يا سيدي مبروك، فعسى ألا تطول الخطبة أكثر من هذا، ولا

تنس أن العمل الحزبيّ أيضاً يملأ الفراغ، لاسيّما أنك تعاني من الفراغ

خلال الشتاء حيث يتوقف المكبس.

اللّف والدوران. الزيارة في يوم استقالة الرّئيس. ما زلت تلفّ معي

وتدور يا حسن، كأنني غريب عنك!

- دع الأمر لما بعد الزّواج.

- اسمع يا عبد. سوف أتحدّث معك بصراحة. اعتبر زيارتي هذه

لك واجباً، فهل أنت على استعداد لتسمعني؟

- نعم بكلّ سرور.

- إسمع جيداً. الحزب بدأ يعيد حساباته، خاصّة بعد الثورة

الإيرانية. الشّاه أخطأ حين غضّ النظر عن المتديّنين، وما علينا الآن إلّا

جرد أسماء بمن لم ينتموا حزبيّاً، ويمكن تصنيفهم في خانة المناوئين،

وقد سألوني عنك مراراً، فاخترت الأعداء مرّةً وأخرى، وعاشرة،

لكنتي لا أقدر أن...

- تدافع عني!!

- ها أنت تقولها بلسانك!

يبدو أنّي أكتشف فيك وجهي البعيد يا حسن. تدفع عني كلامهم

وظنونهم، كما لو كنت عاهراً أو قوّاداً، ولعلّي أجد نفسي ذات يوم

أكره العالم كلّه عدداً ملكة الحسن والجمال، فلأهرب إليها قبل أن

تلتحق بي طفولتي، وأنت:

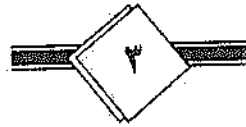
- يا حبيبي الرّئيس الحالي، حين كان نائباً، قال...

- العراقيّ الجيد هو البعثيّ الجيد وإن لم يتمم. أعرف ما تقول. كان

ذلك حديثاً عاماً، ولكلّ شيء أوّان، المعادلة الآن تختلف.

- أتعرف أن خطأ الشيوعيين القاتل، أيام المد الأحمر أنهم كانوا يفكرون بالكم، وليس بالنوع.
- لكنك لست كما!

وبمغادرة حسن، وهو يلقي استنكاره، أشبه بالتحذير، يشعر أن شيئاً ما يثقل على صدره، فيدفعه إلى التشاؤم. ماذا بقي من الطفولة، وذكرياتهما؟ المعتوه ابن المسعود الهائم بين المقبرة، والضريح، وبساتين التخيل، وحسن الذي دخل لعبة السياسة عبر نكتة، وخرج منها مؤمناً بها لا يضاهيه في الانتماء أي من الحزبيين القدامى، أم الداهية التي تتابع أخباره على الرغم من انشغالها بالحزن القديم الجديد، فتشير عليه أن ينتمي ليرفع الإشكال عن نفسه، ولا مفر من أن يزيح عن صدره ذلك الكابوس، وإن خرج عن نصيحة عمه، واتصل بملكة القلب. كان يرفع سماعة الهاتف، ويهمس:
- ناهدة!!!



لم يكن ليستطيع الصبر أطول. الداهية قالت له ولم تكن صادقة:
إن الفتاة إذا تمت خطبتها زاد تمنعها، لكن إلى متى يستمر الصدود.

صوتها في التلفون ترافقه رنة حزن. ربع ساعة فقط.
لتأخذ العمر كله والأيام بل السنين كلها، بأي لحظة تريد.
ينتظرها كما لو أنه خائف أن تضيع منه، بعد سنوات طويلة في
البحث عنها:

- هناك شيء ما تريدين أن تقولي؟

وعيناها شاردتان في المجهول:

- لا أظن أنك تقدر هذه المرة!

ما زالت عيناها تتلوانان مع الأفق:

- أنا راحلة هل تفعل ذلك؟

الدنيا تنقلب. الخريف والشتاء. رعد من صوب العشار. نسمة باردة

تحمل الأمل وتغيب في زخة غبار. دقيقة وأخرى:

- كلام لم أسمعه من قبل.

وقد تخلّصت من شرودها:

- هذا ما قرره أبي. بدأ بتصفية أملاكه، وكلف أخوتي بتخصيص

دار لنا، وسوف نكون خلال أيام قليلة معهم هناك.

بدا كأنه في حلم. هاوية فارغة يقف على حافتها. كانت ملاذه

للخروج من رتابة الأشياء. الغضب جعله كالحدأة، والمكاشفة تعود به

إلى العتاب:

- نحن لم نتفق على هذا.

- ذلك يعني أننا لم نتفق على خداعك.

سما صافية وآية هي ، تناديه ودقائق المحال تتقيأ أمامه تفرغ
أحشاءها. المكبس باسم الداهية. الأرض الزراعية باسمه وحده،
والبيت باسم الجميع. أين أنت يا أمي الحاجة لأقول لك إنك ذهبت
ولم تأخذي شيئاً ، أما أنت يا باشا، يا من أردت غزو بغداد ، لبتك حياً
الآن لأسألك لم وزعت الأرض بتلك الطريقة ، وأنت تعرف أنني
سأرت الجميع ، وأصبح طليقاً كالطير ينط من غصن إلى آخر:
- لكن لم لم يتم إخباري قبل وقت حتى أتدبر أموري.

- تستطيع أن تستفسر من عمك عن الأمر.

كانت تلك آخر عبارة يسمعه منها ، وكان يراها من بعد ، بأقصى
الدنيا ، وهي تبعد عنه وتتلاشى ، كرقعة ضوء صامتة. ظن أنه قادر
على أن يقدم لها المحال. ولم يحسب حساب المفاجأة التي كانت أقسى
عليه من كل شيء. راح يستعيد ذاكرته ، ووعيه ، وهي تبعد عن
عينيه ، فيحس بنفسه ، ويستدرك أن عليه أن يقصد عمه ، وقد سبقه
إلى الكلام :

- إسمع يا عبد إنني كنت دائماً أمل عودة والدك إلينا ، حتى إنني لم

أقطع الأمل لآخر لحظة في عودته بأية صيغة. تلك هي عادتي.

لا أياس من شيء مهما كان أو طال.
بالكاد قاطع الرجل الذي لم يكن مستعداً للإصغاء على غير
عادته :

- لماذا نحن نفكر بالماضي دائماً وقد بدأت معكم عهداً جديداً.
- أقول لك إنني رأيت فيك صورته ، وقد زادني سروراً أنك
رجعت إلينا حتى خشيت أن ترفض ناهدة فتُحبط أمني القديم. فهل
فهمت؟

- ماذا أفهم؟

- عليك أن تعرف أن السفر خارج عن إرادتي ، وما غمض الآن
ستعرفه فيما بعد.

أمام لغز. أو سرّ. ضباب كثيف. يخشى من عمه ، ونفسه ،
والداهية ، والجميع ، ولعلّ خوفه يزول حين يدرك سرّ السفر ، ليخرج
من نسيج الحيرة مثقلاً بالتعب كفراشة عاجلت نفسها من شباك
عنكبوت ، فابتعدت تلتقط أنفاسها :

- لهذه اللحظة يصعب علي أن أصدق.

- لعلك لا تصدق إذا قلت لك إن قراري في تصفية أموالني ،
والرحيل تحكمت به المفاجأة ، وظروف أقوى مني.

لهجة يشوبها الغضب والياس :

- لا بدّ أنّك باشرت المشروع منذ فترة، حتى إنّك لم تطرح

الموضوع خلال زيارتك للعزاء في الحاجة!

صريح مباشر لست كالداهية ولا النمر الغامض:

- لكوني كنت متأكداً من أنّك لن ترحل.

- لكن لم كلّ ذلك ولدينا متسع من الوقت.

- اسمع يا ولدي، أنا عمّك، وأكثر منك خبرة، بصراحة، أقول

لك، إنّني ولدت في نهر جاسم يوم كان اسمها عرب حمدة، فعرفتها

تلك القرية التي تنظر إلى العالم، وكأته بحجمها، إنها بيوتات معدودة

بعدد أصابع اليدين، وما زالت ترى نفسها بذلك المنظار.

- والداهية، والضريح، والمكبس؟

- أنظر كيف كان جوابك، وهكذا فعل أبوك، غادرنا نحن أهله إلى

خاله، وتخلصنا نحن منها. خرجنا قبل أن تحمل اسم جدّك، ماذا كانت

النتيجة؟ رجحت أنا، ولم أكن أريد لك الخسارة، حتى جدّت أمور لا

يمكن أن أفصلها لك الآن في هذه اللحظة، فاضطرت لأن أتصرف

وحددي!

بحماس منقطع النظير، قاطع:

- لا يا عمّي لم تكونوا محيّرين في الرّحيل، فلو عرفتم أنّ الغلبة

ستكون في صفّكم لبقيتم فيما لو تحوّل الأمر إلى حرب حقيقية.

ضعف عيّرنا به السابقون ، وما زالوا يغذونه أولادهم على الرغم
من أن الأيام أثبتت فيما بعد أننا الأقوى ، وقد ازداد رزانة وثقة كأنه
يخاطب النمر الكبير:

- افرض ، ماذا كانت نتيجة الهزيمة ، ظلّ والدك يراوح مكانه ، وها
أنت تحاول الرجوع إلينا ، وقد شجّعتك حين لمست فيك الرغبة والتّية
الصادقة ، لكنك لا تقدر أن تتغلب على عقدة المكان ، فالمكان الذي
يعنيني هو أين أقدر أن أعيش وأكوّن علاقات.

- هل تعني أنّ عليّ أن أترك نهر جاسم؟

- المفروض ومن دون ندم ، فهل تقدر؟

وأطرق ثمّ أضاف:

- فات الأوان وأمامك ألف عقبة وعقبة.

فهمس بصوت يكاد يكون مسموعاً:

- نفعي. إلى الجحيم!!!

ثمّ جنح إلى الصمّت ، وتلاشى غضبه المكتوم في واقع أقرب إلى
الخيال. أهو المحال؟ المفاجأة الخيال؟ الواقع؟ الحقيقة؟ الحلم؟ أين هو
الآن؟ وللمرّة الأولى يشعر بالخسائر المادّية التي تعرّض لها بسبب بغداد
واحتراق بيروت. لو كان هناك خير يُرجى من نهر جاسم لما غادرها
أهلها إلى العشار والبصرة ، وأنت يا داهية ما زلت تقولين إنّ قريننا

لا تزيد ولا تنقص مثل بئر زمزم مهما أخذ الحجيج من مائه يظل لا ينضب، ومن يفتح عينه يرى من يهاجرون فيظن أن القرية سوف تذوب، لكنه يجد البيوت هنا والناس، وها هو النفط يدق الأبواب، فهل تكبر أم تنكمش؟ وإلى أين يرحل الولي لو تأكدت حكاية النفط؟ وقد ندم المهاجرون بعد أن توالى الانفجارات، وبرزت الفرق في البر، فمن باع خسر، ومن لم يبع فاز. الصبر. الدولة تشتري الأرض بسعر يعادل الذهب. عبد بينك والذهب خطوتان عندئذ ستشتري الدولة الأرض متى تشاء رضيت الداهية أم لا، ولا حجر يعرفك لتبقى..

فهل تتبعثر الآمال مثلما يتبعثر الخريف في غضون لحظات، وينقشع صخب الشتاء. البرق... الرعد... زخة المطر...

وحده في عزلة. كأنه لعبة عنيفة مثل الخريف، وحين ملت الطفلة من لعبتها تركتها في ركن ما، وقد انحسر المطر، الرعد، وعاد الشارع إلى سكونه. الأحياء بدوا صامتين، فأين يذهب؟ وعلى شفثيه سؤال حائر: لماذا يرحلون، ونظل؟ أما أن للبترو أن ينطق في هذه القرية كي يغادر أهلها إلى أين؟ ما السر الذي جعل أباه لأن يبقى؟ ومن هي الداهية أمه؟ من تراه يكون الولي؟ السكون يخيف... السؤال... والشارع حزين يكاد لا يشعر بوجوده. أسد بابل... تمثال السياب... الزورق... الموج. حركة ميتة. لم يجرب من قبل النساء أو الخمر، ويخشى أن يقدم

وحده. كان يسعى إلى حسن مرة أخرى بعد أن تهرب منه لا كرهاً بلقاءه، بل خشية من أن يلح عليه في الانتساب للحزب، والدنيا التي تجمعه به زجاجة مصباح، وجلسة هادئة ثم لتذهب الدنيا كلها بمن فيها إلى الجحيم:

- إنك لم تجرب الحمرة من قبل!

- مادمت معي، فساكون مطمئناً.

- ما الذي ذكرك بها اليوم بالذات؟

بهزة من كتفيه:

- العالم كله احترق وأريد أن أنسى.

- لا تدعها تخدعك وأنت في أول الطريق.

- لا أريد أن أفقد، بل أنسى، فقط أنسى.

ومع أول كأس، والخدر الساري في الأوصال:

- هل جربت الحب مرة؟

- أنا! أنا! والعياذ بالله!

- لماذا؟

- كل مصائب العالم من الحب. (مستدركاً) ثم إنك تعرفني جيداً

ولو كان حدث لكنت أنت على علم به.

- هكذا أحياناً نسأل عن أشياء يبدو أننا نعرفها حق المعرفة!

ملوحاً بالكأس :

- إنك والله سيد العارفين!

- على مهلك ستسكر هكذا.

- الدنيا قطار سريع.. بصحتك!

وبعد فترة صمت تخللتها همهمة السكارى وحشرجة الصحون،

وصوت النادل وهو يعبر الممر يلبي الطلبات :

- هل تعرف شيئاً عن عمّي؟

- دولة! حكومة! رجل معروف لكنّه بعيد عن الأضواء السياسية،

والمفروض أن تعرفه أكثر مني فهو عمّك!

- لم يحب ظن الداهية فيه.

- ماذا قلت؟

- لا شيء سوى أن الأمور ستصبح سهلة جداً. أنا أيضاً أكون مهماً

ومعروفاً. أراضينا ستباع، وسوف نصبح أغنياء.

ورقع كأسه مشدداً:

- إشرّب!

- على مهلك!

- إسمع هل تتوقع أن أراضني نهر جاسم تحتوي على نطف؟

- يُقال إنّها تعوم...

- لماذا لا تغرق؟

- ماذا؟ كأنك لا تصدق؟

بإتسامة مأكرة :

- إذن خلاص. ستشتري الدّولة أملاكنا بميزان من ذهب!

حلم جميل. الثري يتحوّل إلى مليونير، ونشوة السّكر تمسح عن عينيه أنّ أهل حسن يخرجون صفر اليدين، ولمن؟ ما له ولحسن الآن؟ فبقدره قادر يتحوّل أهل نهر جاسم إلى مليونيريّة كشيوخ النفط وبعد ألف سنة سيحمدهم الناس. يذكرونهم بخير. رضي الله عنهم وأرضاهم. وليس هناك من فقير سوى آل حسن الذي لا بدّ أن تنتقل إليهم عدوى الغنى يوماً ما.. زوجة الرّوّاس كادت تبيع الأرض قبل بضعة أيام، وحين سمعت الانفجارات أجمّلت البيع، فما أشدّ براءة المرحومة الحاجة. كان حبيب حمدة مخدوعاً. قالت في روايتها الأولى، يا عبد، يا ولدي، حمدة بعد أن هرّبت حبيبها من النّسر ليرجع إليها ذات يوم فيخأصها، حذرتة: ها أنا وضعت في خرجك زاداً يكفيك الرّحلة كلّها، لكن احذر فستري في الطريق حوانيت، ومطاعم، وأناساً يوزّعون الماء، وفواكه، وملاهي، وتسمع غناء شجياً، فلا تصدق ما تراه عيشاك، فكل ما حولك وهم من أوهام الساحر، وحينما توغل في الصحراء، ورأى ما رآه، حدث نفسه قائلاً أيعقل أن

أحمل كل هذا الحمل الثقيل ، وحولي الجنان ، وفيها ما لذ وطاب من
فواكه وأعشاب ، وطعام وشراب ، وحالما رمى زاده ليخف حمله ، فجأة
اختفى ما حوله. أيعقل ذلك يا أمي الحاجة ، وأنت اكتشفت النفط قبل
وصول البعثة إليها ، والخمرة بلون الماء ، فإذا أضفت لها ماءً صارت
بلون الحليب ، كيف يا أمي يمتص النخيل البترول تحته ، ونحن نصدره
إلى الصين والأمريكان ، والدنيا كلها ، فيشمنون في البلح رائحة
غريبة !!

- تخيل يا حسن ! أمي الحاجة !

- قلت على مهلك !

- حسن ! تخيل أم الرواس تبيع أرضها بمليون دينار. الدينار ثلاثة

دولارات ، ثلاثة ملايين بيد أم الرواس ، ويحق لها أن تدخل نادي
المليونيرة مع الشاه وأوناسيس .. إيه..

- بهزة من كتفيه :

- وماذا يهملك منها؟

- أسأل نفسي بكم نبيع أراضينا نحن بيت النمر بالقياس إلى أرض

أم الرواس الصغيرة؟

- على أية حال أنت الآن غني من دون الحاجة إلى بيع.

- بالوقت نفسه لست مثل عمي.

وكرع كأساً أخرى وأضاف :

- بخصوص انتمائي للحزب.

- كلام جد؟

- قلت ليس هناك من مانع.

- تعدني أنه ليس...

- ما زلت صاحبياً...

ومع آخر كأس لم يعد يشعر بالأرض. تلاشت الحانة أمام عينيه ،
كما اختفى الصخب ، وغنف الشتاء بلحظة واحدة. ظلمة. عتمة ،
واسترخاء تام ، وبين وقت وآخر غيبوبة ودوار ، واستيقظ على ضعف
وصداع في ضحى اليوم التالي ، وكان كمن خرج من معركة هدّت
قواه ، فعرف أن إفراطه في الشرب ، للمرة الأولى ، فضحه. كيف غاب
عن الوعي ، وكيف وصل إلى البيت؟ فلا بد من أن يتدفق خيط
الذكريات بتؤدة حالما يستعيد قواه. أكثر شيء يضايقه غضب الداهية
عليه ، وقد اتضح لحظتها أن الغضب الموعود تلاشى بالصمت ،
والتجاهل. أعرضت عن الكلام معه ، وما أثقل الصمت. وحيد في
زنزانة. يأتيه الطعام من طاقة في الحائط. وخلال الصمت يذوب طعم
الكلام ، وحلاوته. هو التجاهل ، سيفك يا داهية ، والحلم الغريب
الذي يراه أقرب إلى شفئك المطبقتين : جده تمثال على الرصيف. المارة

تمائيل تدور حوله. الشوارع التحمت جميعها بدرب واحد معبّد مثل المرأة. الأرض كلها سكنت، على حافة هاوية لا يعرف ما بها. صمت مطبق، وفجأة... يظهر كل ما في الكون يتكلم. العالم ينقلب إلى صوت صახب. التماثيل تزعق. الطيور تطلق صراخاً. الأشجار تخشخش. السيارات الواقفة تعوي. كل شيء حتى النمل. الحشرات تصرخ. تزعق. ما عدا الداهية لا ذت بالصمت. لم تكن بعيدة عنه لكنها تجاهلته. ولو انتبه لوجدتها تنظر إليه من طرف خفي، أما هو فكان يصرخ بصوت عال. همّ أن يهرب من المكان ذاته إلى آخر مجهول لا يعرفه، وإذا به يعجز عن الركض إذ تحجر نصف وجهه، وجسده، فأخذ يزعق ويضرب يديه ورجليه الأرض الإسفلتية، فاستفاق من حلمه الغريب، وكان جسده مبتلاً بالعرق، وما أشد انتظار الصباح، وما أطول الليل. مهما يكن فلا بد من أن تكلمه الداهية، وإلا سوف يقتله الصمت، وتعاوده الكوايس كلما استسلم للنوم. كان يأخذ يدها فيلفها على وجهه وشفتيه ثم يهتف متدللاً:

- أرجوك يا داهية كلميني!

و حين طال صمتها، ازداد رجاؤه:

- لو سكنت الدنيا كلها لما باليت إلا أنت يا داهية.

فنظرت إليه مشفقة، وقالت:

- أهذا هو ابن الوليِّ؟ سكران يسبح في قيئه!

- أعترف أنني أخطأت.

- من كان معكما؟

- نحن وحدنا (قالها وعيناه إلى الأرض).

- الحق إنني كنت غاضبة على حسن لولا أنه أخبرني أنك أجبرته

وكان يخشى عليك من أن تجلس في الحانة وحدك، فتفقد وعيك ولا أحد معك.

- كنت متعباً بسبب ناهدة.

رقص أمام عينيها ثانياً الملح، والتمتمات، وامتدت يدها تثقب

سراويله وملابسه لتدسه فيهما من الداخل، وتمتت بابتسامة لم تفصح عن أي غضب أو رضا:

- الحمد لله على رحيلهم. أتصلت بي زوجة عمك، وودعتني قبل

سفرها. سلام مجاملة.

- أمر غريب دائماً أفكر لماذا رحل عمي، ولأي سبب.

- عمك مغلق مثل اليهود. ذئب، ثعلب. ولو أن الأخبار تسربت

إلي من أم جميلة على لسان زوجها وحلفتني ألا أذكر الخبر لأي

غريب أنه رحل لكونه محسوباً على الشخصيات المقربة من الرئيس

السابق قبل أن يقع الفأس بالرأس.

- كل احتمال وارد، وكما لو أنّ خدراً دبّ في أوصاله :

- ألم تحمل لي سلاماً من ناهدة؟

- فكسرت تقطيبها بإبتسامة :

- أنت مثل الديك يموت، وعينه ترنو إلى المزبلة.

- لم تعلق خجلاً، وواصلت :

- النساء كثيرات كثر التراب، وابنة عمك ليست آخر امرأة في هذه

الدنيا، ورحم الله أمك الحاجة حين قالت عنهن إنهن مجرد أصباغ.

- معك حقّ يا داهية.

- دع الأمر لي فعروستك جاهزة!

يعرفها جيداً، تظلّ تلحّ. الحاجة المرحومة لا تنال الراحة روحها

التي تظلّ تجوم حول البيت حتى يتزوج عبد الغالي، فتمطر الدنيا على

قبرها، ليعود السؤال القديم من جديد :

- ما رأيك هل أزور أم مصعب.

- نفث الهواء، وقال وهو يتمطى :

- قلت الرأي رأيك.

فصمت لحظة، ثمّ خطت إلى الرّف حيث المصحف، وعادت

تضعه أمامه قائلة :

- أقسم لي أنّك لن تعود إلى المحرّمات مرّة أخرى.

فسارع من دون تردّد:

- أقسم.

وكان يخرج إلى البستان بعد عشرة أيام من صمت الداهية عليه،
وقد انزاح ثقل عظيم عن صدره، وكأنّ الدنيا كلها بأناسها،
وأشجارها، وحيوانها، وجمادها رضيت، برضا الداهية عنه.



يمكن أن يعدّها خسارة جديدة يضيفها إلى خسائر بدأ يحسّ
بفداحتها بعد رحيل ناهدة، فقد كانت عينيه اللتين يرى بهما العالم
جميلاً يلفّ من حوله، كأنّ الخواء هو الذي يحكي، بلسان الداهية أو
أيّ شخص آخر لا يهمّ. هكذا تجري الأيام، ولكن من الحكمة ألا
نلوي كفّ الزمن، وإلا فما معنى أن تسبق أخت عبدالعليم الداهية
بيضعة أيام، وتطلب يد جميلة! ولم يكن بوسع أمّ مصعب أن تمنع،
بعد أن أعرض حسن عن البنت، وللمرّة الأولى يخرج أبو مصعب عن
رضوخه لزوجته المدللة، ويتدخل باحتجاج أقرب إلى العنف على
الرغم من أنّه يعلم أنّ هوى امرأته يميل إلى الداهية. مع ذلك فهو
لا يدري، أهو الذي تأخّر عن مواعده أم النبوءة، والغريب في الأمر أن

جدّه في قبره يحرك العالم، وهو لا حول له ولا قدرة. حظ. مجرد مصادفة أن يُولد في هذه القرية حيث النّقود تهرب منه، والنّساء. وبدأ له - كأبي من أهل القرية الحاملة - أن يلجأ إلى النّبوءة القديمة التي برزت مع الأحداث الجديدة، فأعادها الكبار إلى الذاكرة من جديد، فها هي قرينته مرّة أخرى ترى العالم كما لو أنّه شجرة في أحد بساينها. ولم ينبج من الشرّ أحد. ما الذي يخبئ المستقبل. أمامه فراغ هائل، فكيف يروض الوقت، ويلوي عنان الزّمن؟

في اليوم الذي عادت إليه الداهية خائبة من لقائها بأمّ مصعب، خطر في ذهنه ذلك السؤال الذي ألحّ عليه منذ أن سمع الخبر، وبدأ يباري النّبوءة من جديد:

- يا داهية. ما الذي نفعله لو صحّ الخبر وظهر أنّ نهر جاسم تسبح على بحر من النّفط والحكومة مصرّة على أن تشتري أراضينا؟
لاح على وجهها أنّها أعدت الجواب منذ سنين:

- في هذه الحال سأنقل جثمان جدّك إلى النجف، في دار السلام جنب أبيك وخالك، وسنسكن هناك.

آية أرض نسكنها، وأي عمل يجده بدل المكبس والبستان، ثم تعود بثقة تامّة:

- كلّ هذا كلام فارغ! لو كان هنا نفط لاكتشفه الإنكليز منذ زمان.

لقد جرّبوا كل السبيل ، فلا تشغل بالك.

كلّ شيء بقدر. ناهدة تركته ، ورحلت إلى عالم بعيد ، جميلة سبقه ابن عمّتها لخطبتها ، وفي هذه المرّة خرج السيّد عبدالعليم عن حياده ليقف جنب أخته ، كل هذا ونهر جاسم تتحدّث عن النفط ، والحرب والسّلام ، فمتى تقوم السّاعة واليوم الموعود ، لكنّ الوقت أمامه طويل ، والشتاء طويل. يحاول أن ينبش الزّمن ، فيفهم حقّ المعرفة ، قريته التي لم يخرج منها إلى مكان لحدّ الآن ، وكلّ ما يرجوه ألاّ تحقّق مغامرته كما أخفقت ، وهو صغير ، يوم تسلل مع حسن ، وابن المسعود لينالوا السرّ المختوم في الاسم الأعظم ، لكنّه لا ينكر أن النبوءة التي انطلقت من نهر جاسم قبل سنوات ، حول الحرب والطريق ، هي الأمّ الكبرى لكل الأحداث. العلاقات رجعت متوترة بين العراق وإيران. الجيش تحرّك ، كل شيء محتمل. انفجار. اشتباك. الزّمان يشهد رايات سود تخرج من الشّرق ، فتغزو العالم. تهديد يصدر من إذاعتي بغداد والأهواز. سباب. تهديد شتائم. وعيد. ناهدة في لندن ، وجميلة سوف تغادر نهر جاسم ، والفراغ وحده يحيطه ، فلا يرى إلاّ جيوشاً تستعرض على الحدود ، وتكاد المدافع المتقابلة يأكل بعضها بعضاً. من يدري؟ قد يسكر ضابط أو يفعل فيطلق قذيفة تشعل الحرب. كلّ شيء وارد في حسابات هذا الزّمن ، ثمّ عمّر الأحلام مثلما

مرّت ناهدة وجميلة، فيسمع بصلح، ويرى عناقاً حاراً بين المسؤولين، في ذلك اليوم قد يحقق حسن أمنيته، فيصبح شخصية ذات وزن ثقيل. كانت النبوءة تتسع فتصبح جزءاً من عالم كبير تحيطه عيناه إلى ما لا نهاية من الصّور، فيبدأ بالذاهية ويمرّ بابن المسعود، وعبدالعليم، وآخرين، لعله يلتحق بالأسطورة، أو النبوءة، فيصل قبل فوات الأوان:

- يا داهية، فكّرت هذه السنّة أن أكتب كتاباً عن نهر جاسم وجدّي، وأريدك أن تحدّثيني عنه!

من حقها أن تستغرب. ابنتها تجاهل الماضي طول الفترة الماضية، كان لا يُعنى إلاّ بالحاضر والمستقبل الذي رآه في ناهدة، ثمّ صدمة جميلة. عنيد صريح. مثلها وكأبيه ذكيّ، غير أنّه لم يحمل منه حلمه الواسع، وكتمان السرّ، وعلى الرّغم من كلّ المصاعب والمحن، فإنّه لا يقرّ بهزائمه. أشبه بالتاجر المفلس، يرجع إلى دفاتره القديمة بين حين وآخر، لعله يجد ما يُنقذ ثروته من الضياع:

- جدّك الولي يعرفه الناس جميعاً ويعرفون قصته في وقت الفيضان. الأحياء منهم يذكرون قصص الفيضان، وحوادث (دوسن) و(الجلبي). لا أحد ينكر معجزاته، ولا يجرّؤ أي فرد على المزاح، أو النيل من خوارقه.

فقال بابتسامة واسعة ترتسم على شفثيه :

- وهل تظنين أنني أنكر معجزاته يا داهية؟ أنا أريد فقط أن أسمع منك ما خفي عن الناس، كي لا يضيع تاريخ عزيز عليّ، فالدنيا ليست بذات أمان، ثم افرضي أن غداً أتى بالشرّ، فاضطربنا إلى الرحيل. هل يضيع كل شيء.

- لا قدر الله يا ولدي.

- يا داهية. الأشياء قريبة مني. تبدو على باطن كفيّ، لكنّها بعيدة. المهمّ أريد أن أعرف كل شيء.

صمتت لحظة، وبادرت:

- كنت في الرابعة من عمري يوم حملني خالك على كتفه وانطلق بنا الولي. يومها قيل إنه، قتل الكثيرين، ثم توقف عن القتل. لبس الجبة والعمامة. انسل من الحرب، فقد ألهمه الله أن هؤلاء الأشرار، إن تركهم، سوف تولد من أصلابهم نطف خيرة، تحارب في سبيل الدين، وتعلي كلمة الله. إنك يا سيد جاسم إذا قتلت الشر، قتلت الخير معه، كأى رجل صالح وجيه عند الله وجد في إبريق الوضوء الشيطان، فوضع يده على فم الإبريق ليحبسه عندئذ، والشيطان قد حبس، خرج الشيخ فرأى شيئاً عجيباً، الناس في دكاكينهم ومحلاتهم وبيوتهم عاكفون على القرآن ليكون شر أعمالهم ويطلبون الآخرة والثواب،

فما كان على الولي الشيخ إلا أن أطلق الشيطان من الإبريق لتستمر الحياة، وفضل، يا نور عيني، الغربية والرحيل على أن يبىد أعداءه، ولو قال كلمة واحدة لما ردها الله، لمنزلته عنده، وحين أتى إلى هنا كان اسم المكان (بيت جوك) ومن قبل (عرب حمدة)، ويدفن الولي فيها، وظهور المعجزات، أطلق الناس على القرية (نهر جاسم) تيمناً باسمه، فأقرت الحكومة التسمية في سجلاتها الرسمية.

- وماذا عن نبوءة الطريق؟

- الحديث ظهر بعد دفن جدك، وقتها قيل إن طريقاً سيشق النخل ليربط نهر جاسم بالتنومة والحدود، ويظل غير معبد، فمتى ما عبد قامت الحرب، (والتقطت أنفاسها لحظة، ثم وكأنها تغالب الماضي وتكوره بعينها) إنها الحرب الثالثة يا ولدي التي سيرجع الناس فيها إلى السيوف والرماح بعد أن يفنى ما لديهم من سلاح.

كان ينصت باهتمام وقد أدرك، ربما الآن، بعض السر في إصرار الداهية على لبس السواد حتى هذه اللحظة. والمستقبل غامض. مبهم. مثل خطوط ترسم على يده، وفيما مضى ظن أن كل شيء جرى بأمان. أي من كان يرى زوال الشاه؟ أشبه بالحلم! معجزة ثم انهارت، فكيف يأمن أن ينام ليله ونهر جاسم تعوم على بحر من النفط. سفينة تعوم على المياه، وتحتل أنفاس الرياح الغادرة، وفوقها تتقاطع

المدافع ، وتحوم النسور ، لكن الله وحده يعلم متى تقوم الساعة.
وتدخلت ملكة الليل لتدلي برأيها :

- من كان يصدّق أن ينقلب النّاس في ايران بلد الفسق والفجور إلى
الحجاب والدين ومن البارّات إلى المساجد ، فتجد نهر جاسم نفسها
على كفّ عفريت النّفط من تحتها ، ومن فوق المدافع والطائرات !
- وبقدرة قادر يمكن في أقلّ من رمشة عين أن تستدير فوهات المدافع
ويسكن كلّ شيء .

- هذه المرّة استشرس البعث يا داهية ، فسقوط الشّاه والفوضى في
ايران نّبهم لأمر كثيرة .
واندفعت ملكة الليل ثانية :

- صحيح السيّد في ايران ، يقولون ، لن يسكت على قتل العلماء
ونسجنهم في العراق ..

- إياك وأن يزلّ لسانك خارج البيت ! (ثمّ عادت إلى هدوئها بعد
لحظة) لا تخافوا الحرب لن تبدأ من ايران والعراق بل من فلسطين . في
البداية ينهزم العرب كما تقول الروايات ، وترجع فلولهم إلى شط
العرب ، عندئذ تهبّ النّجدة من بني أصفر أهل الصين الذين يأتون
كالجراد المنتشر ، ولكي يعبروا باتجاه فلسطين ، ونجدة العرب ، فإنهم
يمرّون من طريق نهر جاسم الذي يضطّرون لتعيده حتى يتحمل ثقلهم

وآلياتهم الحربية..

تؤكد ملكة الليل :

- لذلك قال النبي اطلب العلم ولو في الصين.

- لكنّ أهل الصين ليسوا مسلمين يا داهية.

- من أدراك لعلهم يسلمون بعد عام... عشرة... أو مائة!

ملكة الليل :

- من يدري ، الله على كل شيء قدير.

بعد تأمل :

- الشيء الذي حيرني يا داهية أن جدّي صنع المعجزات ، وتنبأ في

يوم ما بالطريق والتعبيد والحرب ، فلم أراه يعتزل وكأنّ آية خسارة في

المال تلحق بنا لا تعنيه. كم مدّ يده إلى الغرباء!

لاح على وجهها استهجان :

- لا تفجرا يا ولدا من قال إنه تخلى عنّا؟ لو كنت ابنه الحقيقي لما

شربت الخمر (وأضافت مؤكدة) من يدري عسى أن تكرهوا شيئاً وهو

خير لكم ، لعل الخسارة في النقل البحري دفعت بلوى كبيرة ، وضياع

المال في احتراق بيروت دفع مصيبة عظيمة ، كلها دفع بلاء ، فمن قال

إن الغالي لا يذكر ابنته وحفيده؟

كان يصغي إليها بكل جوارحه. حديثها يبعث في النفس الأمان.

واحة هادئة وسط بحر متلاطم. ألد خصومها يرجع مقتنعاً بما تقول،
والحجة في يدها، كأنها تستل البرهان من طرف عباءتها. كان يتوقع
الحرب قبل لحظات، وإذا به يرى السلام يخيم على العالم، والطمأنينة
ترف على روحه. تكلمت كثيراً عن جده وأبيه النمر، وفي كل مرة
يسمع حديثاً قديماً جديداً. سحر الماضي المتجدد الذي لا ينتهي عند حد.
الغموض والوضوح كأن الدنيا ذاتها تتجمع أمامه فيذكر الحرب
وينساها بالوقت نفسه، فجأة يتذكر أنه سألها عن الحاضر والحرب،
فنسي وهو يصغي إليها الخوف، ويعود إلى الماضي المبهم الذي يود أن
يحل لغزه من خلال سيرة أبيه وجدّه:

- هل مات أبي ميتة طبيعية؟

يتغير لونها قليلاً. تكبت شيئاً في داخلها. السر مات مع المرحومة
الحاجة، وهذا الطفل الكبير يجعله مظاهر الحرب المنتشرة هنا وهناك وفي
العقول ينبش الماضي: أشجانه وأسراره ليعبث بها. لعبة جديدة تلهيه
عن كل الخسائر، خاصة ناهدة وجميلة:

- ماذا تقصد يا حبة عيني؟

- أبي حلم نهر جاسم إلى بغداد، لو كان عاش لما وصلت الذئاب
إلى الحكم، ولقطع الطريق على كل هؤلاء. دوسن نفسه كان يستشير.
تصوري يا داهية كلما رأيت الجيش والدبابات، وسمعت الإذاعات،

وأصغيت إلى الناس يفكرون بالموت. تذكرت النمر، وسألت نفسي هل يعقل أن يموت ميتة طبيعية هكذا...

بنظرة ثابتة حادة:

- ومن تراه قتله؟

- نوري السعيد!

- هذه حكايات، الله أعلم بصحتها، ثم ما فائدة أن تعرف. نوري

السعيد قتل وحسابه عند الله! مع ذلك أقول لك إن الغالي كان يعاني من قرحة في الأمعاء، فلا تظلم الناس.

- يا داهية مجرد بحث، فكثيراً ما سألت نفسي آخر بقايا النمر رحلوا

إلى الخارج، وأنا الوحيد...

مقاطعة عن ضجر:

- ألا يكفيك الولي وسمعته؟ الدنيا كلها من المشرق منبع الأولياء،

وجدك واحد من هؤلاء، والناس تلوذ به، والأولياء في كل مكان،

وهم يختارون أين يعيشون، وأين يموتون.

ماض جديد، معروف، وغامض، فمن يكون بعد الداهية؟ أي

واحد آل العمران. القرية كلها، وربما يبدو ابن المسعود الأفضل لأنه

أسن الأحياء الباقين في هذه القرية من زمن جده، وذاكرته احتفظت

على الرغم من الكبر والعمى، بسطوعها، فلم يحجها غبار السنين.

كانت عينا الرجل تحديقان في مجهول بعيد. لعل عبد حلم بجده فأوعز إليه أن يتصل بآل المسعود ليرفع عنهم غضبه، وربما هي الداهية وقد حلمت ببشارة خير فأرسلته إليه. كان ابن المسعود يقول الحقيقة، دون مواردية:

جدك يا ولدي كان عظيم عصره، لو سكن النجف أو كربلاء، لغطت شمس كل النجوم، غير أنه فضل أن يأوي إلى عرب حمدة، فيضع ركابه في (بيت جوك) لتواضعه، ولعل الله يجعل نهر جاسم عظيمة ببركته، إذ يقال إن الرايات السود تمر عبر قريتنا نحو فلسطين، ومع كل لحظة ترافقها إطراقة يظل ابن المسعود يحث الخبر على الحضور:

يا ولدي قاتل جدك الكفار والمنافقين، فسقط من ضرباته آلاف، وآلاف، إلى أن هداه عقله إلى حل يشبه السم اختاره طوعاً، لو استمر يقتل ويقتل فستفنى البشرية، تلك إرادة الله ولا راد لقضائه، فأعرض عن القوم حتى وقف عند قريتنا هذه، فحماها من الطوفان، وبأمر الله فاضت بركته علينا ونقمته على أعداء الدين. كان الولي على شفاه أهل القرية يأتي من أماكن مختلفة. من الأرض كلها. بعضهم قال إنه من فلسطين، وسوف يعود إليها أنصاره ذات يوم، وذكرت شفتان أنه من الجزيرة العربية، حارب أعداء الدين، والمارقين قبل أن يستولوا على

مكة ، وسوف يعود أنصاره إلى هناك في يوم ما ، فيرجع إلى قبر الرسول
عزّه ، وبهاؤه ، وذكرت عجز أن الولي قدم من أقصى الشرق ، فسكن
نهر جاسم . كان ذكياً وشجاعاً ، أسمر اللون واسع العينين ، وسوف
يبحث أهل الشرق في كتبهم ، ويجدون اسمه ، فيهبون باتجاه القدس ،
وربما من يذكر أن صاحب الضريح أسراً لأناس في أحلامهم بعض
غوامض الأمور ، لكن كل شيء ممكن أن يظهر في وقته ، فالساعة آتية
لا ريب !

كل شيء بأوان وقدر !

هكذا تحدثت الأبواب بوجه عبد الحفيد !

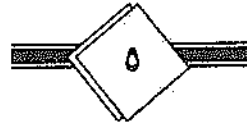
وهكذا نطقت الشفاه !

لكن نهر جاسم رغم كل ما قيل عنها لا تزهر بغير الولي ، إذ لم
تعد إلا بيوتات متناثرة استغنت مع الزمان عن هبتها الأولى ، ولولا
الأمل في النفط ، وانتظاره الذي طال ، لهاجر غالبية الباقين ، وربما يمر
الوقت فتفقد نهر جاسم اسمها من جديد قبل أن يلتم عيد شتات
الماضي . كل المظاهر أوجت بذلك . فليس هناك من عهد الطفولة أي أثر
ما عدا حسن المتطرف في عمله السياسي ، ولا هم له سوى لصق صور
الرئيس الجديد في كل مكان ، وإلقاء المحاضرات ، والخروج مع
الطلائع ، والجيش الشعبي ، أمّا المعتوه وبدعته الجديدة إذ يقابل أي

شخص فيهدف فيه ، وهو يهرول ، هميني... هميني... أي شخص كان ، فيدرك جيداً أن قرينه تطرفت في كل شيء... الداهية في حب الزعيم ، وعبدالعليم في تعلقه بعبدالناصر ، وجيل الطلائع والفتوة وهم يغنون للرئيس الجديد ، ويهتفون ملوحين بالحرب ، فلم يذهب بعيداً ويسأل ، في حين تطرفت قرينه في خلع اسمها عدّة مرات ، كأنها أفعى تنزع ثوبها ، فهل يضيع الاسم القديم وسط الفوضى والصخب ، وقد غيرت القرى أسماءها. كوت سوادي أصبحت التأميم ، وكوت الجوع التي تعني الفقر ومرارة الأيام السابقة ، الاقطاع والشيوخ ، صار اسمها الثورة ، والدعيجي أضحت عتبة ، فهل يأتي دور نهر جاسم ، والأدهى أن بنت الولي كادت تذوب من القلق على أن تخلع نهر جاسم ، وسط الفوضى ، والحديث عن الحرب ، اسم أبيها الولي ، فأبي شتاء ، وأية أفاع تلك التي ستخلع فيه جلودها ، ماعدا نهر جاسم التي ظلت إلى اليوم تحمل اسم الولي الأمر الذي جعلها تتنفس الصعداء ، وتعدّها معجزة أخرى ، ويبدو أن حسن نفسه تدخل على حد زعمه حيث ذكر للداهية أن الحكومة تنوي تغيير أسماء القرى التي لا تتناسب معانيها مع التغييرات الجديدة ، وسوف يعترض إذ يثيرون اسم قرينه ، ولم تشق في البداية بما شاع إلى وقت قريب ، فأدركت أن كلمة ابن العمران مسموعة في الفرقة الحزبية.

على آية حال ، بعد تغيير القرى بقيت نهر جاسم على حالها ، فلم يسأل عبد الآخرين ، والحقيقة الغريبة بين يديه ، هي والمجهول على حد سواء ، وهناك أمور تظل لا تُعرف إلى الأبد. قد تكون قريبة منا. وفي تلك اللحظة ، وهو يتذكر جدّه ، والاسم الثابت ، والأسماء المتغيرة ، عاهد نفسه ألا يسأل أحداً بعد الآن ، بالوقت نفسه ، لم تخف الداهية اهتمامها ، وهي تخبره أن حسن جاء يسأل عنه ، خلال غيابه ، فأجاب ، وهو يهز رأسه :

- يبدو أنني سافرت طويلاً ، وعليّ أن أراه في أقرب وقت.



لم يكن هناك من غموض يستعصي حله ، وربما ، وللمرة الأولى بدت كلّ الأمور واضحة له بصورة لا تقبل المماثلة والتأجيل بعد ، منذ سنين وحسن يلاحقه ، وقد ازداد إلحاحه عليه بتغيير الأوضاع في إيران ، ولعلّه ارتاح من ذلك الإلحاح حين اعتكف لبضعة أيام في البيت بعد حادثة السكر المشهودة ، فكاد الصنمت يقتله. الداهية صامتة. البيت الكبير. ملكة الليل ، وتظل أسوأ حالات الكلام أفضل من قطرة صمت ، خلالها تردّد حسن في أن يزور منزل الباشا خجلاً من الداهية

التي لاح غضبها عليه أشدّ منه على ابنها، حيث عدّته أوّل شخص يشجّع عبد على المحرّمات، ثمّ سرعان ما هددت سورتها، وصفحت عن الاثنين بعد قسم عبد، ومبادرة حسن أمام المسؤولين في أن تظلّ القرية تحمل اسم الولي المدفون على أرضها. وحيث يتلاشى التردد فتبدو كلّ الطرق تؤدي إلى منحى واحد، فليكن مع الجميع، مع الناس وليس منهم، فقد ولي زمن الفرادة والتميز، ووقت العشق والهبام، أو المعجزات، والحوارق، وها هو يصل، ليقنع نفسه أنه على الأقلّ مقتنع بما أقدم عليه. كان حسن في انتظاره مثلما توقع. استقبله بنكتة، وهو ييسط إليه يده؛

- أكدت لي الداهية أنك ستمرّ عليّ لكنّها (ابتسامته تتسع لتسبق بقية كلامه) حذرتني من أن نذهب إلى البار!

- تلك كانت الأولى والأخيرة.

- الحمد لله أنّ الداهية صفحت عنّا.

- ما كان الصفح ليمرّ بمثل هذه السهولة فيأتي الصفح منها لولا

جهودك في الإبقاء على اسم جدّي اسماً للقرية.

- الحقّ إنّني أخاف من غضب الداهية لكونها ذات فضل عليّ،

ولأنّ غضبها غير محمود العواقب مثلما هو معروف عنها.

- شيء عجيب أن تؤمن كلّ الإيمان وأنت نفسك...

- إذا كنت تظنني أنككر الأمور الغيبية، فأنت مخطئ! (ثم سكت

ليتابع) المهمّ أتعرف لماذا طلبتك؟

- الأمر واضح فقد أعلنت انتمائي تلك الليلة!

ابتسامة واسعة:

- وهل هناك انتماء في حالة سكر؟

- يا حسن لم تلح! أو بالأحرى تتناسى! الرئيس يوم كان نائباً

قال:

المواطن الجيد هو بعثيّ جيد!

- أعرف ذلك جيداً، وقال أيضاً كل العراقيين بعثيون وإن لم

يتموا، وأستطيع أن أقرأ لك عن ظهر قلب معظم الكراسات الحزبية.

في السابق اختلفت الأمور عمّا هي عليه الآن، كان اسمك إذا ذكر في

الاجتماعات الحزبية أخذ الأمر على عاتقي فأطلب منهم أن يتركوك،

لكن في هذه الأيام اختلفت الموازين بعد أحداث إيران.

كان يهزّ كتفيه مقاطعاً:

- طول الفترة السابقة، عدّة سنوات مضت، والحزب يبني نفسه،

ثم يظهر الخوف من ثورة فتية لم تستقرّ بعد؟

- الغلط الكبير الذي اقترفه الشاه أنه سمح لرجال الدين والأحزاب

الدينية بالعمل لكي يضرب بهم التيارات اليسارية والوطنية، فخرجت

الأمور من يديه، وفق هذه الرؤية لن نسمح للخطأ أن يتكرر عندنا،
وستقوم بمسح كلِّ العوائل والأسماء، فمن ليس معنا بالضرورة
يُصنّف ضمن الأعداء، إمّا عدوّ، أو معنا، أمّا المستقلّ، فكلّمة
غامضة، غير محدّدة المعالم. العدو معروف. المستقل (وتوقف فجأة عن
الكلام، فاغتنم عبد الفرصة ليقول):

- ولم نخاف منهم، ما داموا أعلنوا وقوفهم معنا لنصرتنا في
فلسطين والعداء لأمريكا وإسرائيل!؟

- الحق أنا لا أثق بالإيرانيين. دائماً يبحثون عن الزّعامه، إذا تكلمنا
بمنطق الدين والطوائف نجدهم في الوقت الذي كانوا فيه سنّة اختلقوا
المذاهب الأربعة، ومنهم أيضاً مسلم والبخاري، وإلا لما كان العرب
يعرفون المذاهب، وعندما اعتنقوا المذهب الجعفري، حاولوا أن
يستوعبوه مثلما فعلوا بالمذاهب الأخرى.
أقرب إلى السُّخرية:

- حسب رأيك كل العرب غير الشّيعه يجب أن يرحلوا إلى إيران.
تجاهل، ومن خلال نظرة هادئة:

- ليس إلى هذا الحدّ، لكن الدّين سلاح ذو حدّين مثل السّكين
يمكن أن تستخدمها في المطبخ، وبإمكانك أن تقتل بها، فأبي منطق
يمكن أن يجزّه علينا حكم رجال الدّين.

- مع ذلك العراق أعلن قيام الوحدة مع سوريا، وعلاقة السوريين

بالإيرانيين جيدة، من خلال هذا الطريق يمكن تلطيف الجو.

- لكي لا يتشعب الحديث فنقفز مثلما تقفز قريتنا من فلسطين إلى

الصين و طهران وبغداد، أقول لك بالحرف الواحد، هذه استثمارات

الانتماء أمامك، سوف أسافر إلى بغداد في مهمة مثلما أبلغت اليوم،

وآمل أن تكون ملأتها حال عودتي، وإلا فلن أستطيع أن أدافع عنك

بعد الآن، لأن الذي يستدعيك سيكون ضابط الأمن نفسه.

- كل ما أروم قوله، قد يكون الفرد منا مؤمناً بفكرة معينة، أية

فكرة كانت، لكن ظروفه ومشاغله أحياناً تمنعه من ...

- قلت لنحصر الموضوع في مسألة محدّدة، قارن بين وضع قريتنا في

السابق والآن. الماء والكهرباء والتعليم! كم مرّة حاول المرحوم والدك

أن يصل إلى بغداد، وكم مرّة حاول عبدالعليم! كنّا نهمّ بالوصول

واليوم بغداد تصل إلينا.

لحظة فراغ لزم خلالها عبد الصمت، وواصل حسن بأسلوبه

الخطابي:

- اللهم إلا إذا كانت لديك مآخذ على الحزب!

- أبداً لا ليس هذا المقصود.

- من منا لا يرغب في الوحدة، ومن يرفض الاشتراكية. الحرية؟

نحن محاطون بالأعداء من كل جانب، إيران، دول الخليج، الأردن.
خلاصة الكلام من لم يتسب فهو عدو.

ذاكرته أبعد من هذه اللحظة، فأين هو الزمن الفاصل. الثلاثة
ركبوا الأحلام والأمنيات. ثقبوا الخيال والضباب، وعبروا مع
الجنيات، وحلقوا مع الملائكة. أسقطوا رؤوساء وعاقبوا معلمين
يكرهونهم، وانتقموا من أناس لا يحبونهم، وقبل أن يصلوا جنّ واحد
منهم، واكتفى عبد بهزائم المتتالية، ليستفيق من الحلم على كابوس
ثقيل حلم به الآباء والأجداد، وأن أن يتحقق في عهده هو، أما ثلثهم
فقد كذب كذبه صغيراً فصدقها كبيراً، فلم يلوم حسن وحده؟ ألم
يبدأ الثلاثة مشوارهم بلعبة، وهو بالذات ألم يتطرف في حبه لناهدة،
وما زال يغالب الهزيمة، فأين هو الصبي، وقد توزعه الجنون مرة،
والتطرف والهزائم أخرى؟

- من ليس منا فهو عدو.

كانت أجمل فتاة يا حسن الأجل والله، مثلما اندفعت أنت نحو
الحزب، أنا أيضاً نحوها:

- آخر كلام ويكفي التردد.

- لترجع من بغداد بالسلامة، فتجد كل أهالي نهر جاسم انضموا

للحزب، ولست أنا وحدي، حتى ناصر المسعود سيكون معنا.

- أتظن أن الحزب بحاجة إلى الناس! كلا، إنه يريد إنقاذهم مما هم

فيه من غفلة، ويريد احتواءهم قبل أن تخرقهم التيارات الأخرى.

ولما عاد إلى البيت وجد الداهية في انتظاره. شيء ما في عينيها. ليس

الشك أو الخوف، ولا القلق، مع ذلك لم يستطع أن يدرك كنه ذلك

الغموض. كان يبسط الأوراق أمامها ويقول:

- يا ستة مع الستين (وأكدت متحمسة) أنت مغفى من العسكرية،

ولن يأخذوك في الجيش الشعبي. كف شرهم عنك.

- سيكون ذلك بعد عودة حسن من بغداد!

- أين قلت؟

- في مهمة ما إلى بغداد.

- وماذا يفعل؟

- ما أكثر المهمات التي تنتظره، فقد أصبح مهماً، ولو طاوَعته،

وسجلت في الحزب معه يوم كنا صغاراً...

- يا له من زمن. بغداد التي كادت تستجير بأبيك ليحكمها، ومن

بعده وجيهاً معروفاً مثل عبدالعليم...

ولم تزد عن ذلك، كأنها كانت في خيرة من أن تهرب من الكلام

أو الصمت، أو من كليهما إلى أي شيء آخر!!



غاب حسن عن القرية ثلاثة أيام، كانت النبوءة خلالها تنبعث من جديد، كما لو أنها أزاحت غبار النسيان عنها بعد ما كادت تتلاشى وتندثر في ذاكرة الجيل الحالي، لكنّ الذاكرة امتدّت بها بعيداً حالما ظهر ذلك الأمر الغريب، ومن رآه عن قرب أو بعد تجلّت له كلّ التفاصيل حيث أبلغ الشاهد الغائب: ذلك اليوم من الضّحى إلى ما قبل الغروب شاع الخبر عن حصان غريب مشوّه الحلقة يتجول في بساتين نهر جاسم. لم يعرف أحد من أين أتى. كان يعرج، وقد تهدّل لسانه على الجانب الأيمن من فكه، فظلّ فمه مفتوحاً لا ينطبق، وعيناه، أشبه بعيني غاصّب أو أحموق، ظلّتا تحمقان دهشة في المشاهد المنتصبة حوله. في مسيرته اخترق الحصان البساتين من طريق حسان، فالمفرق، وتوقف عند قنطرة الحوريّة. تردّد، كأنه يفكر بشيء ما، ثمّ مال عنها إلى بساتين كندا والمسبح المهجور واليوسفيّة، وكلّما مشى خطوات أو هاج مهرولاً برجله الأماميّة العرجاء، التفّ خلفه، عن بُعد، خلق جديد، حتى يخيّل لمن يرى نهر جاسم تلك السّاعات كأنّها بمجموعتها التي تقفز السواقي والأنهار مثل البالون يكبر لحظة بعد أخرى، بل هي أكبر من مدينة البصرة نفسها، وبين فترة وأخرى، يقف الحصان الأعرج المشوّه

عند ساقية صغيرة، يتأمل لحظات، يمدّ رأسه، يهمّ أن يكرع الماء، فيعجز، ولا أحد يجرؤ على الدنوّ منه، فضلاً عن أن يفكر بإطلاق النار عليه خشية من أن يكون ملاكاً أو مسخاً، ولعله جنّيّ، عفريت، حتى الحزبيّون، وأفراد الشرطة ممّن يحملون تصاريح السلاح، أعرضوا عن الفكرة خوفاً من أن يجرّ قتله فالأ سيئاً للقاتل.

كاد الخبر يصل إلى بيت الباشا على أقلّ تقدير في اليوم التالي لولا أنّ ملكة الليل خرجت إلى بساتين البرّ مع قطع الغنم، وعادت قبل أن تكمل المشوار، لتخبر أهل البيت عن الحصان الغريب الذي ساقته إليها الأخبار فلمحتته يجتاز جسر (دوسن) باتجاه مقبرة عريضة، والجموع تسير خلفه كأنما هو يوم الحشر، وبعد ثمانعة غير جادة من الداهية خرج عبد يدفعه الفضول. لم يصدّق عينيه، وهو يقف مع كلّ تلك الجموع. من أين جاؤوا؟ وكيف كبرت نهر جاسم بلمح البصر، وتساءل والذكرى القريبة تلفح عينيه: أية عزلة يعيشها بيت الباشا؟ كانت الأم الحاجة تقص عليه من أخبار الجن والإنس والأماكن البعيدة، على الأرض وفي السماء، فيعرف الكثير الكثير، وتصل إليه الأخبار أولاً بأول، ومن غريب المصادفات أن يسمع المذيع ويرى التلفاز، لندن.. أمريكا.. طهران. بغداد.. القاهرة.. وكل المدن، وفي اللحظة ذاتها غفل عن نهر جاسم وهي تكبر عشرات المرات بين يديه.

الخبر يجري من حوله، ولا يدري به، حتى أدرك نفسه وهو يبحث الخطى، ويلتحق بالركب خلف الحصان باتجاه عريضة. لم يرتق التلة. توقف لحظات، فوقف الحشد، رفع رأسه إلى الأعلى، وزفر، فتدلى لسانه كحبل من بين أسنانه، ثم هروا من سفح عريضة ماراً بالضريح، منحدرًا نحو ضفة النهر الأعمى، والناس لما يزالوا يقتفون أثره، وكل يدلي ساعتها برأيه حول الحيوان المسخ متجاهلين المسافة الواسعة بينهم وبينه خشية من أن ينقلب عليهم فجأة فيقعوا تحت جنونه المفاجئ. من أين جاء المسخ؟ ماذا يريد؟ أهذا آخر الزمان؟ العلامة؟

- الأعرور الدجال؟

- السفيناني؟

ومع أية حركة منه تنقطع الأصوات، وترتقب العيون، شيئاً ما كان يقف على جرف النهر الأعمى، ماداً عنقه نحو الماء، متجهاً بينصره إلى السماء، في هذه اللحظة، انتبهوا إلى زعقة حادة، وإذا بتناصر المسعود، يتخطى العيون وهو ينحدر من أسفل عريضة، فيجتاز الحشد، ليقطع بخطوات حثيثة المسافة الخالية بين المسخ والعيون.

وقف. تأمل الحصان. راحت يدها تداعب عنقه، ورأسه، ثم مال فوق الجرف مزيحاً بعض نبات الخلفاء، وغرف بيديه حفنة من الماء. كأنه كان يقبض على حزمة من السحر. قطرات تخرّ من شقوق يديه

فتتعلق بها الأبصار إلى الأرض، أو على شفة الحصان من جهة الفك المشوّه حيث لسانه يلحق القطرات. فعل ذلك عدّة مرات. عندما ارتوى ربت ثانية على عنقه، وتمتم صارخاً بكلمات مبهمّة، والفرحة تعلو وجهه. وقد كاد كلّ شيء ينتهي عند هذا الحدّ، فيخرج الأهالي إلى حكاية جديدة، تنتهي بهم عند نبوءة تضاف إلى حكايات القرية القديمة، فتستثار كلّ القصص السّابقة عن الحرب والطريق وفلسطين، والنّصرة القادمة من الشرق حيث إيران والصين، فيتعجّلون يوم القيامة قبل حلوله. كلّ شيء محتمل لولا أن قدمت سيّارة جيب تابعة للنّاحية، ترجل منها شرطيّ ومفوضّ، أمّا الشرطيّ، فقد أتجه إلى المعتوه، ألقي قبضته على كتفه، وراح يدفعه باتجاه الحشد الذي تجرّأ بعض من أفرادهم، فاقربوا خطوة أو خطوتين، ونطق مأمور المركز بصوت سمعه الحاضرون:

. هذا تابع للشرطة الحيّالة، أصابته رصاصة بالخطأ في فكّه، ولم يعد قادراً على الأكل والشّرب، كأيّ حصان عاديّ، فارتأينا أن نطلق عليه رصاصة الرّحمة.

خيّم الصّمّت من جديد، ولما يطل. رفع الحصان رأسه، محملاً في الواقفين. كانت يد المفوضّ تسابق الصّمّت والأبصار، وتتبع جبهة الحصان. خلال لحظة اخترقت الهدوء العابر رصاصة، تطاير معها

شلال من الدم، وصخب مألوف: أناس يتحدّثون. طيور تفرّ. نباح.. صوت سيارة من بعيد عند طريق البرّ، والمعته يزعق ثمّ يهرول إلى مكان ما... وفي أقلّ من لحظات كانت القرية تعود إلى حجمها الأوّل.. أفراد قلائل يغادرون المكان القريب من ضفة النهر حيث جثة الحصان. المعجزة ليست هي التي كانت، وإلا لكانت صورة الحصان المسخ نذير سوء، هكذا شاعت الرّائحة العفنة بين النّخيل بعد يومين، وقيل الحمد لله انتهى الشرّ، وسلمت يد المفوّض الذي نطق لسانه بما غمض من سرّ كادت القرية تنام مهتاجة على بشاعته. وحين عاد عبد إلى البيت، وجد إمارات القلق ترتسم على وجه الدّاهية التي أذاها صوت الإطّاعة، فأسرع يقطع عليها تعجّلها في معرفة الخبر:

- والله مجانين. الجميع مجانين، وناصر المسعود هو العاقل الوحيد.

فقالت ملكة الليل:

- وأين هو العاقل في هذه الأيام؟

- ماذا عن صوت الرّصاص؟ سمعته فهبط قلبي لخوفي عليك. ألم

أقل لك البقاء في البيت أسلم؟

- كانوا يظنونهم مسخاً أو جيّاً، فظهر أنه تابع للشرطة الخيالة،

أصيب عن طريق الخطأ برصاصة في فكه، ولم ينجل اللبس والإبهام

حتى وصول المفوّض الذي أطلق عليه رصاصة الرّحمة.

هذا كلام لا يدخل العقل ، حصان مشوّه يدخل القرية منذ
الفجر ، يظلّ يتجوّل فيها إلى وقت الغروب قبل أن يُقتل ، أين كانت
الشرطة؟

مع ذلك يمكن أن تكون الداهية محقّة ، ومن محاسن المصادفات أن
الحصان لم يلذ بضريح جدّه ، ليُقتل بعدئذ ، مهما يكن ، فقد رأى
الموت رؤية عيان مرّة أخرى : عينان غريبتان ، لسان كريبه ، وجه منفر
شديق مفتوح ، ثمّ رصاصة تخترق الجبهة ، فينبجس دم غزير ، وتهوي
الجثة هامدة ، قبل أن تدرك الأسماع قصّته لم يجرؤ أحد على لمسه ، أو
الاقتراب منه ، هو بالذات ذهبته به الظنون مناحي شتى ، فما أعقلك
وأشجعك يا ناصر المسعود ، وكأنّه استمدّ في تلك اللحظة القدرة على
التمرد ، ولعله الخوف من المجهول الذي مزّقه المعتوه وهو يعانق الحصان
الغريب ، فاندفع يلقي عن صدره ثقلاً ناء به سنين طويلة :

- داهية ! أتذكرين يوم عثرت علينا مصادفة في ضريح جدّي نحن

الثلاثة ومعنا علبت كبريت؟

- ما الذي ذكرك بهذا في مثل هذه السّاعة؟

- كلما قابلت ابن المسعود تذكرته ، اليوم بالذات وهو يسقي

الحصان ، على جرف النهر الأعمى.

- من يدري لعله يدرك بعض الغيب ، فالجنانين يرون ما لا يراه

العقلاء.

- وقتها ادعينا أننا جئنا نقرأ الفاتحة على روح جدّي، والحقيقة كنا
نبحث عن الاسم الأعظم الموجود في القرآن الذي لا يناله الحرق.
تغيّرت سحتها فجأة، وكتمت شيئاً مجهولاً، أهو الغضب أم
الخوف؟ الله وحده أعلم:

- أكنت تكذب عليّ إذن وفي الضريح؟!

- كانت تلك هي الأولى، والأخيرة، ولم أفكر بعد بإعادة الكرة،
فتخلينا أنا وحسن عن الأمر، ويبدو أنّ ناصر المسعود فعلها، فجاءت
تلك عاقبته.

- دفع الله ما كان أعظم. لو أخبرتني حينها لضحيت لك بفدية،
ولعلنا خسرتنا في السابق بسبب هذا الفعل، لكنني مع ذلك سأضحّي.
وعادات ملكة الليل، وهي تحمل صينية العشاء، لتقول من
جديد:

- ناصر المسعود ركب البعير، فسقطت طائرة الرئيس، وهذه المرّة
لمس الحصان المشوّه، فماذا عسى أن يحلّ بالرئيس؟

ظهر الجواب واضحاً على ملامح الداهية التي بدت صباح اليوم
التالي بأسوأ حال. والغريب أنّها لم تكن لتشكو خلال عمرها المديد من
أيّ مرض، ولم تزر الطيب قط، أو تتناول دواء ماء، ماعدا إبرة

المخاض قبل عشرين عاماً، فقد مرّت سنواتها من دون دواء، كأنّها ملاك مخلوق من جسد شفاف لا يناله المرض ولا يطاله التعب، تلك الليلة - بعد إطلاق رصاصه الرّحمة على الحصان - صحت من ألم حاد في أسنانها. كادت تصرخ، وهمّت أن توقظ ملكة الليل، غير أنّها تحاملت، وكظمت وجعها. في صباح اليوم التالي شوهدت بفكّ مشوّه بسبب الانتفاخ، وشفّتين متورّمتين، في البدء ارتأت أن لا بدّ من زيارة طبيب الأسنان، وقالت تروي حكاية مرضها الغريب لملكة الليل وعبد: (إنّها كفّ أبي) كانت تتحدّث والكلمات تخرج مشوّهة: (كفّ جدّك يا ولدي)، ولو كانت الضربة بغيرها لأردته قتيلاً. ماذا فعلت الدّاهية؟ هل أعطت حقّ الله؟ وهل تابعت أخبار ابنها عبد أم هو الزّمن الذي جعلها تتقاعس، وكان لا يقرّ لها قرار حتى تدرك الأشياء وتعرف أخبارها. استعازت بالله من شرّ أمس. قرأت المعوذتين، وفكرت في الحصان المسخ الذي ظهر في هذا الوقت، كأنه اختارها لينشر إليها العدوى فتكون عبرة للشامتين! وبدلاً من أن تكشف نفسها من خلال خروجها إلى طبيب الأسنان فيراها الناس بغير فكها وشفّتيها، بدلاً من الفضيحة والشماتة، وإن لا شماتة مع المرض، فكرت أن تفوّض أمرها لله، فوضعت القرآن تحت وسادتها شأنها كلما ظهر في الدّنيا شيء غريب يستعصي على الافهام، ولأنّ الحصان مرّ بكل البقاع،

ولم يتوقف عند الضريح ، فقد رأيتُ الوليَّ ، واللهِ كأوضح ما يكون ،
وأول ما نطق فمي قبل عيني وقلبي . سألته :

- إن دعائك عند الله مقبول فلم لا تدعوه أن ينتقم من الحكومة ؟

وسكنت برهة ، ثم واصلت ، ولما يزل عبد وملكة الليل ينصتان
إليها خاشعين : جدك الذي كان يهابني ، وهو حيّ ، تجرأت روحه
الطاهرة ، فهوى براحته على فمي ، وعيناه يتطاير منهما الشرر ، ليقول
لي ناهراً : من يحكم خلق الله السيئين غير الخنازير والقروذ إذا انتقم الله
من السفاحين والقتلة . أوصل بك الغرور يا داهية لتعلمي الله ؟ ! كفى
قلة أدب ، يا داهية ، ولا تتدخل في ما ليس لك به شأن .

وإذ حلت نهاية الحكاية ، بالصمت الطويل ثانية ، اندفع عبد :

- لا تتعبي نفسك بالكلام يا أمي .

وأشارت إليه ملكة الليل أن يخرج في استدعاء سيارة تقلها إلى
العشّار للعلاج ، وحالما شعرت الداهية أنّهما تجرّءا على صمتها ، قالت
دون أن تتعثر شفتاها بالكلمات :

- لا داعي . بدأ الألم يخفّ !!

- ألم تطلبي بنفسك الطبيب ؟

- لا أنكر أنّي فكرت ، لكن مادام جدك قد صفعني ، وبذمتنا نذر

سابق كشفت عنه أنت من غير أن يذكرك أحد ، فلا داعي للطبيب ،

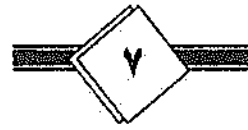
ولتكن الإبرة التي زرقتني بها ابنة لاوي لتسهل ولادتك هي آخر
عهدي بالأطباء. نعم لا داعي لذلك.

يقول عناد أم مكابرة؟ وهي لا تخجل أن تبوح بستّها فكثيراً ما
تكرر الشيب وقار، لكنّها ما زالت تعاند الزمن، كأنّها صبيّة ذات أربعة
عشر عاماً، كانت تلتفت إلى ملكة الليل، وتضيف:

- أحضري أحد الخرفان، فلا بدّ من التّضحية قبل فوات الأوان.

ولم تغادر البيت، ورفضت أن تقع أيّ من العيون عليها إلى أن
يشفى فكها المتورّم، وكان عبد وملكة الليل يُشرفان على نحر الخروف
جنب الضريح، ويوزعان لحمه على بيوتات القرية، لتحلّ البركة على
نهر جاسم.

تلك الأيام شاع أنّ الداهية صامت بضعة أيام عن رؤية بني آدم
والحديث معهم!!



أخيراً..

بساعات قبل رجوع حسن رأّت نهر جاسم القتل في كلّ مكان،
هكذا فجأة، بين الممكن والمحال انكشف الغموض، ووقعت العيون
والآذان على الصور، والأصوات في التلفاز والمذياع. عرفوا أن مؤامرة

كبيرة أخفقت ، وأن هناك دولة مجاورة تعاون معها المرتدون لإسقاط الرئيس ، المؤامرة ، هذه المرة ، قادها كما يزعم التصريح الرسمي ، أعضاء كبار في الحزب الحاكم. مادام الخونة بعثيين ، فقد فهم القاصي والداني من هي الدولة المجاورة. ولاح في الأذهان أن مشروع الوحدة سوف يؤول إلى زوال. واتضح للداهية الآن سر سفر العم النمر المفاجئ إلى لندن ، واللغز الذي اكتنف تصفية أملاكه. كان الرجل ، كما شاع ، يرتبط بعلاقات وثيقة مع المسؤولين الكبار في البصرة وبغداد من المحسوبين على الرئيس السابق ، لكن الثعلب يشم الخطر عن بعد. قبل أوانه. وربما غلب على ظن بعضهم أن عدداً من المسؤولين الذين عجزوا عن الهرب وحوكموا فيما بعد كلفوا الثعلب أن يحمل معه بعض أموالهم لقاء عمولة تقاضاها. أمّا أكثر الناس إظهاراً للشماتة ، فكانت الداهية التي علقت على نجاة النمر بأنه كلب انكليزي. صناعة بريطانية. الحادث المشهود ترك طابعه على قرية نهر جاسم فليس من باب المصادفة أن يخيم التشاؤم من جديد ، لموقع نهر جاسم القريب من الحدود ، وحين عاد حسن ، عرف القاصي والداني أن الدولة اختارت بعثيين من كل المحافظات ليحاربوا الخونة. العراق كله مارس القتل ، ونهر جاسم وجدت نفسها تطلق النار بيد ابنها حسن. هذه اللعبة البريئة التي داعبت خيال الصغير ذات يوم ، فتلقفها كما يتلقف الكرة ، وإذا بالاختيار يقع

عليه ليقتل!! النبوءة كبرت، والدأهية معتكفة حتى خف وجعها،
وخفت الورم عن شفيتها وفكها. لم تكن الحرب جديدة عليها. رأتها في
أثناء طفولتها. عاشرت الموت. مهما بعدت عن المأساة، يبدو أنها
أصبحت أكثر قرباً منها، غير أن صوت وحيدها لما يزل يلح في أذنها:
- يا ذاهية لنرحل مؤقتاً.

مقتنعة أم لتؤكد:

- أكثر من الحشود التي وقعت بين عبدالكريم وشاه إيران أيام زمان
ولم تقع الحرب.

ملكة الليل تؤكد أيضاً:

- يقال إن الشاه ترك سلاحاً يستطيع أن يحق به كلّ الدول العربية
مجتمعة، فمن يجرؤ أن يتحرش بإيران.

كل ذلك يمكن أن يكون كلاماً، لكنها راحة البال التي امتحنها الله
بها في أحلك الأيام، والطفلة القادمة من حرب لا تعي ملاحمها القاسية
إلا عبر أبيها وأخيها. تدرك أن في الأفق حرباً مدمرة، ولا تريد أن
تصدق نفسها. إنها ليست متأكدة من الزمن فقط. ربما تقع الحرب بعد
دقائق أو قرون، بل تخجل أن تزور قبر أبيها الولي بوجهها المشوه،
ولكي تتأكد من مخاوفها، انتظرت إلى الخميس حتى زال الورم تماماً،
ولم تعد تخشى من شماتة الكارهين. ذهبت إلى الضريح. أشعلت

الشموع، وجلست تتلمى خواطرها. الخجل مما بدر منها في الحلم، وقد حدثت نفسها ألا تتكلم بعد الآن. الرؤيا وحدها تكفي، وأمامها عجب الأشياء: النهاران الأعمى والكودي يعانق كل منهما الآخر. نهر شظ العرب التحم بالمالح قادماً من جهة الشمال. المشاهد تكدست وجثمت ساكنة أمامها، حشرات من حديد. بعوض غريب. ذباب. جعلان. صراصير. نمل. غقارب من حديد. حمرة تلوح من بعيد على وجه الأفق، وفوق المياه. وسط ذلك العالم المليء بالحشرات المعدنية الكبيرة، راحت تسأل عن أبيها أين هو، كأنه لم يميت أو ظنته حياً إلى هذه الساعة الموحشة بالأفق، والمتوحشة عن البشر، وحين التفتت من دونها كلام، كان لها ما أرادت. وجدت المعتوه أمامها. التفتت باتجاه آخر، فوقع على عينيها وهو يسبق التفاتتها، فيشخص في كل مكان، ثم فاجأها بنطقه الواضح القوي العذب:

- هل دعوتني يا داهية؟

- بل دعوت أبي.

- أنا أبوك!

- إني أعرف أبي.

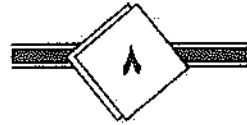
- أجننت تسأليني عن الحرب؟

لا فرق بين المعتوه والولي، وبينها أو حسن، والمختار، وابن

النبهان، الموتى والأحياء يسألون عن شيء ما. مجهول. معروف.
أصبحوا أشبه بالمجانين. الحرب. من عهد آدم وهو الشجار باق إلى
اليوم، والولي الذي ترك الحرب يوم كانت الدنيا غضة طرية لا يجيب،
وهو يعرف أن لا أحد يسأل عن الأمان ومتى يحل على الأرض؟ اليوم
رأت ما لا تراه عين حتى كادت تنفجر من الغيظ:

- هل تحدث حرب؟ متى؟ أريد أن أعرف. أخبرني؟

نظر إليها نظرات غريبة مبهمة غموض الساعة التي هي فيها،
وغادر المكان. القبر. كان حقاً المعتوه. وقد ازداد اللغز غموضاً. هل
كلمته نائمة أم في حالة صحو، ومع التفاتها، وعيناها تتعقبانه، وهو
يهوول إلى مكان ما، تناهت إلى سمعها أصوات خشنة جادة، ورأت
عبر الفضاء المترامي من طرف البر حركة لناقلات ودبابات، وسمعت
أزيزاً في الجو، فاستعادت بالله من الشر القادم، وأطفأت الشمعة، ثم
غادرت المكان، ومن حولها، عن بعد، عند طريق البر، على الحدود،
تزداد كثافة الأصوات، وحركة الناقلات المتوجهة نحو الجنوب والشرق.



أخيراً... لم يكن أمامه بد... عرف أنه استنفد كل وسائله، ولم
تجد ملكة الليل لمزاحها من منفذ أمامه سوى أن تقول له قيل أن يخرج:

- رفيق.. رفيق.. متى تعود!

أما الداهية، فقالت:

- إذا طرحوا عليك مسألة الجيش الشعبي والتدريب على السلاح،

فأنت مريض ومعنى من الخدمة الإلزامية. لا تنس ذلك، مفهوم؟

وهو آخر يوم وأول يوم. هكذا نحن نتخبط في الأيام فما أتعس
الذين يلهثون وراء ما بين أمس واليوم، وقد كان القلب يسيل أمام
الرغبة والرغبة، فإذا هو يخر أمام الخوف وحده، والداهية تخاف عليك
من التدريب والجيش الشعبي، وربما يقولون لك: حسناً لا تتدرب،
لكن تعال معنا لتقشر البصل والثوم، حسن سبقه بسنوات، ومارس
القتل قبل أيام، فأية دنيا سوف يدخلها بعد عالم الحاجة الخرافي
اللذيذ، ودنيا الداهية الصارمة الزاهية، ثم الحياة الحلم مع إمبراطورة
القلب ناهدة! كلهن نساء، وها أنت يا عبد تسير كالسلحفاة إلى عالم
جديد. تكون بعثياً. أخيراً اقتنعت؟ أو الأيام هي التي أقنعتك. المهم أن
تقتنع أنت، وتغض النظر عن تلك الكشرة التي تسفر عن أسنان
صفراء، وتردد مثلما يردد المسؤول الأعلى. ألم يعترف حسن أن
الحزب علمه التدخين وشرب الشاي تلك السيرة التي أثبتت أصالة
الحزبي أيام النضال السلبي، ومثلما رأى الموت ذات يوم يحوم في أم
البروم وبينهما عدة أمتار. سياج واطئ فقط ذو قضبان، لتدور الأيام

فتبرز نهر جاسم إلى القتل من جديد. تمارسه عبر حدودها. كان أهلها حين يجد خلاف بينهم يقتل بعضهم بعضاً، وآخر موجات العنف وفق رواية أمّه الداهية، والمرحومة، وملكة الليل كانت يوم طرد آل الحاج عبّاس عائلة النمر، أبعد كلّ تلك العقود والسّنوات تشتاق القرية إلى القتل، فلا تقدر أن تأكل بعضها، إذ لم يعد في جسدها ما يؤكل، لكنّها تمتدّ إلى أبعد من نفسها، فتقتل الآخرين:

- لديّ بعض الآراء الصريحة أرجو ألا تنزعج منها.

- أنظر كيف اكتسبت شجاعة حالما انتسبت إلى الحزب.

ساعة ألقى الاستمارة على المنضدة، راوده نفور من زمن الطفولة، وعاوده الحماس ذاته الذي أبداه أمام الداهية، والشجاعة نفسها التي اعترف بها:

- هل مارست القتل حقاً؟

ابتسامة، ويمسح شفّتيه بكمّته:

- هؤلاء خونة، ومن حقك أن تستفسر، لكنّي أقول لك: إنّ

الطّعنة إذا جاءت من الأقرب تكون أشدّ، فالعقاب يلزم أن يكون أكثر حدّة.

الطفولة انتهت بالجنون والقتل العلنيّ، فهل ينفع التمرد الآن،

واللحظة تؤذن بخراب البلد كله بدءاً من شيء معروف مجهول:

- هل أنت نادم.

- أبداً... أبداً.

- إسأل أيّ شيوعي سابق بعشيّ الآن عن وضعه الماضي والحاضر
أيهما أفضل... ..

- من حقي بعض الاعتراضات..

- هذا أفضل ، ربما تلتقي بمسؤولين في جلسات ومناسبات قد لا
يفهمونك مثلي فلا تتردد معي في السؤال عن أي إشكال.

- أفرض أنني اقتنعت ، ما ذنب الآخرين ؟ وما فائدة كسب الفلاح
الأمي والفلاحة الأمية اللذين يظنان حصاناً مشوهاً عفريتاً أو جنياً
ممسوخاً. لو كنت هنا ورأيت كيف كبرت قريتنا بقدرة قادر ، وتحولت...
- الرهان على هؤلاء لأنهم يمثلون الأغلبية.

- الشيوعيون في فترة من الفترات اهتموا بالكم لا النوع فسقطوا.

- ليس هذا هو السبب ، بل لأنهم استفزوا عواطف الناس
ومعتقداتهم.

- إذن هذا هو المحور. كيف يقتنع الإنسان البسيط بالانضمام إلى
حزب أسسه مسيحي.

- حسب هذه القاعدة يجب ألا نقبل إسلام الصحابة. كانوا يعبدون
الأصنام. كيف نقبل إسلام محمد علي كلاي ، ونرفض إسلام عفلق ،

ثم إن الرجل قال يا عرب كونوا أمة واحدة. ما علاقة الفكرة بالدين ،
أو كونها تتعارض مع الإسلام ، بالعكس !

- أنا معك ، لكن الموضوع حساس وربما تستفيد منه إيران في أي

نزاع ينشب بيننا وبينها.

- لهذا السبب نقول من ليس منا فهو علينا.

- أنا منكم يا رفيق !!

- من حسن حظك أن أكون أنا مسؤولك ، فتستطيع أن تسألني عن

كل شيء ، وتلزم لسانك مع الرفاق في أي اجتماع ، وسوف أصحبك

إلى اجتماعاتي في القرى ، والمراكز فتحضر معي الندوات واللقاءات

لتزداد خبرتك.

ليقل ما يشاء ، وليقل هو ما يشاء. المهم إنه بعد سنوات نفت ما في

صدره أمام الداهية أمه ، واكتسح حسن رفيق طفولته ، فلامنصر من أن

ينساق مع أحد الأطراف الثلاثة. الجنون حيث عالم ناصر المسعود يرى

كل شيء ، ولا يبصر أي شيء ، لأحد يسأل عنه ولا يسأل هو عن أحد ،

وهناك عالم المرحومة والداهية ، ولا مفر إلا أن يختار العالم الجديد

على مضض ، فيعيش لحظات الفرح والخوف ، على الرغم من كرهه

لذلك العالم ، ونفوره من حسن الوحيد الذي يأمن إليه لحد الآن !!

وليكن في غد ما يكون...



في الأيام القادمة راحت الداهية تسابق الزمن، كأنها في مشوار لا يريد أن ينتهي. بدأت تخرج كل يوم إلى الضريح. كانت كلما ازدادت ضجة البرّ وحركة الناقلات، توغّلت في شرودها وثّمت تحوم عيناها في الفراغ عليها تعثر على بصيص من بعيد، غير أنّ المشهد أبى إلا أن يطالعها بشكله الأخير غير مبال بخاطرتها اللاهثة وراءه. كان يتوحّد في كلّ الاتجاهات: الأنهر يسير أحدها نحو الآخر. البرّ يلتقي بالنهر، فلا الأرض أرض ولا البحار بحار. الحمرة تغطّي الضباب ومياه الأنهار، أمّا الذباب، والبعوض فيصبح من معدن وحديد...

اليوم أم غداً... كانت تقول لأبيها الصّامت أمامها: إنّ الطريق لم يعبّد بعد، وما نسمعه أو نراه من تهديد أو حشود أمر حدث كثيراً، لكنّه زاد عن حدّه في هذه الأيام، فما تقول أنت؟

هذا ما يمكن أن يكون وفق ما وقعت عليه عيناها وسمعته

أذناها...

السكون غائب...

صخب قبل الهدوء، وقلبها يعرف من زمن أنّ المصائب تجري

حيث يسبق السكون!

ضجّة وشتائم... .

حديد يقطع البرّ..

فجأة... .

ومن حيث لا يعلم أحد... .

ولا الدّاهية صاحبة النبوءة... .

فجأة... من كل مكان يطلّ وجه الحرب... الحرب!

فعلاً يا داهية إنّها الحرب، وقد راهنت على كلّ شيء: النبوءة،

السكون، الخوف، الإذاعات... .

ويبدو أن الأحداث مرّت كلمح البصر أكبر من قدرة نهر جاسم على الاستيعاب، وأوسع، فاستعصت، وهي تحلّ في غير وقتها، على فهم الدّاهية الواثقة بنبوءة آخر زمان. في البداية اندفع الجيش داخل الأراضي الإيرانية، عندها كانت نهر جاسم تغفو بأمان أوّل الحرب، وتلمس بهاجسها حدث الحرب لحظة بلحظة: عربات الجيش مرّت من الطريق الترابي. مدرّعات بالمتات تندفع من طريق البرّ. طائرات تغطي السّماء. ولا أحد يشكّ في أنّها هي الحرب أمام السّمع والبصر. وتكاد القلوب تنفّسها. أيعقل أن يجري ذلك بساعات وأيام، وفي الليالي الأولى استمرّ الصّخب عند طريق البرّ ثمّ خفتت حدته. خلال تلك الأيام لم يفكر أهل نهر جاسم بالنزوح. قالت الدّاهية هذه ليست الحرب

المقصودة بالنبوءة، فالدرب لم يعبد بعد، ولا حرب حقيقية من دونه، ولعلّ إيران المتعبة من الثورة، والمشغولة بأمريكا تقبل بوقف القتال، وعلى الرغم من كلّ مظاهر الحرب إلا أنّ نهر جاسم ما زالت في أمان، وخامر الظنون أن تنتهي المعارك بعد بضعة أيام، وهتف عبد حين سمع أنّ الجيش أصبح على مشارف الأهواز؛ المكبس سلم من الخطر، وبركة الضريح تظل على القرية. كان حسن كثيراً ما يصحب عبد في جولاته، وجهوده الإعلامية. بعض الأحيان يخالط لهجته الخطابية تهديد واضح. العراق لم يخف من موسكو حين رفع العصا بوجه الشيوعيين، ولا من عبدالناصر، ولحن نؤدب القوميين المنحرفين، أو من إسرائيل حيث أعدمنا الجواسيس، فمن تكون إيران، ومن هؤلاء أصحاب اللحي والوجوه المصفرة:

- إيران لم تتحرك بعد...

- أين هو جيش الشاه؟

وفق تلك الصورة جرت الأحداث، عبادان سقطت. الأهواز محاصرة. الأهالي يذهبون إلى العشار للتبضع شأنهم أيام السلم، ثمّ يتابعون البلاغات، ولا يزعجهم سوى ظلمة الليل، وصفارات الإنذار، ويبدو أنّ القرية، والحرب تطول، بدأت تفقد شبابها، وتقرّ أخيراً بهاجس مشوش، وكثيراً ما كانت النفوس، تلوك وسط نشارة

الدم ، سؤالاً تنمّ عنه العيون وتحشى الألسن من أن تبوح به : لمّ اندلعت الحرب؟ وعلام اندفع الجيش داخل الحدود؟ ماذا لو كان عند إيران جيش؟ وتميل التخرّصات إلى السلاح النووي، والكيمياوي، والأسلحة السريّة، مع ذلك لأبد من الفرح، وبين السعادة المصطنعة، وبداية تملل الخوف، استهلك الأهالي قنواهم، وزادهم تعباً أن النبوءة، ألفت، في مثل هذه الظروف، بكاهلها على صمتهم الذي لا يبد منه. بدأت النبوءة تطل بمعالها عليهم، وتنفض زويداً زويداً غبار الزمن عنها. كانت تلمي الواقع من جديد كما أرادت من قبل : بين عشية وضحاها غزت الأنظار عشرات السيارات والشاحنات المحملة بالحصى والرمل، وفاحت رائحة الزفت والقار، ومثل أي كابوس كربه جثمت على الأنفاس آلات المزج والخلط والنخل والرصف، فأدرك أن النبوءة ربما تتأخر لكن لا تكذب نفسها. لقد أصبحت رائحة الزمن ماثلة للعيان، ومعها خرجت الدنيا عن وهمها، فسقطت على الطريق الذي بدأ يتلوى بالزفت والقيير!!!

معقول!!

يا الله أحقاً حدث ذلك؟!

الشؤم فرض نفسه قبل الأوان، كمن به مرض مخفي، يشك فيه، تلك الحكاية التي نامت طويلاً ثم استفاقت منتصف الحرب، فكانت

الذاهية تبصر القتال والقتل ولا تدركه ، وكان أهل نهر جاسم يعيشون الحرب ، ولا يرونها فكم من ولاة فكروا وأعرضوا ، كم من رؤساء وملوك مروا ، عندئذ شهقت الذاهية ، وأخرست عبد الدهشة ، أما حسن فكان يتباهى أمام الأهالي ، وهو يؤكد فكرته القديمة في أن الطريق كان قبل الحرب يخدم الجانب الإيراني ، أما الآن وقد احتل الجيش عبادان ، وأصبح على مشارف الأهواز ، فلم يعد من مسوغ لتركه كما كان ، وليعلم الناس أن الحكومة تركت طريقهم من دون تعبيد لهدف يصعب فهمه من قبل العوام ، وإلا فما قيمة طريق يستره الزفت والقيير أمام منجزات عظيمة كالتأميم وبيان آذار.

والحق فإن نهر جاسم بعد التعبيد بدأت تفتح عيونها بالخوف والقلق على عوالم أخرى. مرت بها قرى جديدة ، واحتكت بالجنود العائدين من الجبهة المارين بها ، كانوا محملين بالغنائم. ساعات.. راديوات.. تلفزيونات.. مسجلات.. قلائد. وكان بعض الضباط يستقلون سيارات تركها أهلها وفروا أو استولوا عليها من معارض في عبادان ، وتناقلت العيون بالصمت حكايات كثيرة لكن أحداً لم يجرؤ على البوح ، كأن العيون والذاكرة والهواجس انتقلت من إنسان إلى آخر من غير الحاجة إلى آذان وألسن ، وكان أقصى ما تستطيع أن تفعله الذاهية أمام ما يعرضه الجنود من غنائم للبيع ، هو أن تستعيد بالله مما تراه :

المال الحرام!

- متى تحين الساعة؟

- هل ينتهي العالم عمّا قريب!

- الدنيا لم تشخ بعد.

- الدجال.

- الدجال أعور!

ولا تلم نفسها إلا حين تعود من الضريح، وتأوي إلى البيت،
فينطلق لسانها مع ملكة الليل وعبد عمّا رأّت وسمعت في ذلك النهار،
وهي مأخوذة بمنظر الجنود العائدين من الجبهة، والحق إنّ الحرب
جعلت مقام أبيها الوليّ يزداد رفعة، ليس فقط لأنّ العرب الرحل
ضربوا بخيامهم حول الضريح عند اندلاع الحرب فازدهى المكان بالحياة
وامتلأت الباحة الفراغ إلى بداية (عريزة) بل شملت بركته بعض
الجنود الذاهبين من الجبهة بإجازات، إذ شوهدوا يتوقفون أمام الباب
فيقرؤون الفاتحة أو يلقون إليه ببعض النقود.

في غضون ذلك تحتم على نهر جاسم أن تحتضن الموت. أشبه
بإعدام حصان معتوه بدلاً من أن يذهب أهلها إلى مكان آخر ليعزوا
ذوي الموتى، وبعد انتشار الأحاديث عن الأعور الدجال، ومرور
أشهر على الحرب، رابطت في المفرق إلى اليمين عن الضريح حيث

طريق البر المكتظ بالحركة فرقة يتحدث أفرادها لكنة غريبة ، ويبدو أن الناس تحاشوا الاحتكاك بجنود الحاجز مبتعدين بالمرّة عن طريق البر ، باستثناء المعتوه الذي يكلم الجميع مدنيين وعسكريين ، كان في أغلب الأوقات يقف عند الحاجز ، فيجد المسلحون فرصتهم لممازحته ، مع أنّه لا يقف هناك - شأنه في أيّ مكان - أكثر من بضع دقائق ، حتى طرق حسن ذات يوم البيوت بيتاً بيتاً يعلن أنّ على أهل نهر جاسم الحضور بأمر الحكومة والحزب إلى الحاجز ، فخشيت الداهية على ابنها عبد ولم يطاوعها قلبها أن تتركه يذهب وحده ، فصحبته إلى هناك ، مما دفعه إلى مجاراتها في أثناء المشي ، والخروج قبل الموعد المقرر بساعة على الأقل .

وقبل أن ينجلي المشهد ، كانت الظنون تميل بالناس نحو تأويلات شتى . أي خبر هذا الذي تجمع له الناس فرضاً ، فما كان لابن العمران أو غيره من الحزبيين أن ينادوا بجمع الناس كلهم قسراً . إنها نهاية الحزب أم أي خبر . تبرّع للمعركة . تطوع . تحذير من إيواء هارين ، أما قرب الموقع فقد تجلّى بعض الغموض : ثلّة من الجنود ذوي اللكنة الغربية يرتدون ملابس خضراء مرقطة ، وعلى مدى خطوات شاحنة عسكرية ، وسيارة جيب صغيرة استند إلى مقدمتها ضابط طويل ، أحمر أشقر . كان المسلحون والضباط يشيرون إلى ثلاثة جنود معصوبي العيون ، جثموا مكتوفي الأيدي إلى ظهورهم ، ويتوارد الدقائق ازدحم

المكان بالأهالي ، والعرب الرحل ، ولكون الفضاء مفتوحاً ، فقد تمكنت
الداهية وبعض النسوة من متابعة المنظر وهن جالسات ، ظل عبد واقفاً
جنب أمه وعيناه تتأرجحان بين حسن الواقف ضمن مجموعة الحاجز ،
وجنود الإعدام ، أو الجنود معصوبي العيون ، ثم تستقران على وجه
أمه المتعب. علامة الموت تحوم مرة أخرى. الحصان... المشنوقون
الثلاثة في ساحة أم البروم. المحافظات كلها تشترك في الإعدام. المشنوقون
يدلعون ألسنتهم بوجوه المتفرجين. سيارة من زمن بعيد ، أي عهد كان
تأتي عن طريق البر ترابط في الفسحة يقال عنها سينما متجولة. ملكة
الليل والعييد ذهبوا حالما غابت الشمس ، وتناثرت الأنوار من السيارة ؛
ضحك إنه الضحك الذي نسمع به من ابن الرواس. قالت له لو كنت
في بلد آخر لأصبحت ممثلاً مثل الذي رأيناه يدلح لسانه ، وقال لها يا
ملكة الليل ، أما أنت فسوف تقفزين من مقعدك لأنك ستظنين السيارة
في الشاشة تسير نحوك ! كل ذلك يجري والممثل يتغير. يقفز من طائرة ،
يدخل مسماراً في أذن فيخرجه من أخرى. الجمهور يضحك ، ونهر
جاسم تكبر فلا تعرف نفسها على حقيقتها إلا في البكاء والضحك.
يرتفع الضحك ، ولا بد من الاحتفال : أم البروم ، أم ذات مساء حين
تأتي سينما متجولة ، وخلال لحظات يستعد جنود الحاجز ، الجبناء
حاولوا الفرار. الضابط يشير بيده ، ثم يزعم فيردد البر صيحته :

- استعد!

جثا ثلاثة جنود، أمام المكبلين، فلم يتأخر الضابط بصيحة ثانية:

- ارم!

انطلقت الرشاشات. الموت. لا أكثر من رعشات خفيفة. زغردت بعضهنّ. وملكة الليل كادت تغمض عينيها وتفرّ بهما إلى السينما المتجوّلة التي طالعتها ذات مساء. أمّا الداهية فلاذت بعينيها عن المشهد إلى أيّ مكان.. أهو الكبرأم التعب جعلها تقرف، وهي التي فتحت عينيها على الموت. كنّا نعيش القتل بأيد طليقة وعيون مفتوحة، نقتل ونقتل، فلا تقرف من منظر الدم كمشهد اليوم، وكم رأيت لعاب أبيها يسيل للدم ورائحة الموت قبل أن يعرض عنه تماماً، ولم يكن قط ليكبّل أيدي أعدائه ويعصب عيونهم، وكأنها منذ ذلك العهد البعيد شدّت بيدها طرف سروال عبد، فذابت تنهيدتها وسط الأصوات الطائشة:

- خونة يستحقون.

- النبي قال الدفاع عن الأرض والعرض والمال.

- من يدافع عنّا إذا انهزم الجند.

- والله لو كانت لنا حدود مع إسرائيل...

- في العراق رجال...

وفي أيّ وقت كان عصرأ أم ظهراً، أيّ وقت للإعدام، وغالباً ما

يكون قبل أذان المغرب ، كانت القرية تعود من مراسم الإعدام صامتة. تلك الليلة أعرض عن الطعام، وبان الإرهاق على وجه الداهية إلى درجة أن عبد لامها بلطف على مرافقتها له ، وكان يعلم أن قلبها لا يطاوعها أن تتركه وحده :

- ألم أقل لك لم يكن لحضورك أي معنى !

- من منا لم ير الموت ، لكنه لم يكن بهذا الشكل.

وقالت ملكة الليل ، وذاكرتها تومض ثانية بين السينما والإعدام :

- يا قلوب أمهاتهم.

بعد الحادث السابق بدأت نهر جاسم تعي نهايتها ، ولا تبالغ الأخبار إذا عدت تعبيد الطريق . حسبما ورد في النبوءة القديمة . علامة لزوال تلك القرية ، كما زال من قبل قوم عاد وثمود. فمع ازدياد الحواجز وتنفيذ أحكام الإعدام علناً بالجنود الجبناء على مشارف القرى ، ازدادت التكهينات في أن أمراً ما سيحدث ، بعد أن ظن الجميع في أن الحرب ستتوقف باندفاع الجيش داخل الأراضي الإيرانية ، لكن شيئاً فشيئاً بدأت أصوات المدافع والانفجارات تقترب حتى كادت تسمع في القرية التي تحدثت هذه المرة عن حرب شعواء تأكل الأخضر واليابس وتعيد العالم إلى زمن السيوف والرماح والسهام. هي الحرب الثالثة. البشرية ترجع إلى عهد آدم. تختفي مظاهر العمران. الناس

يركبون الحيوانات ، وفي آخر خميس للداهية مع أبيها في ضريحه ، رأت
بين فرق الإعدام المقتفية أثر الهاربين ، وهدير الدبابات ، رأت أخاها
عبد وزوجها الغالي النمر. أبصرت كل من ماتوا ، وبرفقتهم الأحياء
يحيطون بالولي. كان يجلس على عرش الماء ، وفوق رؤوس المریدین
تخلق غمامة هابطة من السماء ، ولم يطل الصمت بالولي بل انتفض
فجأة فتطاير الماء حوله وهدرت السماء ، ليزعق بالأحياء دون الموتى :

- انفضّوا من حولي !

من تجرأ على الكلام الداهية وحدها :

- المقيم يا داهية كالراحل !

- قد تنتهي الحرب يا أبي.

- كلکم قاتل وکلکم مقتول.

- سمعت من قبل !

- كلکم قاتل ومقتول !

إلى هنا يختفي دور الراوية فلم يعد لها وجود ، لأن الحرب تغيرت
فجأة ، وليس بوسع الأهالي إلا الاستعداد للهرب المفاجئ ، فعند
الظلام تحققت النبوءة عبر طرفيها المتناقضين : الماء والنار. غاب النوم
من العيون. واضطروا للسهر كي يتابعوا البلاغات. وفي ساعات الفجر
انقلبت لهجة مذيع بغداد ، كأنه يتكلم بانكسار. الظواهر الجارية تدل

على حدوث شيء ما ليس في مصلحة البلد. وكانت الداهية تزداد قلقاً على عبد، وفكرت حقاً بالفرار، وبين اللحظتين الهرب الأول، والفرار الأخير، تلخصت سنين طويلة استلها منها توقف المذيع عن بث الأناشيد الحماسية وإذاعة بيان لم تفقه من معناه أية كلمة، وعندما رجع الغالي ظهراً، وكان قي مقر الشباب مع حسن، حدثها عن صديق الطفولة، وما فعله قبل انطباق الماء المفاجئ على نهر جاسم، فجالما شاعت هزيمة الجيش في عبادان، فقد حسن أعصابه، وصرخ أن الجيش تراجع ليعيد الكرة، ويستعيد أراضي أكبر مما كانت في قبضته، الحكومة واثقة من نفسها، لأن إيران لم تخترق حدودنا بعد، وأهل قرى شط العرب خاضعون للأمر الرسمي الذي يفرض عليهم البقاء، ولكي لا يبدو بهيئة المتصل من كلامه أكد في اجتماع دعا إليه بمبنى الشباب أنه سوف يمثل القرية في المعركة القادمة، خير تمثيل، فإما أن يرجع ومعه سيارة تكافؤه الدولة بها، شأنها كل مرة مع المبدعين في الحرب، أو أن يعود بتابوت...

أما كيف حدث الأمر فهناك أكثر من خبر...

قيل إن إيران بعد استيلائها على عبادان، واندفاع جنودها نحو الحدود، وضعت نهر جاسم أول هدف لها حيث تقطع اتجاه الجنوب، ومن سخرية القدر أن كلا الفريقين كان يتعامل مع النبوءة من دون أن

يدري، إيران كسرت سد الكارون لتغرق الكتائب المنتشرة في البر، أما العراق، فقد فتح قنوات الماء كي يغرق البساتين، فيعيق الإيرانيين... ولم يكذب أهل القرية عيونهم وهم يرون الموت يزحف، ويلتهم أول المتحمسين للوقوف بوجهه: حسن العمران. كانت الضجة أكبر من أي حزن، ففي خضم الأحداث العظيمة ينسى الناس أنفسهم وتظل مألوفة في الحرب صورة الموت، ولم يحضر جنازة ابن العمران أحد، فالجميع يتأهبون للفرار، ربما تكون الداهية أكثر من بكى في مجلس الفاتحة. كانت ساعة العزاء تذرف الدمع لمصرع الأحبة، فمن رأى دموعها لم يشك لحظة في أنها تنزل حسن منزلة ولدها، وهي وحدها تعرف جيداً إنه الفيضان القديم جاء هذه المرة بالماء والنار، فعلى من يا ترى يحل الدور بعد ابن العمران؟

إنه القدر المبرم والذي معه جاءت الأشجار تهوي، وجذوع النخل تجثو كهياكل نافقة في الرمال، فأين هي العيون من الذباب وقد بدا يحوم على بقع حمراء يزاحم بعضها بعضاً على الأرض، مع ذلك قد يكون ما يحدث وهماً يجري أمام العيون لولا أن الحوادث السابقة جاءت تذكر الداهية بطفولتها. آه من وجه للحوادث غير غريب خادعها بثوبه الجديد، فكيف عرفته ولم تدرك وقتها أنه الولي الذي أغمد سلاحه وصرخ ثم هرب فيما حوله، في هذه الساعة وهو صامت

لا يسمعه إلا الداهية، نعم هي التي تسمع فقط ولكن لا تدرك
كلماته!!

وشياءً فشيئاً...

رأت المياه... أبصرت كل شيء. كانت نهر جاسم أو بقاياها تلتفت
إلى نفسها وتنسى للمرة الأولى موسكو وواشنطن وبغداد وبكين
وطهران...

كانت المياه تبتلع الطريق، والنار تهبط من السماء. العنقوان.
الموت. الأيام كلها تساقطت، الميمونة والمنحوسة. هي ذاتها الحشرات
الحديد التي ظهرت في التجلي الأخير. المشهد الساكن تملل، والوحش
الخرافي، غامض الملامح، وكان هناك معتوه، يركض بين الماء
والنار... أما الداهية فكانت تهول جهد سعيها مع من هرولوا يسندها
ولدها عبد وعصاها ومن خلفهما ملكة الليل. لقد حاصرها الوقت
وضايقها الماء، والنار والحديد.

ولأن الراوية اختفت، فكل شيء يخضع للتخرصات، وكل
الأحداث تعتمد على الوصف الخارجي، ففي حالة مثل هذه يتساوى
الظاهر والباطن، والخارج والداخل.

يقال: السيل قدم من الشرق، والدماء سالت فوصلت الركب.
النخل احترق، وانمحقت الخضرة. جثث الشجر المحزوق اختلطت

٤٠: الصفصاف والسدر والعنب. النخيل من غير رؤوس. هياكل
روقة من أعلاها، ومن أسفل تعفنت بالماء. ثلة الموتى جبل عريضة
كدست عليها الجثث فاختلفت عظام الكبار بالصغار. أما الضريح فقد
رفضت ذاكرة من بقي من القدامى أن يصيبه أي مكروه قد يصل الماء
إلى بابه، ويقف، أو تعجز السنة النار أن تأكل عتبته، ولعله يغرق ثم
يظهر من جديد بعد سنوات، فتصاحب ظهوره المفاجئ معجزة جديدة.
الحق لا أحد يقدر أن يعطي وصفاً دقيقاً لما أصبح عليه الضريح بعد
النكبة ما عدا ذلك الخبر الذي ارتبط بالمعتوه ناصر المسعود يوم اندفاع
النكبة ما عدا ذلك الخبر الذي ارتبط بالمعتوه ناصر المسعود يوم اندفاع
السييل والنار. هو وحده لم يفر تشبث بالضريح بزعم بصوت واضح:
الحرب الموت الحرب حينئذ انقطعت أخباره، وقد اشتبه به بعض
الأهالي الذين نزحوا إلى العشار ومحافظات أخرى عند اشتداد الحرب،
فخيل إليهم أنهم رأوه أو رأوا أشخاصاً يشبهونه في مناطق مختلفة.
أبصروه في الناصرية، والحلة، وبغداد. في كربلاء والنجف، وهناك من
رآه في الرمادي والديوانية والكويت، وكل من رآه يدرك أنه ناصر
المسعود وليس شخصاً آخر. المواصفات نفسها. البيئة ذاتها. الملابس هي
هي لم تتغير، كأنه انشطر كالحرب القائمة إلى عشرات الصور.
أما الداهية وابنها عبد، فيقال إنهما استقرا في قرية أخرى بعيدة
عن الحدود، وانقطعت أخبارهما عن كل مخلوق، اللهم إلا إذا التقينا

راوية أخرى جديدة عاشت معهما في مكانهما الجديد، وراقبت
أخبارهما عن كثب، مثلما حدث في المرة السابقة...
ولعلها تكون ملكة الليل...

تمّ الانتهاء من كتابة هذه الرواية
في كوبنهاغن بتاريخ ١٩٩٣/٣/٢٣ م



فهرس الكتاب

الإهداء	٥
السفر الأول «الداهية»	٧
السفر الثاني «الطريق»	١١
السفر الثالث «الشبكة»	٢٠١
السفر الرابع «الحرب»	٢٩٧
الفهرس	٣٧٧



